كتاب

عِلمُ الأَدَب

الجزء الثاني

في

عِلمِ الخَطابةِ

تأليف

الأبوين لويس شيخو وجبرائيل اده

اليسوعيين

بيروت ولايتي معارف مجلسي طرفندن ويريلان ٢٩١ نومرولو
رخصتنامه ايله طبع اولنمشدر

طبع في مطبعة الاباء اليسوعيين في بيروت
سنة ١٨٩٠

الفصل الاول

في

اصول علم الخطابة

تأليف

الاب لويس شيخو اليسوعي

كتاب

علم الادب

الجزء الثاني

في

عِلمُ الخطابةِ

قال ابن سينا : ان الحكماء قد ادخلوا الخطابة والشعر في اقسام المنطق لان المقصود من المنطق ان يوصّل الى التصديق . فان اوقع التصديق يقيناً فهو البرهان (والبحث عنهُ في القياس والجدل وآداب البحث) . وان اوقعهُ ظنــاً او محمولاً على التصديق فهو الخطابة . امّا الشعر فلا يوقع تصديقا ولكن لافادة التخييل الجاري مجرى التصديق من حيث انه يُؤثر في النفس بسطاً او قبضاً عُدَّ في الموصِل الى التصديق

(فائدة) قول ابن سينا ان الخطابة توقع التصديق ظنًا فلأنها كثيرًا ما تتعرَّض لترجيح احد امرَين استويَا ليس لاحدهما مزيَّة على الآخر كتقديم الحرب على السِلْم او السلم على الحرب الى غير ذلك من فنون الكلام كما سترى

أَلقسمُ الأوَّلُ

في علم الخطابة

فصلٌ

في حقيقة علم الخطابة وتقسيمها

س ما هو علم الخَطابة

ج الخَطابة باللغة كالخِطاب وهي الكلام النفسيّ الموجَّه بهِ نحو الغيرِ للافهام (١) وفي اصطلاح الحكماء هي صِناعة تتكلَّف الاقناع الممكن في كل مقولة من المقولات (٢)

فقولهُ: (الخطابة صناعة) فعلى بناء انها مجموع قوانين متعلقة بكيفية العمل. وقولهُ: (تتكلف الاقناع) فلأن غايتها ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم (٣). وقولهُ: (الاقناع الممكن) فلكون الخطابة تتحرَّى في كل مسألة ما يفيد الاقناع وان لم تتمكن من غايتها على الاطلاق. ومنزلتها في ذلك منزلة باقي الصناعات فان الطب مثلًا لا يشفي في كل طورٍ من اطوارهِ على ان غايتهُ الشفاء. وقولهُ: (في كل مقولة من المقولات) فلأن الخطابة شاملة لجميع المسائل ولا تقتصر على جنس واحد مثل باقي الصناعات التي تتكلف التعليم في حَيزها الخاص كالهندسة مثلًا تقرِّر على طريق القياس ما يختص بتكييف الاجرام وكذلك الطب يبيّن

١ كليَّات ابي البقا ٢ تلخيص خطابة ارسطو لابن الرشيد ٣ ابن خلدون

حقيقة الوسائل النافعة في امر الصحة والعلاج. وهلمَّ جرًّا اما الخطابة فتعم كل مبحث وتقنع في الاحوال كلها اجمع (١)

س ما هو موضوع علم الخَطابة

ج ليس للخطابة كما روى ابن رشد نقلًا عن ارسطو موضوعٌ خاصٌّ تبحثُ عنهُ بمعزلٍ عن غيرهِ . فانها لا تخيم عن النظر في كل العلوم والفنون ولا شيء حقيرًا كان او جليلًا معقولًا او محسوسًا اِلَّا ويتطالُ اليهِ جيدُ كلامها ويخضعُ لسلطان لسانها . ومن ثَمَّ يترتَّب على الخطيب ان يكون لهُ إلمام بكل صنفٍ من المعارف ويوسع كل يوم نطاق مداركهِ

س ما هي غاية علم الخطابة

ج غاية هذا العلم الاقناع كما سبقت الاشارة اليه . قال ابن الفضل الانطاكي: شأن الخَطابة ان تلتمس اقناع الانسان في ايّ امرٍ كان

س ما هو الاقناع

ج هو ارضاء السامعين بالبرهان . قال بعضهم: الاقناع ان يُحاول الخطيب فيصرف ذهن السامع الى ان يسكن الى ما يُقال ويصيخ لهُ (٢)

---

١ راجع تعريب كتاب خطابة ارسطو لابن رُشد
٢ كتاب المنفعة لابن الفضل الانطاكي

س باي طريقة يبلغ الخطيب غايتهُ

ج للاقناع طريقتان :

الاولى ملكة البلاغة اي الاقتدار على الكلام في تأدية المراد

الثانية معرفة المقاييس المناسبة في مخاطبات الجمهور كالمخاصمات التي تقع في مجالس الدعاوي او المدح او الذمّ مع الحِيَل النافعة في الاستعطاف والاستمالة والاغراء وتصغير الامر وتعظيمهِ ووجوه المعاذير والمعاتبات ووجوه ترتيب الكلام في كل قصة وخطبة (١) كما سترى

س ما هو شرف صناعة الخَطابة

ج شرفهُ انه يكمّل الذات البشريّة لان الخطيب يرشد السامع الى ما يحتاج اليهِ من امور دينهِ ودنياه ويقيم لهُ مراسيم لتقويم عيشهِ والاستعداد الى معادهِ (٢)

س ما هي فوائد علم الخَطابة

ج فوائدها اكثر من ان تُحصى اذ تُعرف بها طُرُق استعطاف الخواطر وتمكّن صاحبها من مقاليد القلوب . وبنبراسها تستضيء موارد الدليل ومصادر البرهان لانفاذ

١ رسالة ابن سينا في تقسيم العلوم ٢ الشفاء لابن سينا

كل امر جميل وادراك كل غاية نافعة . هذا الى وقوف صاحبها على شِعَب السهو والزَلّة لدحض اقاويل الخصم

س ما اصل صناعة الخطابة

ج لمَّا جعل الله الانسان ناطقاً دالاً كلامهُ على المعاني الحاصلة في الضمائر . وكانت من ثمَّ الافكار متباينةً سمت همَّة بعضهم الى اصلاح ما كان احرى بالقَبول فاتعبوا انفسهم في استنباط قواعدَ ثابتٍ ركنها على ذات الطبيعة (١)

س من اوَّل مدوّن لهذه الصناعة

ج هو ارسطو الحكيم المشهور . دوَّن قواعد هذه الصناعة في كتاب سمّاهُ الخطابة ضمَّ بهِ شارد هذا الفنّ وجمع شتاتهُ . وقد عرَّب تأليفه ابن رشد وأخذ عنهُ الفارابيّ وابن سينا وكثيرون غيرهما

س ما هي مرتبتهُ

ج مرتبتهُ ان يؤخَّر على العلوم اللسانيَّة كاللغة والمعاني والبيان وما شاكل ذلك ليستعين بها ويلتقط من فرائدها في بلوغ غايتهِ

١ درر الخصائص للوطواط

س ما هي اركانهُ

ج هي الاركان الاربعة التي سبق الكلام فيها في توطئة علم الادب (راجع الجزء الاوَّل)

س على اي مِحور تدور صناعة الخطابة

ج تدور على مِحوَرين هما اصول فنّ الخطابة وفنونها

الفصل الاول

في

اصول علم الخطابة

س كم هي اصول علم الخطابة

ج ثلاثة: الاوَّل الايجاد. الثاني التنسيق. الثالث التعبير

قال ابن المعتز والشيباني : ان البلاغة بثلاثة امور : ان تغوص لحظةُ القلب في أعماق الفكر وتتأمل لوجوه العواقب وتجمع بين ما غاب وما حضر . ثم يعود القلب على ما أُعمل بهِ الفكر فيحكم سياق المعاني ويحسن تنضيدها. ثم يبديهِ بالفاظ رشيقة مع تزيين معارضها واستكمال محاسنها

قال بعض الحكماء : العلوم الادبيَّة مطالعها من ثلاثة اوجه : قلب مفكّر. ولسان معبّر. وبيان مصوِّر

أَلأَصلُ ٱلأَوَّلُ

الايجاد

س ماهو الايجاد

ج الايجاد عبارة عن إعمال الفكر في استنباط المعاني الحقيقة بالاقناع

س من اين تؤخذ المعاني الحقيقة بالاقناع

ج من ثلاثة مصادر : الادلّة . والآداب. والاهواء

وذلك ان غاية الخطيب في كلامهِ امّا ان يكشف القناع عن امور مستغلقة ليقرّب فهمها للسامع وهو يقوم بالادلّة . وامّا ان يحاول استعطاف خواطر الجمهور برقّة كلامهِ ودماثة اخلاقهِ ومداراة طباعهم وهذا لا يتمّ الّا بالآداب . وامّا ان يحرك في قلوبهم الاميال وذلك مَدارهُ على الاهواء

الباب الاول

في الادلّة

س ما هو الدليل

ج الدليل في اللغة هو المُرشد وفي اصطلاح الاصوليين

هو ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيهِ الى مطـلوب خبري ·

والدليل يسمّى برهانًا ان كان قطعياً الزاميـاً وان كان محمولاً على الظنّ فهو الحجّة

اعلم ان الخطيب لايتتبَّع في كلامهِ البراهـين القطعية الموجبة للتصديق فقط بل وكثيرًا ما يتوخّى الحجج الشبيهة بالقطعيّة ايضاً . وذلك في المشكِلات والامور القضائيّة واثبات الحوادث الجـارية . ودونك شاهدًا عن كليهما :

١ً الدليل القطعي او البرهان عن ابن عبري في عدم وجود الهين

لو كان الهان لامكن ان واحدًا يريد ان تصير البريّة والآخر لم يشأ ذلك . او كلاهما يتفق في الارادة جميعاً . او تكمل فقط ارادة احدهما خصوصاً ولا تكمـل ارادة الاخر . والقول الاوّل محال اذ يكون في ارادتهما تضادّ فينفي الواحد ما اثبت الاخر . والثاني ايضاً محال لان ارادة الواحد مقيدة بارادة الاخر . والثـالث باطل ايضاً لان الذي بطلت ارادتهُ ليس هو اله . واماَّ الاخر فيكون هو وحده الهٌ وليس اله سواهُ

٢ً الدليل الظنّي او الحجّة عن كتاب كليلة ودمنة

اذا تكلّم بالسرّ اثنان فلا بُدَّ من ثالث من جهة الواحد او من جهة الآخر فاذا صار الى الثلاثة فقد شاع وذاع ولا يقدر صاحبهُ على الفداء منهُ بالمال

فالاوّل هو البرهان لصحّة مقدماتهِ . والثاني هو الدليل الظنّي لان قولهُ ان السرّ اذا جاوز الاثنين شاع فذلك ليس بدليل قطعي والمحمول على الغالب

س أنّى تؤخذ ادلّة الخَطابة

ج قال ابن سينا : ان الحجج في الجدل والخطابة تُكتَسب من المواضع (١). ومن طلب الاقناع وهو لا يعلمها فهو كحاطب ليل يسعى على غير هداية لا لبخل من الموجد بل لنقصان في الاستعداد

س ما هي المواضع

ج هي قياسات يتخذ من معدنها الخطيب عُدَّةً لاقناع الجمهور

سُ كم قسمًا المواضع

ج المواضع قسمان قسم منها ذاتيَّة تُكتَسب ادلَّتها من نفس الموضوع . ومنها عرضيَّة تستفاد من مصادر خارجة عن الموضوع كقول ابن مسكويه في الأُنس والأُلفة وقد جمع بين المصدرَين :

ان العقل الذي في الانسان اذا صفا من كدورتهِ التي حصلت فيه من ملابسة الطبيعة ولم تجذبه انواع الشهوات واصناف محبات الكرامات اشتاق الى شبيهِ . وذلك ان الانسان آنس بالطبع وليس بوحشي ولا نَفور ومنه اشتق اسم الانسان في اللغة العربيَّة . وينبغي ان يعلم ان هذا الانس الطبيعي في الانسان هو الذي ينبغي ان نحرص عليهِ ونكتسبه مع ابناء جنسنا حتى لا يفوتنا بجهدنا واستطاعتنا فانه مبدأ المحبات كلها . وانما وضع للناس بالشريعة و بالعادة الجميلة اتخاذ الدعوات والاجتماع في المآدب ليحصل لهم هذا الانس . ولعل الشريعة انما اوجبت على الناس ان يجتمعوا في مساجدهم او معابدهم وفضلت صلاة الجماعة على صلاة الآحاد ليحصل لهم هذا الانس الطبيعي الذي هو فيهم بالقوة حتى يخرج الى الفعل ثم

١ هذه اللفظة قد نقلها العرب عن اليونان τοπικη يريدون بها مصادر الادلَّة

تتأكد بالاعتقادات الصحيحة التي تجمعهم وهذا الاجتماع ليس يتعذر على اهل كل محلة وسكة . والدليل على ان غرض صاحب الشريعة ما ذكرناه انه اوجب على اهل المدينة بأسرهم ان يجتمعوا في كل اسبوع يوماً في مسجد يسعهم ليجمع ايضاً شمل اهل المحالّ والسكك في كل اسبوع كما اجتمع شمل اهل الدور والمنازل في كل يوم . ثم اوجبهم ايضاً ان يجتمعوا في السنة مرارًا في ايام الاعياد بارزين مصحرين ليسعهم المكان ويتجدد الانس بين كافتهم وتشملهم المحبة الناظمة لهم ويصير حالهم في الانس والمحبة وشمول الخير والسعادة كحالي المجتمعين في كل سنة وفي كل اسبوع وفي كل يوم فيجتمعوا بذلك الانس الطبيعي الى الخيرات المشتركة وتتجدد بينهم محبة الشريعة وليكبروا الله على ما هداهم ويغتبطوا بالدين القويم القيّم الذي الفهم على تقوى الله وطاعتهِ

فانَّهُ بيّن اولاً براهين اخذها من نفس المادَّة ما يحملُ الانسان على الاستئناس بشبيهِ . ثم دعم مقالتهُ بادلّة اخذها من مصادر خارجة عن الموضوع كعوائد الناس والشرائع والسنن

البحث الاوَّل

في المواضع الجدليَّة الذاتيَّة

س كم هي المواضع الجدلية الذاتيَّة

ج هي ثمانية تنقسم الى ثلاثة اقسام : ثلاثة منهـا تبيّن نفس الموضوع هي: الحدّ . والكلّي والجزئي . والجنس والنوع . وموضعان يدلان على ما لهُ نسبة او علاقة مع الموضوع هما : العلّة والمعلول . والظروف . وثلاثة تُعرض على الموضوع بالمُشابهة هي : المقابلة . والتضادّ . والامثال

١ الحدّ

س ما هو الحدّ

ج فد سبق انَّ الحدّ باللغة نهاية الشيء وفي الاصطلاح هو مرادِف للمعرّف وهو مميّز الشيء عن غيرهِ (١)

س كم قسما الحدّ

ج الحدّ قسمان إمَّا حقيقي وإمَّا رسميّ

س ما هو الحدّ الحقيقي

ج هو عبارة عن تعريف الشيء بمحض ذاتيتهِ اي بجنسهِ وفصلهِ القريبين كتعريف الانسان بالحيوان الناطق (٢)

س ما هو الحدّ الرسمي

ج هو ما افاد تميـيز صور المفهومات ويُعرف بالقول الشارح كقول بعض القدماء في الانسان :

ليس لله تعالى خلق احسن من الانسان فان الله تعالى ابدعهُ في احسن تقويم وهو اعتداله وتسوية اعضائهِ . لانهُ خلق كل شيء منكبًّا على وجهه وخلق الانسان سويًّا . ولهُ لسان ذلق ينطق بهِ ويد واصابع يقبض بها . فهو اعدل الحيوان مزاجًا واكملهُ افعالاً والطفهُ حسًّا وانفذهُ رأيًا مؤدب بالامر مهذب بالتمييز فهو كالملك المسلط القاهر لسائر الخليقة والآمر لها . وذلك بما وهبه الله من العقل الذي بهِ يمتاز على كل الحيوان البهيمي . فان الله تعالى كوَّنهُ حيًّا عالمًا قادرًا متكلمًا سميعًا بصيرًا مدبرًا حكيمًا وهذه صفات الرب جلّ وعلا . فالانسان هو بالحقيقة ملك العالم ولذلك سماهُ قوم من الاقدمين العالم الاصغر .

١ المولوي ٢ الجرجاني والتهانوي

س كم صورة للحدّ عند الادباء

ج للحد صُور كثيرة فتارة يعرّف الخطيب المحدودَ بمفاعيله ومعلولاتهِ كقول بعض الاقدمين في حدّ العقل :

العقل وزير يرشد وظهير يسعد . من اطاعهُ نجّاهُ ومن عصاهُ ارداهُ . ان انكسر صاحبهُ جبرهُ وان انصرع انعشهُ . وان ذلَّ اعزهُ وان خاف امّنهُ . وان حزن افرحهُ وان تكلّم صدقهُ . وان اقام بين ظهراني قوم اغتبطوا بهِ وان غاب عنهم اسفوا عليهِ . وان بسط يدهُ قالوا جواد . وان قبضها قالوا مقتصِد

للهِ درُّ العقل من رائدٍ ... وصاحبٍ في العُسرِ واليُسْرِ
وحاكمٍ يقضي على غائبٍ ... قضيَّةَ الشاهد للامرِ
ان شاءَ في بعض احوالهِ ... ان يفصل الخير من الشرِّ
فذو قوى قد خصَّهُ ربُّهُ ... بخالص التمييز والطهرِ

وتارةً يبينهُ بتعريف اقسامهِ كقول الحسن بن عبدالله في تعريف الشاهين :

الشاهين طائر من الجوارح اجودهُ اسود الظهر غائر العينين حادّ النظر قصير الظهر طويل الخوافي لطيف الذنب دقيقهُ بسيط الكفّ

وآناتٍ يكشفُ عن حقيقة الامر بذكر خواصّهِ كقول ابن عمروٍ بن الشهيد في البعوضة :

البعوضة ماكنة لا حسَّ لها سواها . تحقرها عينُ من رآها . تمشي الى الملك بندجها . وتضرب بجبوحة داره بطبلها . تؤذيهِ باقبالها . وتعرّفهُ بارأقة دمهِ ما لها . فتعجز كفّهُ وترغم انفهُ وتضرّج خدّهُ وتفري لحمهُ . زجرتها تسليمها . ورمحها خرطومها . تذلّل صعبك ان كنت ذا قوّة وعزمٍ . وتسفك دمك ان كنت ذا حلقة وعسكرٍ ضخم . تنقض العزائم وهي منقوضة . وتعجز القويَّ وهي بعوضة . ليرينا الله عجائب قدرته . وضعفنا عن ضعف خليقتهِ

وطورًا يحدُّ الشيء على طريقة السلب والايجاب كقول ابي العتاهية في تعريف الغنى :

ان الغنيَّ هو القنوعُ بعينـهِ ما ابعد الطمع الحريص من الغنى

كقول ابن الوردي :

ليس من يقطع طرقًا بطـلًا انمَّا من يتّقي الله البطل

وكقول آخر :

وليس اخوك الدائم العهد بالذي يذمك ان ولّى ويرضيك مقبلا
ولكن اخوك النائي ما دمت آمنًا وصاحبك الادنى اذا الامر اعقلا

وحينًا يُحدُّ الموضوع بالتشابيه والامثال كقول ابن العربي في الكتاب :

الكتاب بستانٌ يحمل في ردنٍ وروضة تنقل في حجرٍ ينطق عن الموتى ويترجم عن الاحياء هو مسامر مساعد ومحدّث مطاوع ونديم صديق

كتابيَ فيه بستاني وراحي ومنهُ سميرُ نفسي والنديمُ
يُسالمني وكل الناس حربٌ ويُسليني اذا عرت الهمومُ
ويُحيي لي تصفح صفحتيهِ كرامُ الناس اذ فُقد الكريمُ
اذا اعوجَّ عليَّ طريق امري فلي فيهُ طريق مستقيمُ

٢ الكلّي والجزئي

س ما هو الكلي وما الجزئي

ج الكلي ما جمع في حكمهِ اجزاء شتَّى ينقسم اليها . والجزئي ما انتظم في سلك الكلّي كقول بعضهم :

العلوم اربعة : الفقه للاديان والطب للابدان والنجوم للازمان والبلاغة للسان

س ما هي احكام الكلّي والجزئي في الخُطب

ج له ثلاثة احكام الاوّل ان تثبت للكلّي ما قررتهُ للجزئي كقول ابي العتاهية في صولة الموت وفتكهِ بجميع البشر :

ما يدفع الموت ارجاءٌ ولا حرسٌ ما يغلبُ الموت لا جنٌّ ولا آنسُ
ما ان دعا الموتُ املاكاً ولاسوقاً إلّا ثناهم اليهِ الصرع والخَلَسُ
للموت ما تلِد الاقوام كلهمُ وللبلى كل ما بنوا وما غرسوا

فالحكم الموت اثبتهُ للاجزاء فردًا فردًا ثمَّ للكل في البيت الاخير

الثاني ان تنفي عن الكلّي ما سلبتهُ عن الجزئي كقول شمس المعالي قابوس في الدهر وانكر عنهُ الخير إجمالاً بعد ان استوعب في تفصيل شروره :

الدهر لا يؤمَن يومهُ ويخاف غدهُ فهو يغرُّ ويمرّ، ويسوءُ من حيث يسرُّ، ان اضحك ساعة ابكى سنة، وان اتى بسيئة جعلها سُنَّة، ومن اراد منهُ غير هذا سيرةً، اراد من الاعمى عيناً بصيرة، فلا تركن الى الدهر فانَّهُ شرٌّ كلهُ مفصَّلهُ ومجملهُ

ومثلهُ قول الرسول في الاستمساك بحبل الله :

من يفصلنا عن محبة الله أشدة ام ضيق ام جوع ام عُرى ام خَطر ام اضطهاد ام سيف .. فاني لواثق بانهُ لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا رئاسات ولا قوات ولا اشياء حاضرة ولا مستقبلة ولا علوّ ولا عمق ولا خلق آخر يقدران يفصلنا عن محبة الله

الثالث ان تفصل بين امورٍ فتثبت لاحدها ما نفيتهُ عن الباقي كقول لَبيد :

الا كل شيءٍ ما خلا الله باطلُ وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلُ

٣ الجنس والنوع

س ما هو الجنس وما النوع

ج الجنس في اللغة ما يعمُّ كثيرين . وفي الاصطلاح هو المقول

على كثيرين مختلفين بالاحكام . والنوع في اللغة ما دخل في حكم الجنس . وفي الاصطلاح هو المقول على واحد او على كثيرين متفقين بالاحكام (١) . كالفضيلة مثلاً جنس تشمل تحت حكمها انواعاً مثل العدل والقناعة والمروءة الخ

(فائدة) قد سبق ان الخطابة تحاول الاقناع في امرٍ خاصٍ توسلاً لترويج مقاصدها واجراء لمطالبها فلذلك تستند على مبادئ عامّة تستخرج منها مطاويها الخاصّ وتبنيه عليها بناء الجدران على اساسها والعمد على قواعدها اضرب مثلاً في ذلك

كتب الخوارزمي الى ابي نصر الميكالي يشكرهُ على اصطناعهِ الى بعض اصدقائهِ فانتقل من وصف الإحسان وهو الجنس العام الى وصف الصنيعة وهو الخاص

المحسن الى الناس كلهم حبيب ، ومن القلوب كلها قريب ، يمدحونهُ وان لم يحسن اليهم ، ويشكرونهُ وان لم يفضل عليهم ، كما ان المسيء في النفوس صغير ، وان كثر مالاً وحالاً ، وقبيح وان حسن زيناً وجمالاً ، على هذا أُسست البنية ، وعليهِ وُضعت الفطرة ، وفيهِ اتفقت الخاصّة والعامّة . . . والشيخ على سبيل الكرام نهج ، وعلى منوالهم نسج ، فصنائعهُ في قوالب الحمد والشكر ، وعلى طريق الاجر والذخر ، بلغني ما صنعهُ الشيخ مع فلان فما استكثرتهُ قياساً على قدرهِ العظيم ، وبرهِ الجسيم

وكقول المتنبي في رثاء والدة سيف الدولة :

نُعِدُّ المشرفية والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتالِ

فتخلص بهذا الرثاء من وصف فتكات المنون الى الفاجعة بوالدة سيف الدولة

(راجع القصيدة في الجزء السادس من مجاني الادب صفحة ٢٣٤)

---

١ ابن سينا والمولوي

س كم طريقة لاستعمال الجنس والنوع في الخطابة

ج لذلكَ طريقتان :

الاولى ان يقرر الخطيب عن النوع ما قرَّرهُ عن الجنس

كقول ابن خلدون في العلوم العقلية بالاجمال وفي المنطق بالتخصيص :

ان العلوم العقلية كثيرة الفوائد بها يقف الانسان على تحقيق الحق في الكائنات بمنتهى فكرهِ ويقتنص المطالب المجهولة ويستخرج المباحث الشريفة . ومن أجلّ هذه العلوم واجدرها بالدراية علم المنطق وهو يعصم عن الخطإ ويبين الصحيح من الفاسد في الحدود المعرفة للماهيَّات والحجج المفيدة للتصديقات . وهو اول العلوم الحكميَّة وفاتحتها وسُمي المعلّم الاوَّل

الطريقة الثانية ان تنفي عن النوع ما تنفيهِ عن الجنس

كقول ابي العتاهية وقد بيَّن كدورة العيش مجملًا ثم مفصلًا :

ما رأيت العيش يصفو لأحد دون كدّ وعناء ونكدْ
ان للموت لسهماً قاتلًا ليس يفدي أحدًا منهُ أحدْ
قد ارى ان لستُ في الدنيا ولو بَقِيت لي دائمًا طول الأمدْ
انني منها غدًا مرتحلٌ او آراني راحلًا من بعد غدْ

س في اي قسم من الخطبة يُذكر الجنس والنوع

ج قال ابن سينا : جملة ما يقال في ذلك ان الخطباء قد اعتادوا ان يأتوا في صدر خطبهم بنظر عام في مقصدهم تأسيسًا لما يأتون في خطابهم . لان كل خطاب لأبدَّ لهُ من فَرش يكون لهُ بمنزلة الاساس من البنيان كقول بعض البلغاء في البيان والفصاحة وقد افتتح خطبتهُ بذكر شرفها ومنافعها ثم أخذ

بتحريض الناس عليها :

امَّا بعد ان البيان ترجمان اللسان وروض القلوب . وانَّ من عُرف بفصاحة اللسان لحظتهُ العيون بالوقار لانها اقوى دليل على استكمال الذكاء والنُبل وهي لم تزل تشيّد لاهلها في ربوع المجد فخرًا وترفع لهم في مراتب العلوم ذكرًا . فعليكم بالفصاحة في منطقكم وذكوا بالبيان قلوبكم بهِ تهدون ضالّاً وترشدون غاويًا وتعلّمون جاهلًا . واعلموا انَّ من كان في النطق ابلغ كان بالانسانية اخلق

٤ العلة والمعلول

س ما هي العلة

ج هي ما يحتاج اليهِ الشيء في وجودهِ(١) كالدرس مثلًا بالنسبة الى العلم والشمس بالنسبة الى النور

س كم نوعًا العلة

ج العلة على اربعة انواع : فاعليَّة وغائيَّة ومادّيَّة وصوريَّة

س ما هي العلة الفاعليَّة

ج هي ما كانت موءثرة في المعلول موجدة لهُ : كالبنَّاء بالنسبة الى الدار فانهُ العلَّة الفاعليَّة في وجودها

س ما هي العلة الغائيَّة

ج هي ما كان لاجلها المعلول : كوجه الله في عمل الصدقة والانتصار في إيقاد الحرب

١ المولوي والجرجاني

س ما هي العلة المادّية

ج هي ما تقومت بها اجزاء المعلول: كالحجارة مثلًا فانها مادّة بناء الدار والجسد مادّة الانسان

س ما هي العلة الصوريّة

ج هي ما توقف عليها اتّصاف مادّة الموجود فتفرده عمّا سواه: كنفس الانسان فانها علتهُ الصوريّة لانها تميزه عمن سواه

س أتكون العلل من وسائل الإقناع

ج نعم ان العلل من جملة البراهين المقنعة لان الخطيب اذا ادّعى شيئًا واثبت لهُ العلل الاربع او بعضها فلا يبقى وجهٌ للإنكار

اورد مثلًا عن كل علة من هذه العلل

١ العلة الفاعليّة كقول ابي زكرياء بن عدي في علة اختلاف شهوات الناس :

ان العلة الموجبة لاختلاف عادات الناس في شهواتهم ولذّاتهم وعفة بعضهم وفجور بعضهم هو اختلاف احوال القوة الشهوانية . فانها اذا كانت مهذّبة مؤدبة كان صاحبها عفيفًا ضابطًا لنفسهِ . واذا كانت مهملة مالكة لصاحبها كان فاجرًا شريرًا . واذا كانت متوسطة الحال كانت رتبة صاحبها في العفة كرتبتهِ في التأدب ولهذا وجب الانسان ان يقهر قوتهُ الشهوانيّة ويهذبها حتى تصير منقادة لهُ ويكون هو مالكها فيستعملها بالتأدب ويكفّها عمّا لا حاجة بهِ اليهِ من الشهوات الردية واللذات الفاحشة

٢ً العلة الغائيَّة كقول الشيخ جمال الدين الافغاني في غايات الدهريّين :

هولاء جحدة الألوهية. في أيّ امة وبأيّ لون ظهروا كانوا يسعون ولا يزالون يسعون لقلع اساس قصر السعادة الانسانيَّة . اعاصير افكارهم تُدكدك هذا البناء الرفيع وتلقي بهذا النوع الضعيف الى عَراء الشقاء وتهبط بهِ من عرش المدَنية الانسانية الى ارض الوحشية الحيوانية . . . ذهبوا الى انهُ لا حياة للانسان بعد هذه الحياة وانهُ لايختلف عن النباتات الارضية تنبت في الربيع مثلًا وتيبس في الصيف ثم تعود ترابًا والسعيد من يستوفي في هذه الحياة حظوظهُ من الشهوات البهيمية . وبهذا الراي الفاسد اطلقوا النفوس من قيد التأثم ودفعوها الى انواع العدوان من قتل وسلب وهتك عرضٍ ويسروا لها الغدر والخيانة وحملوها على فعل كل خبيثة والوقوع في كل رذيلة واعرضوا بالعقول عن كسب الكمال البشري واعدموها الرغبة في كشف الحقائق وتعرُّف اسرار الطبيعة

٣ً العلة الصوريَّة كقول الشيخ ابن عديَ في قوَّة الانسان الناطقة المختصة بهِ :

هذه القوة الناطقة هي التي بها يتميز الانسان عن جميع الحيوان وهي التي يكون بها الفكر والذكر والتمييز والعلم والتي بها شرف الانسان وعظمت همتهُ فيعجب بنفسهِ. والتي بها يستحسن المحاسن ويستقبح القبائح وبها يمكنهُ ان يهذب قوتَيهِ الباقيتين اعني الشهوانية والغضبية ويضبطهما ويكفهما . وبها يفتكر في عواقب الامور فيبادر باستدراكها من اوائلها ولهذه القوة فضائل ورذائل . . . امّا فضائلها فاكتساب العلوم والاداب وكف صاحبها عن الرذائل والفواحش وقهر القوتين الأُخرَيين وتهذيبها وسياستهُ في معاشهِ ومكاسبهِ وفي مروتهِ وجميلهِ وحثهِ على فعل الخير والتودد والرقة وسلامة النية والحلم والحياء والنسك والعفة وطلب الرئاسة من الوجوه الجميلة

٤ً العلة المادّية كقول القزويني في جسم الانسان :

انَّ في بنية الانسان واختلاف اعضائهِ وتركيبها من العجائب ما تحيَّر فيهِ عقول

الاوَّلين والآخرين وقصر عن ادراكها فهمُ الخلق أجمعين. فلكثرة ما فيها من العجائب قد قيل : ان من عرف نفسهُ فقد عرف ربَّهُ. ومعناهُ ان من عرف ما في هذه البنية العجيبة والهيئة البديعة من اتقان صنعتها مع صِغر حجمها والجمع بين الاشياء المتضـادَّة كروح سماويّ وبدن عُنصريّ وتأليف بين حارّ وبارد ورطب ويابس . وكيف تتحرك جميع القوى وتعمل كل واحدة فعلها الخاصّ بها . تتحرك من مبدإ واحد نحو غاية واحدة وكيف جُعلت العظام قِواماً للبدن ودعامة لهُ في الحركات. وكيف جُعلت الاعصاب والرباطات تنتهي من بعض العظام الى بعض لتربطها وتشدَّها . وجُعل الشرايينُ والأوردة جداولَ تحمل الغذاء الى سائر الاعضاء وتدفع الروح الحيَواني مع الدم الذي هو مادَّة غذائهِ كالزيت للمصباح الى سائر البدن . ثم كيف ينبسط الغشاء والجلد على سطح الاعضاء ويحويها كاللفائف ويصير لها حافظاً بحفظ جواهرها واشكالها عمَّا يطرأ عليها . عَلِمَ الانسان بذلك ان لها خالقاً قادراً عليها حكيماً وتنبَّهَ في ذاتهِ من آثار قدرة الله تعالى ولطائف حكمتهِ فيعرف انعامهُ ويدعوهُ ذلك الى الشكر والثناء عليهِ

س ما هو المعلول وماهي مرتبتهُ في الخطابة

ج المعلول ما يشتق عن العلة فاوجبتهُ عقيبها . ومرتبتهُ في الخطابة ان يأتي بعد احدى العلل الاربع كقول ابن الحديثي في مفاعيل الصوم :

الصوم مفتاح السعادة ، الصوم مصباح العبادة ، الصوم مقداح الزَّهادة ، الصوم يُطهّر النفس ، الصوم يزكي الحسّ ، الصوم يطهر القدس ، الصوم يبعد الشرّ ، الصوم ينفي الكِبر ، الصوم يحسّن الذِكر ، الصوم يطفئ شهوات الجسد ، الصوم يحلل من الحقد العقَد ، الصوم يدحض الشرّ ويميت الحسَد ، الصوم يعلي الرتبة في ملكوت السماء ، الصوم يُسني المنزلة عند الملوك والعظماء ، الصوم يوجب الزيادة والبركة وفضل النماء ، بالصوم ينال المطلوب والرغبة ، بالصوم تجعل في القلوب الرَّهبة ، بالصوم تحاز فوائد القربَة ، بالصوم تدرك المطالب المنجحة ، بالصوم تحصل عوائد المساعي المربحة ، الصوم نور التُقى وعمار الزهادة ، بالصوم تبلُغ النفس الإرادة ، الصوم يشحذ اللبّ ويثبّت العِلم ، الصوم يزكي القلب ويطهّر الجسم ، الصوم يصفّي الذهن ويزيد الفهم

٥ الظروف

س ما هي الظروف

ج الظروف عند الحكماء والخطابيين عوارضُ محمولة على المقصود خارجة عنه تطرأُ عليهِ وتكيّفهُ بكيفيتها

(فائدة) اعلم ان الظروف من اوسع مصادر البرهان في الخطابة عنها ياخذ المتكلم ما يتصرّف بهِ في وجوه الكلام وبها يرتّق التحيُّل لبلوغ غرضهِ من إثبات قضية وبيانها ومغالطة خصمٍ وتصغير جناية وتعظيم مُنكرٍ وكل ذلك كثير في مخاصمات الدعاوي

س ما هي اخصّ الظروف

ج الظروف كثيرة تعود الى ثلاثة ابواب :

الاوَّل عوارض الزمان والمكان

والثاني صفة احوال النفس كخصالها وخِلالها

والثالث الصورة والهيئة الخارجة كالحسن والقبح والزِيّ والنسبة . وهي محصورة في بيتٍ لبعض الشعراء :

فمَنْ وَمَا أينَ بماذا ولِما كيفَ متى تأتي بها مستفهما

فان (منْ) تدل على الفاعل وما يختصّ بالفاعل كجنسهِ وآدابهِ وأخلاقهِ وسنهِ ووطنه ونسبه وسمعته وعقلهِ الخ . (ومَا) يراد بها الفعل او القضية التي عليها بُني الكلام . (وأين) تدل على مكان الصنيع أفي

خلوة ام علناً أبمعبدٍ ام مجلسٍ . (وبماذا) تدل على الوسائل المتخذة لانفاذ المقصود كالمدَد والاسلحة والعدد والمشورة والإغراء على العمل . (ولِمَ) يراد بها الغاية والدواعي الى العمل . (وكيف) تبيّن نوع العمل وسياقهُ وهيئتهُ . (ومتى) تدل على زمان العمل أنهارًا ام ليلاً الى غير ذلك .

وقد جمع قسمًا كبيرًا منها يحيى بن معاذ في صفة المحب لهُ تعالى :

صاحبُ الحبِّ حزينٌ قلبهُ ... دائمُ الغصّةِ مهمومٌ دنفْ
همُّهُ في الله لا في غيرهِ ... ذاهبُ العقلِ وبالله كلفْ
اشعثُ الرأسِ خميصٌ بطنهُ ... اصفر الوجنة والطرْفُ ذرفْ
دائمُ التذكارمن حب الذي ... حبُّهُ غاية غايات الشرَفْ
فاذا أمعن في الحب لهُ ... وعلاهُ الشوقُ من داءٍ كُشِفْ
باشرَ المحرابَ يشكو بثّهُ ... وامام الله مولاهُ وقفْ
قائمًا قدّامه منتصبًا ... لهجًا يتلو بآيات الصحفْ
راكعًا طورًا وطورًا ساجدًا ... باكيًا والدمع في الارض يكفْ
ورد الحق على القلب الذي ... فيهِ حب الله حقًا فعرفْ

(راجع ايضاً مقالة الطرطوشي في كمالاتهِ تعالى في بدء الجزء الثالث من مجاني الادب)

س كم قسمًا الظروف

ج الظروف ثلاثة اقسام : العوارض . والمقدَّمات . والتوالي

س ما هي العوارض وهل تصلح للبرهان

ج العوارض هي الظروف المحدقة بالمقصود الملاصقة لهُ كما سبق . وهي جديرة بالإقناع لانها بصفتها لِلَواحِق المقصود

وقرائنهِ تكشف عنهُ القناع وتبلغ من ثم كُنه القلوب كقول ابي سفيان بن حرب قبل وقعة اليرموك محرضاً العرب :

معاشر الناس انتم العرب الكرام السادة العظام وقد اصبحتم في ديار الاعلاج منقطعين عن الاهل والوطن . فاعلموا انهُ لا ينجيكم منهم اليوم الّا الطعن والضرب تبلغون بذلك أربكم وتنالون الفوز من ربكم . واعلموا ان الصبر في مواطن البأس مما يفرّج الله بهِ الهمّ وينجّي بهِ من الغمّ فأصدقوهم القتال. فان النصر يترل مع الصبر فان صبرتم ملكتم امصارهم وبلادهم واستعبدتم نساءهم وابناءهم . وان وليتم فليس بين ايديكم الّا مفاوز لا تقطع الّا بالزاد الكثير والماء الغزير وهولاء يرجعون الى دور وقصور . فامتنعوا بسيوفكم وجاهدوا في الله حقَّ جهاده

س ما هي المقدَّمات والتوالي

ج المقدمات ما سبق المقصود وتقدَّمهُ . والتوالي ما تبعهُ ولحق بهِ . ولابدَّ لكليهما من علاقة مع المقصود كقول ابي الحليم يذكر ما تقدم ميلاد يوحنا المعمدان مستنتجاً من ذلك عظم شأنهِ وجلالتهِ :

فبينا هو مكهِنٌ في رتبة خدمتهِ ، يوم عيد الغفران امام الله على عادتهِ ، وآن لهُ وضع البخور على المباخر ، وقد تجلبب من ملابس الكهنوت بالحلل الفواخر ، ظهر لهُ ملاك الرب مجللًا بالنور ، قائمًا بالمنظر البهي على يمين مذبح البخور ، فاذهل رؤية زكرياً رُواؤُه ، وازعجت رؤية شخصهِ المخوف فكرتهُ وآراؤُهُ ، واشتمل الخوف على قلبهِ وتغشّاه ، ووهت لهيبة منظرهِ الملكي مُنَّتُهُ وقواه ، رأى المذبح القدسيّ مملوًّا بوميض برقهِ ، وهو مقمّص بالنور من قدميهِ الى فرقهِ. يُلمح رونق الملكوت على شخصهِ الوضيّ ، وطلاوة مجد اللاهوت تلمع من وجههِ المضيء ، قد خمَّ الوقار على هيئتهِ ، وقدحت الانوار من هيبتهِ ، غشيتهُ المخاوف من منظرهِ العجيب ، تراعدت فرائصهُ من روعة شخصهِ المهيب ، قال في نفسهِ : مَن عساهُ أن يكون هذا ، وأنّى تهجّم على المذبح القدسيّ ولماذا ، وكيف أقدم على دوس هذه الأعتاب ، ولم يخشَ وصمة اللوم وعار العتاب ، فلماً رآه الملك واقفاً على قدم الحيرة ، قد تلاطمت بهِ امواج الجزع والغيرة ، قال لهُ : لا تخشَ يا زكريا ولاتخف ،فانني مهدٍ اليك سنيَّ البشائر

والطاف التحف،وذاك انَّ مسموع دعائك وصلاتك ، قُدّم الى الله على اعضاد برّك وصلاتك ، فانَّ الرب بوّاك من رتب الاختصاص منزلة زُلفى ، وخصّك من لطائف الآلاء بالسهم الأوفر والنصيب الأوفى ، وستلد لك زوجتك اليشبع ابناً ، يكون عظيماً امام الرب ويدعى بالإيعاز الالهي يوحنَّا

وكقولهِ ايضاً في باب التوالي مبيناً حالة الابن الشاذّ بعد ابتعادهِ من بيت ابيهِ :

فلمّا بدَّد مالهُ في الضلة والغواية ، حدثت في بلدتهِ نازلة الغلاء ، وأشفى على التلف من البؤس والأذاء ، فألجأهُ كظّ السّغب وسوء التدبير ، الى استرعاء الخنازير ، ولم يزل يرتع في خرنوب الذنوب . ويكرع من منهل القبائح وماء العيوب ، قد تقلصت عنهُ ذيول الاقبال ، وحالت بينهُ وبين السّعادة مهاول الاوجال

س ماهي طريقة المحاجَّة بالمقدَّمات والتوالي

ج لذلك ثلاث طرائق :

الاولى ان تنكر التالي بعد انكار المقدمة كقولك: لم يمت زيدٌ فاذن لم يسمَّ عمرو

الثانية ان تقرّر التالي بعد تقرير المقدمة كقولك: ان زيدًا اقترف اثماً فظيعاً فاذن لأبدَّ ان يؤخذ بذنبهِ

الثالثة ان تنكر المقدمة بعد انكار التالي نحو : ليس زيدٌ بلصٍ فاذن لم يختلس مال عمرو

٦ المقابلة

س ما هي المقابلة

ج المقابلة عند الحكماء هي امتناع وجود شيئين في

موضوع واحد من جهة واحدة ويسمّى ايضًا التقابل (١) كالجهل والعلم والمحاسن والمعايب

س هل للمقابلة عمل في الاقناع

ج عملها رحب الفناء لان الشيء اذا ما عُرض على نقيضهِ يزيد جلاءً وبيانًا قال الشاعر :

ضِدَّان لمَّا استجمعا حَسنا والضدُّ يُظهر حُسنهُ الضدُّ

اورد شاهدًا في هذا الباب

قال ربيعة الرقيّ يمدح يزيد بن حاتم المهلّبي ويهجو يزيد ابن اسيد السلميّ القيسيّ :

لشتَّان ما بين اليزيدين في الندى يزيدِ سليمٍ والاغرّ ابن حاتمِ
يزيدُ سليم سالِمُ المال والفتى اخو الازد للاموالِ غير مسالمِ
فهمّ الفتى الازديّ اتلاف مالهِ وهمّ الفتى القيسيّ جمعُ الدراهمِ
فلا يحسبِ التمتامُ اني هجوتهُ ولكنني فضّلت اهل المكارمِ

وكقول ابي العتاهية يهجو يزيد الشيباني ويقابل بينهُ وبين ابيه :

بنى معنٌ وهدمهُ يزيدُ كذاك الله يفعل ما يريدُ
فمعنٌ كان للحسَّاد غمًّا وهذا قد يُسَرُّ بهِ الحسودُ
يزيد يزيدُ في منعٍ وبُخلٍ وينقصُ في النوالِ ولا يزيدُ

وكقول ابن جوزي في الانذار :

يا مطلق الطرف لقد عقلك ، يا مشغولًا باللهو فلهوك قتلك ، يا بعيد الاماني والموت قائم على ساق ، يا دائم التواني وخيل المنايا عليك بالسباق ، يا هذا كم نقربك وانت تتباعد ، وكم تنهضك للاعمال وانت تتراقد ، نوقظك فتتناعس ،

١ اصطلاحات الفنون

ونجذبك فتتقاعس ، اذا قمت للصلاة فقلبك غائب وجسمك شاهد ، ثم تكثر الذنب والطَّرف ابدًا جامد ، امزحك الهوى ونحن نضرب بحديد بارد

س هل تأتي المقابلة في غير الاضداد

ج تأتي المقابلة في الاضداد وغيرها ايضاً . فان الخطيب ربما عرض امرهُ على مثلهِ او على ما هو فوق امرهِ محلاً او دونهُ موقعاً لترجيح قضيتهِ وقطع المشاغب . وعليهِ فيثبت او ينكر صحة امرٍ دون الذي حاول باثباتهِ كي يُستدَلَّ من ثمَّ صدق او كذب ما بُني عليهِ الكلام كقول ابي عبيدة في خطبة لاهل الشام يدعوهم الى فتح بلدتهم

لا يغرنَّكم عظم مدينتكم ، وتشييد بنيانكم ، وكثرة زادكم ، وهول اجسامكم ، فانا نزلنا بلادًا اخصب من بلادكم ، وفتحنا امصارًا ممصَّرة ، ومدائن احرز من مدينتكم ، وخرج علينا اعلاج موفورة اقواتهم ، مدَّرعون متَّرسون لا يفرُّ لوجيهم قرار ، فصَلد نجمهم ، وذهب امامنا ريحهم ، ورددناهم على الاعقاب لا يلوي آخرهم على اولهم

فيكون ملخص قولهِ : لم يثبت أمامنا من كان اقوى منكم فلا مراء انكم تمحونا انتم الاكتاف مع قصر باعكم

ومن هذا الباب قول الرب لتلامذتهِ بعد غسل ارجلهم :

انتم تدعونني معلماً وربّاً وحسناً تقولون لاني كذلك . فان كنت انا الرب والمعلم قد غسلت ارجلكم فيجب عليكم انتم ان يغسل بعضكم ارجل بعض . . . الحقَّ الحقَّ اقول لكم : ليس عبدٌ اعظم من سيده ولا رسولٌ اعظم من مرسلهِ

وكقول عليّ ابن ابي طالب في معاملة القريب :

إجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك . فاحب لغيرك ما تحب لنفسك

واكره له ما تكرهُ لها . ولا تظلُم كما لا تحب ان تُظلَم . واحسن كما تُحب ان يُحسن اليك واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك . وارضَ من الناس ما ترضاهُ لهم من نفسك . ولا تقُل لهم ما لا تُحبّ ان يقال لك

٧ التشابهُ

س ما هو التشابُه

ج التشابُه في اللغة كالمشابهة وفي عُرف الخُطباء اتّحاد امرين متباينين بالكيف (١) كالزهرة والشباب مثلًا فانهما مع اختلافهما في الجوهر يتفقان بنضارتهما وسرعة زوالهما

س هل يُتخذ التشابُه للاقناع

ج لا يقنع التشابُه بذاتهِ وانما يمهّد الطريق للاقناع بتجويد المادّة وتحسينها وعرضها على شبهها كقول بعض الشعراء في الدنيا وشبّه لذّاتها بالحلم :

ألا انما الدنيا كاحلامُ نائمٍ ... وما خيرُ عيشٍ لا يكونُ بدائمِ
تأمّل اذا ما نلت بالامس لذةً ... فافنيتها هل انتَ الّا كحالمِ

وكقول الحسن بن عبدالله في مصاحبة الملوك :

ان الملك كالجبل الشامخ فيهِ الثمار والانهار والوحش والسباع والاخطار . فالوصول اليهِ صعب لصعوبتهِ والمقام فيهِ خطر كثير المعاطب وخيم العواقب

وكثيرًا ما يأتي التشابُه على طريق المقابلة والطباق كقول سلام بن عبدالله الباهلي في الزهد في الدنيا :

تبًّا لطالب دنيا لا بقاء لها ... كانّما هي في تصريفها حُلُمُ
صفاؤها كدرٌ سرّاؤها ضررٌ ... امانها غررٌ انوارها ظُلَمُ

---

١ شرح المواقف

شبابها هرمٌ راحاتها سقمٌ لذَّاتها ندمٌ وجداتها عدَمُ
فخلّ عنها ولا تركن لزهرتها فانها نِعَمٌ في طيّها نِقَمُ
فاعمل لدار نعيمٍ لانفاد لها ولا يُخاف جاموتٌ ولاهرمُ

٨ الامثال

س ما هو المثل

ج هو باللغة النظير وفي الاصطلاح هو على ما حدَّه المبرّد: القول يشبَّه بهِ حال الثاني بالاول والاصل فيهِ التشبيه

س كم نوع المثل

ج المثل انواعٌ: منها الامثال السائرة وقد مر الكلام فيها (راجع صفحة ١٠٠ من الجزء الاول). ومنها ما جاء على السنة الحيوانات (راجع صفحة ١٢٦ من الجزء ذاته. ومنها ما كان على نوع التشابه والحِكم كما قال بعض الحكماء في مودَّة الصالحين والاشرار:

المودَّة بين الصالحين سريع اتصالها بطيءٌ انقطاعها. ومثَل ذلك مثَل كوز الذهب فهو بطيءُ الانكسار سريع الاعادة هيّن الاصلاح. والمودَّة بين الاشرار سريع انقطاعها بطيءٌ اتّصالها ومثَل ذلك مثَل كوز الخزف فهو سريع الانكسار ينكسر من ادنى عيبٍ ولا وَصل لهُ ابدًا

وكقول هرمس صاحب كتاب زجر النفس في نظام النفس والجسد:

ان عرض الحقّ وقضاء العقل ان تكون الاشياء على ترتيبها الطبيعي فاذ كانت كذلك فما احسنها واجملها واعدلها. وذلك كالصانع الذي ينبغي لهُ ان يكون هو الذي يستعمل الاداة لا الاداة تكون مستعملة لهُ. وكالفارس الذي ينبغي لهُ ان يدبّر الفرس ويجريه ويروّضه لا ان يكون الفرس يدبّر الفارس.

وكالسلطان الذي من الواجب ان يكون هو المدبّر للرعية والسائس لها لا ان تكون الرعيَّة هي تدبره وتسوسه . فاذا جرت هذه الاشياء على كياناتها الطبيعيَّة ظهر الحق والعدل الحسنان الجميلان واذا انعكست بالضد والخلاف ظهر الشرّ والجور القبيحان الرديَّان

وفي هذا الباب تدخل تصاويرُ وهميَّـة وافتراضات مختلفة يستنبطها الخطباء توسُّلًا لمطالبهم كقول ابن مقفَّع وقد التمس صورةً حسيَّةً لتبيان قصر الحياة ولذَّاتها الزائلة :

التمست للانسان مثَلًا فاذا مثَلهُ مثَل رجل نجا من خوف فيلٍ هائج الى بئر فتدلَّى فيها وتعلَّق بغصنين كانا على سمائها فوقعت رجلاه على شيء في طي البئر . فاذا حيَّات اَربع قد اخرجنَ رؤوسهنَّ من اجحارهنَّ . ثم نظر فاذا في قعر البئر تنين فاتح فاه منتظرًا لهُ ليقع فيأخذهُ . فرفع بصرهُ الى الغصنين فاذا في اصلهما جُرذانِ اسود وابيض وهما يقرضانِ الغصنين دائبَين لا يفتران. فبينا هو في النظر لامره والاهتمام لنفسه اذ ابصر قريبًا منه كوارة فيها نحل عسل فذاق العسل فشغلتهُ حلاوتهُ والهتهُ لذَّتهُ عن الفِكرة في شيء من امره وان يلتمس الخلاص لنفسه . ولم يذكر ان تحت رجليهِ حيَّات اربع لا يدري متى يقع عليهنَّ . ولم يذكر ان الجُرذَين دائبان في قطع الغصنين ومتى انقطعا وقع على التنين. فلم يزل لاهيًا غافلًا مشغولاً بتلك الحلاوة حتى سقط في فم التنين فهلك . فشبَّهت البئر بالدنيا المملوءة آفات وشرورًا ومخافات وعاهات . وشبَّهت الحيَّات الاربع بالأخلاط الاربعة التي في البدن . فانها متى هاجت اَو اَحدها كانت كحُمَةِ الافاعي والسم المميت . وشبه الجرذان الاسود والابيض بالليل والنهار اللذان هما دائبانِ في إفناء الأجل . وشبه التنين بالمَصير الذي لا بد منهُ . وشبه العسل بهذه الحلاوة القليلة التي ينال منها الانسان فيطعم ويسمع ويشم ويلمس ويتشاغل عن نفسهِ ويلهو عن شأنهِ ويصد عن سبيل قصدهِ

س هل للامثال موقع في الخطابة

ج نعم للامثال حسن الموقع . قال ابن المقفع : اذا جُعل الكلام مثلاً كان اوضح للمنطق وآنق للسمع واوسع لشعوب

الحديث. قال ابراهيم النظام وقد خصَّ بقولهِ الامثال السائرة : في المثل اربعة لاتجتمع في غيرهِ من الكلام : ايجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة. ومن حسن الشواهد في هذا الباب قول عبد الملك بن مروان وكان حجَّ في بعض الاعوام وامر الناس بالعطاء فابى اهلُ المدينة قبولَ ما اعطى مستقلين عطاءهُ فرقي المنبر وخطبهم وقال في اثناء ما قال :

يا معشر قريش مثلنا ومثلكم ما قيل: انَّ اخوين خرجا في الجاهلية مسافرين فنزلا في ظلّ شجرة تحت صفاً . فلما دنا الرَّواح خرجت اليهما من تحت الصفا حيَّة تحمل ديناراً فالقتهُ اليهما فقالا : ان هذا لَمن كنز. فاقاما عليها ثلاثة ايام كل يوم تخرج اليهما بدينار فقال احدهما لصاحبهِ : الى متى ننتظر هذه الحيَّة ألا نقتلها فنحفر هذا الكنز فنأخذهُ. فنهاهُ اخوهُ وقال لهُ : ما تدري لعلك تعطب ولا تدرك المال. فابى عليهِ اخذ فأساً معهُ ورصد الحية حتى خرجت فضربها ضربة جرحت رأسها ولم يقتلها. فثارت الحية فقتلتهُ ورجعت الى جحرها . فقام اخوه فدفنهُ حتى اذا كان من الغد خرجت الحية معصوباً راسها ليس معها شيء فقال لها: ياهذه اني حقًّا ما رضيتُ ما اصابك ولقد نهيت اخي عن ذلك فهل لك ان نجعل الله بيننا لاتضرّيني ولا اضرّك وترجعين الى ما كنتِ عليهِ . قالت الحية : لا. قال : ولِمَ ذلك . قالت : اني لأعلم ان نفسك لا تطيب لي ابدًا وانت ترى قبر اخيك ونفسي لا تطيب لك ابدًا وانا اذكر هذه الشجّة. وانشدهم شعراً للنابغة :

فقالت ارى قبراً تراهُ مقابلي   وضربة فأسٍ فوق رأسي فاغرَه

فيا معشر قريش وليكم عمر بن الخطّاب كان فظّاً غليظاً مضيقاً عليكم فسمعتم لهُ واطعتم . ثم وليكم عثمان فكان سهلاً ليناً كريماً فعدوتم عليهِ فقتلتموهُ وبعثنا اليكم مسلماً يوم الحرَّة فقتلتموهُ . فنحن نعلم يامعشر قريش انكم لاتحبّونتا ابدًا وانتم تذكرون يوم الحرَّة ونحن لانحبكم ابدًا ونحن نذكر مقتل عثمان (للمسعودي)

هذا المثل قد مرَّ صفحة ١٣١ من الجزء الاول مع بعض اختلاف

في الرواية . وانما اثبتناهُ هنا كي يرى المترشح للخطابة كيف يمكنهُ استعمال الامثال في اثناء خطابهِ لنيل مقصودهِ

البحث الثاني

في المواضع الجدليَّة العرضيَّة

س ما هي المواضع الجدليَّة العرضيَّة

ج قد سبق انها الادلَّة المأخوذة من مصادرَ خارجة عن الموضوع

س انَّى تُستفاد هذه البراهين

ج تُستفاد من التقاليد

س ما هو التقليد

ج هو اتّباع الانسان غيرهُ فيما يقول او يفعل معتقدًا للحقية من غير نظر الى دليل (١)

س كم صنفًا التقاليد

ج التقاليد صنفان منها إلهية ومنها بشريَّة

س ما التقاليد الالهيَّة

ج هي الكتب المُنزلة والاسفار الموحاة التي يرجع اليها الخطيب لقيام حجتهِ كقول بعض الاقدمين يثبت مجيء المسيح مستندًا

(١) شرح الحمامي

الى نبوّة يعقوب قال :

وقال الله تبارك وتعالى على لسان موسى في التوراة في السفر الاوَّل الذي هو سفر الخليقة ان يعقوب المعروف باسرائيل الله لمّا قربت وفاتهُ دعا اولادهُ كلهم فباركهم واخبرهم بما هو مزمع ان يكون في آخر الزمان واودعهم هذا السرّ . ولم يزل يبارك واحدًا فواحدًا حتى انتهى الى يهوذا الذي من نسلهِ ولدت المغبوطة مريم امّ المسيح مخلص العالم فقال : يهوذا لك تخضع اخوتك يدك على اكتاف اعدائك يسجد لك بنو ابيك . شبلُ ليث يهوذا . من فريسةٍ صعدتَ يابني . جثا وربض كاسد وكلبوّة من يُنهضهُ . لايزول القضيب من يهوذا والمدبّر من فخذه حتّى يجيء الملك واياه تنتظر الشعوب

فانظر اعزّك الله في هذا الكلام نظرًا روحانيًا مستقصيًا بعين العدل والانصاف وتفهّمهُ فانّ من لم يفهمهُ لم ينتفع بهِ.هل تليق هذه النبوّة من ذلك الشيخ المبارك اسرائيل الله وصفيّه الّا على المسيح مخلص العالم لانهُ هو الخارج من يهوذا بانسانيتهِ ولهُ خضع بنو اسرائيل لما دخلوا في دعوته وصارت يد الروم التي هي يده على اكتاف من عاداه من بني اسرائيل وجحدوا ربوبيته وكفروا بهِ.فقتلهم الروم ومزّقوهم كل ممزّقٍ فلا تقوم لهم قائمة ابدًا ولا يزالون اذلّاء الى الانقضاء وزوال الدنيا . وهو الذي بُعث من بين الاموات حيًّا بعد ثلثة ايام من صَلبه. وهو الذي سجد لهُ بنو اسرائيل حيث رأوا الاعاجيب والآيات التي اظهرها بين ايديهم.وهو شبل الليث لانهُ ابن الله القوي العزيز الجبار.لم تزل النبوة تترادف في بني اسرائيل حتى جاء المسيح رجاء البشر الذي انبأت عنهُ النبوات كلها التي كانت تهتف بالدلالة على مجيئه وتشهد لظهوره وتبشر بطلوعه . فلما جاء المسيح سيدنا انقطعت النبوات عن يهوذا وبني اسرائيل فلم يقم فيهم نبي بعد مجيئه . واياه كانت تنتظر الشعوب ولهُ كانت تترجى الامم . وكما انهُ لا معنى لمجيء الرسل بعد طلوع الملك عليهم كذلك لا معنى للانبياء بعد ظهور الاله المسيح الذي هو بالحقيقة ملك كما سبقت الانبياء وسمتهُ ملكًا

س ما هي التقاليد البشريّة

ج هي ما رجع فيها الخطيب تأييدًا لمقصودهِ الى سُنن

المشترعين واقاويل الأئمة المشاهير واحاديث المشايخ وحكم الفلاسفة ومألوف عوائد الامم كقول المسعودي وقد تحرَّى وصف حب الوطن :

ان من علامة الرشد ان تكون النفس الى مولدها مشتاقة. والى مسقط الرأس توَّاقة . وقد ذكرت العلماء انَّ من علامة وفاء المرء ودوام عهدهِ حنينهُ الى اخوانهِ وشوقهُ الى اوطانهِ . وبكاءهُ على ما مضى من زمانهِ . قال ابن الزُّبير : ليس الناس بشيءٍ من اقسامهم اقنع منهم باوطانهم . وقال بعض حكماء العرب: عمَّر الله البلدان بحب الاوطان . وقالت الهند : حرمة بلدك عليك مثل حرمة ابويك لان غذاءك منهما وغذاءهما منها . وقال آخرون : اولى البلدان بلد رضعت ماءهُ وطعمت غذاءهُ . وقال آخر: ميلك الى موضع مولدك من كرم محتَدك . وقال بقراط : يُداوَى كل عليل بعقاقير ارضه لان الطبيعة تتطلع جوانبها وتنزع الى غذائها . وقال افلاطون : غذاء الطبيعة من انفع ادويتها . وقال جالينوس : يتروح العليل بنسيم ارضهِ كما تنبت الحبة ببلّ القطر . وللنفوس حنين الى الاوطان وان لم يطب ماؤُها وهواؤُها ولذا يقول بعض الاعراب يصف وطنهُ :

وكنَّا أَلفناها ولم تكُ مألفاً　　وقد يؤْلفُ الشيءُ الذي ليسَ بالحَسَنْ
كما تؤْلفُ الارضُ التي لم يَطب بها　　هواءٌ ولا ماءٌ ولكنها وَطَنْ

س　ما هي طريقة السُّنن والشرائع في الخطابة

ج　اعلم انَّ السُّنن إمَّا ان تكون مؤيدة لمقصود الخطيب او مباينة لهُ . فان كانت تؤيد مقالهُ فليبيّن مافي الشريعة من الحكمة والسَّداد ويصف سمو عقل من سنَّها وما ينجم من حُسن العقبى باتمام الشريعة . وامَّا اذا كانت مخالفة لمقصودهِ فليعرضها على معيار غيرها من السنن وليفسّرها تفسيرًا يطابق مقصوده . او ان اقتضى الامر فليبيّن بطلان

الشريعة ومخالفتها لشريعة اخرى ارفع منها طوراً طبعها الله في قلب البشر

س ما هي لواحق المواضع الجدليَّة العرضيَّة

ج اعلم ان الخطيب ربَّما التجأ لترويج المادة التي تعمَّد بيانها الى الوثائق والشروط والصكوك والاسناد وهذا كثير في الدعاوي . فيترتَّب على الخطيب ان يكون لهُ إلمام بمعرفة اهمّ المواد الشرعيَّة صيانةً للحقوق ودفعاً للالتباس والتحيُّل

البحث الثالث

في عمل المواضع الجدليَّة

س ماهو عَمَل المواضع الجدليَّة

ج للمواضع الجدليَّة عَمَل لا يُحصَر فانهُ لولاها لطاش سهم الخطيب وحصل في امرٍ مُعضِل وخاض بحرَ موضوعهِ على غير هداية

س كم هي شروط استعمال المواضع الجدليَّة

ج ثلاثة :

الاوَّل ان يُحسن اختيارها فيتوخَّى احراها باظهار المادَّة

الثاني ان يقوم الاختصارُ في بسطها مقام الإكثار

الثالث ان يوردها على مقتضى حقيّتها ولا ينسب اليها من الصحة ما ليس حقيقاً بها. كما لو اراد تزكية متَّهم فيقول: لا ريب ان هذا الرجل ليس بمذنب . او يقول : من الجائز انهُ غير مذنب . او يقول : لم تثبت الجناية على هذا الرجل . امَّا النتيجة فلا تختلف في هذه المواقع كلها وهي: انهُ لا يقتضي الحكم على المجرم

س ما هي احقُّ البراهين الجدليَّة بالاقناع

ج هي ما كان منها مع صحتها اكشف للمادَّة واقرب الى أفهام الجمهور واحسن وقعاً في النفوس . وعليهِ يلزم العدول عن الادلَّة العويصة المستوجبة تقريرًا علمياً لا يتناولهُ عقول القوم بسهولة . ما لم يكن السامعون من ذوي الخواطر الثاقبة او ممَّن يُغنيهم التلويح عن التصريح

الباب الثاني

في الآداب

لمَّا كانت غاية الخطيب ارضاء السامعين لم يكفهِ ان يظهر في

ترويج مقصودهِ ما عندهُ من الحجج والادلّة بل يترتّب عليهِ بعد انكشاف الرَّغوة عن الصريح وتأييد مرادهِ بالبراهين المأخوذة من المواضع الجدليَّة ان يتوخَّى القلوب ويستعطفها اليهِ . وهذا امر قريب المُتناوَل داني الملتمَس اذا ما راعى الخطيبُ الآداب المرضية التي بها تنقاد لهُ العقول

البحث الاوَّل

في حقيقة آداب الخطابة واقسامها

س ما هي آداب الخطابة

ج هي عبارة عن صفاتٍ واخلاقٍ حسنة يتحرَّاها الخطيب فيستدني بها قلوب السامعين ويستميلها الى ما يقول

س كم نوعًا آداب الخطابة

ج هذه الآداب على نوعين : فامَّا انها تُعتبَر في نفس الخطيب واما في نفس السامع

البحث الثاني

في آداب الخطيب

س كم هي آداب الخطيب

ج ثلاثة هي : سداد الراي وصِدق اللهجة والتودُّد

س ماذا يراد بسداد الراي

ج هو عبارة عن استحكام العقل وحصافتهِ في بيان ما يحاول الخطيب اثباتهُ فلولا ذلك تنكَّب عنهُ السامع استهوانًا بضعف عقلهِ فلا يرضى بمقالهِ (وجاء في الحماسة)

متى ما تقُدْ بالباطل الحق يأبهُ   وان قُدتَ بالحق الرواسيَ تنقدِ

س ما هو صدق اللهجة

ج صدق اللهجة هو عبارة عن امتلاء الصدور ثقةً بما يلقي الخطيبُ من كلام وينقل من قصة (١) قال ابو العتاهية :

والقول ابلغهُ ما كان اصدقهُ   والصدق في موقف مستسهلٍ عالِ

س ما هو التودُّد

ج قال الجرجاني : هو طلب مودّة الاكفاء بما يوجب ذلك. وموجبات المودَّة كثيرة منها : الوقار والتصوُّن ومنها الوفاء والامانة. ومنها النزاهةُ فيبيّن الخطيب في مقالهِ انهُ خالي الاغراض لا يسعى الّا لخير الجمهور قال مرَّار بن سعيد :

اذا شئتَ يومًا ان تسود عشيرةً   فبالحلم سُدْ لا بالتسرُّع والشتمِ

(١) تهذيب الاخلاق لابن عديّ

س باي طريقة يظهر الخطيب سداد رأيهِ

ج ذلك ان يورد وُصْلةً الى مرادهِ شواهدَ نيرّة حسنة القبول لدى الجمهور ويعرضها على مسامعهم بعبارة متسقة بحيث يعلم من مفتتح الامر خاتمتهُ ومن بديهتهِ عاقبتهُ كقول عليّ من خطبة :

ايها الناس ان الدنيا تغرّ المؤمّل لها والمخلد اليها. ولا تنفّس بمن نافس فيها وتغلب من غلب عليها. وايمُ الله ما كان قوم قط في غضّ نعمة من عيش فزال عنهم الّا بذنوب اجترحوها. لان الله ليس بظلاّم للعبيد ولو ان الناس حين تنزل بهم النقم وتزول عنهم النعم فزعوا الى ربهم بصدق من نيّاتهم ووَلَهٍ من قلوبهم لردّ عليهم كل شارد واصلح لهم كل فاسد. واني لَأخشى عليكم ان تكونوا في فترة. وقد كانت امور مضت ملتم فيها ميلة كنتم فيها عندي غير محمودين ولئن رد عليكم امركم انكم لسعداء. وما عليّ الّا الجهد ولو اشاء ان اقول لقلت عفا الله عمّا سلف

س كيف يتقرّب الخطيب من عقول السامعين بصدق لهجتهِ

ج الوسيلة لذلك بأن يظهر في خطابهِ ما انطبع عليهِ من الصلاح وسلامة النيّة وحسن الطويّة فيردّ عن المنكر ويدعو الى الفضيلة ويعتزل ما يُلبس الامر ويوقع في الشك قال الشاعر:

الباطل الدهرَ يُلفى لا ضياء لهُ   والحقّ ابلجُ فيهِ النور يأتلقُ

والمثل في ذلك قول الخوارزمي من كتاب :

تأخر كتابي عنك يا ولدي لاني كرهت ان اكاتبك من فكر متشعّب، وقلب متقلب، واردت ان اخلي خاطري لجوابك، وان اقضي بذلك حق كتابك، فمن صيانة صاحب الكتاب ان لا يتجاوز لهُ في الجواب، على ان مصون كلامي عند مثلك

غير مبتذل ، ومدخل بري عندك ليس بمستعمل ، ولا لوم على الفقير ، اذا حمل ما عندهُ من اليسير الى المياسير ، وقد بذل جهدهُ وواتى اقصى ما عنده

س كيف يمكن ان يتحبب الخطيب لدى الجمهور

ج ان ارجع طريقة لذلك ان يبيّن للقوم ان قصارى بغيته مصالحهم وانهُ يؤثر امرهم على اغراضهِ الخاصَّة معملًا الفكر في ترويجهِ . وكثيرًا ما يذكر ما سينالونهُ من المنافع ويحرزونهُ لهم من الخير كقول ذي الوزارتين ابن القصيرة على لسان الخليفة الى اهل مكناسة وكانوا خلعوا ربقة الطاعة :

امَّا بعد اصلح الله من اعمالكم ما اختلَّ ، وامحَّ من وجوه صلاحكم ما اعتلَّ ، فقد بلغنا ما انتم بسبيلهِ من التقاطع والتدابُر ، وما ركبتم رؤوسكم فيهِ من التنازع والتهاتُر ، قد استوى في ذلك عالمكم وجاهلكم ، وصار شرعًا سواء فيهِ نبيهكم وخاملكم ، لا تأتمرون رَشدًا ، ولا تطيعون مُرشدًا ، ولا تأتون سددًا ، ولا تنحون مقصدًا ، ولا تعلمون ان لم تنزعوا عن غَوايتكم ابدًا ، فلا يسوغ لنا ان نترككم فَوضى وندعكم سدًى ، ولا بدَّ لنا من اخذ قناتكم بثقافٍ امَّا ان تستقيم او تتشظَّى قصدًا ، فتوبوا من ذنب التباغض بينكم والتباين ، واعصوا شياطين التحاقُد والتشاحُن ، وكونوا على الخير اعوانًا ، وفي ذات الله اخوانًا ، ولا تجعلوا للعقوبة عليكم يدًا ولا سلطانًا ، واعلموا ان من نزغ بينكم بشرّ ، او نفث في فتنة بضرّ ، وقام عندنا عليهِ الدليل ، واتَّجه اليهِ السبيل ، اخرجناهُ عنكم ، وابعدناهُ منكم ، فاتَّقوا الله وكونوا من الصادقين ولا تتولوا عن الموعظة وانتم معرضون ، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ، وحسبنا هذا وبالله التوفيق

البحث الثالث

في آداب الجمهور واخلاقهم

قد اجمع ائمة الكتّاب على ان لكل مقامٍ مقالًا فيتأتى على الخطيب إنِ احتاج الى مخاطبة اشراف الناس واوساطهم وسوقتهم ان

يخاطب كلاً على قدرهِ وحظهِ وكذلك عليهِ ان يعطي لكل واحد حقَّهُ من الفهم والذكاء ويوفيهُ نصيبهُ من النباهة وسعة الادب . ثم ليُراع اطوار الاعمار من شابٍ فتيّ السنّ او كهلٍ تامّ القوة او شيخ وَقور مهيب . فان لكل سنٍّ خواصَّ واخلاقاً تضطرُّ الخطيب الى التأنّق في مقالهِ والتفنن في كلامهِ . وخلاصة القول انهُ ينبغي على الخطيب ان ينظر في مقتضى احوال السامعين لئلاَّ يجري كما قيل شعاعَ بلاغتهِ في غير مجراهُ وينظم جوهر كلامهِ في غير مسلكهِ (١)

س صف اخلاق الانسان على اختلاف اطوار العمر

ج قد وصف الامام صالح بن ابي شريف الاندلسي شيئاً من طباع الخلق على اختلاف أسنانهم فقال :

ابن عشرٍ من السنين غلامُ — فرهٌ زولٌ ثغرهُ بسّامُ
عَتلٌ غافلٌ سريع حَراكٍ — دأبُهُ الغيظُ والرضى والخصامُ
وابن عشرين لصبا والتصابي — ليس يثنيهِ عن هواهُ ملامُ
حُبّ الاكلُ والشرابُ اليه — وَصنوفُ اللذّات وهي حرامُ
يتمنّى المنى ويطلب مجداً — فهو مقدامٌ في الوغى وهمامُ
والثلاثون قوّة وشبابٌ — وهيام ولوعة وغرامُ
فاذا زاد بعد ذلك عشرا — فكمالٌ وشدةٌ وتمامُ
وابن خمسين مرَّ عنهُ صباهُ — فيراهُ كأنّهُ أحلامُ

(١) ابراهيم الشيباني

وابن ستين صيَّرتهُ الليالي هدفاً للمنون وهي سهامُ
ولهُ الفضلُ والفخار وشاحٌ وسكونٌ وهيبةٌ واحترامُ
وابن سبعين لا تسلني عنهُ فابن سبعين ما عليهِ كلامُ
لا يبالي على اخترام الليالي وهو عنها لاهٍ بهِ استهامُ
خرِقٌ ساهمٌ حريصٌ على الما لِ كثيرُ الإهتار وغدٌ عبّامُ
فاذا زاد بعد ذلك عشراً بلغ الغاية التي لا ترامُ
وابن تسعين عاش ما قد كفاهُ واعترتهُ وساوسٌ وسقامُ
فاذا زاد بعد ذلك عشراً فهو حيٌّ كميت والسلامُ *

* ولبهاء الدين العامليّ مقالة في اختلاف لذات الخلق :

انظر الى الصبي في اوَّل حركتهِ وتمييزهِ فانهُ يظهر فيهِ غريزة بها يستلذ اللعب حتى يكون ذلك عندهُ الذّ من سائر الاشياء . ثم يظهر فيهِ بعد ذلك استلذاذُ اللهو ولبس الثياب الملونة وركوب الدواب الفارهة فيستخف معهُ اللعب بل يستهجنهُ . ثم يظهر فيهِ بعد ذلك لذة الزينة والمنزل والخدم فيحتقر ما سواها لها . ثم يظهر فيهِ بعد ذلك لذة الجاه والرئاسة والتكاثر من المال والتفاخر بالاعوان والأتباع والأولاد وهذا آخر لذات الدنيا

وقد قال الموسويُّ في طباع الشيب :

اعلم ان الشيب يمدح في أُمورٍ ويُذَمُّ في غيرها فيُمدح بان فيهِ الجلالة والوقار والتجارب والحنكة وانهُ يصرف عن الفواحش ويصدُّ عن القبائح ويعظ من نزل بهِ فيقلّل في الهوى طماحهُ وفي الغيّ جماحهُ. وللشيوخ صحة الرواية وكثرة التجارب فهم اشجار الوقار ومناجع الاخبار. ويُذمُّ الشيب بانهُ رائد الموت ونذيرهُ وانهُ يوهن القوة ويضعف المنّة ويطمع في صاحبهِ وربما شكا منهُ لنزولهِ في غير زمانهِ ووفودهِ قبل ابانهِ وما اشبه ذلك من الخلال المعيبة

س ماهي الطباع الغالبة على الجمهور بحسب قدرهم ومراتبهم

ج قد غلب على (الاعيان الاحرار) أُبَّهة السلطنة وهيبة الامر واباء الطبع وعلوّ الهمّة وتمام المروءة على انهُ يظهر فيهم خُيلاء وعظمة وتفاخر يحبون الإطراء ويأبون قبول التأديب ولا ينقادون الى النصح

وطبع (الاغنياء) اللهمَّ من كان منهم حديثَ عهدٍ بغنًى على التيه والصَلَف تبطرهم الكرامة ويطغيهم المال ويشغلهم الحذَر والحرص يتعاظمون على الفقير ويتطاولون على من هو دونهم يتكلفون طباع السادة ولا يقتصدون في الملاذ

امَّا (العلماء) ففيهم كرم الاخلاق وصحَّة الاعراض وقلَّة المطامع في المال يرتاحون الى السمعة الحسنة ويحبون التوقير والتعظيم رُبَّما داخلهم العجب في اوَّل اكتنازهم للعلوم فيهم السلاطة والهذَر

وكذلك طباعٌ لكل طبقة من طبقات الناس على اختلاف مهنهم وصناعاتهم واديانهم واوطانهم لا بدَّ للخطيب من مراعاتها

الباب الثالث

في الاهواء

اعلم ان لا مندوحة للخطيب اذا اراد نصرة حقوقهِ وازهاق باطل خصمهِ ان يحرّك في القلوب اميالها ويثير فيها اهواءها . وعليهِ ان يخلص الموضوع من شوائب الالتباس ويعرّف الجمهور مواقع الصواب ويبصرهم مزالق الارتياب . ثم يتودّد اليهم ويستعطف خواطرهم بحيث يمتزج حبهُ بالنفوس . لكن علاوةً على ذلك ينبغي لهُ ان يتَّصل الى القلوب ويأخذها من حيثُ تميل كي تجعل مقصودَ الخطيب احقّ ملتمَسها وافضل مأثورها وبذلك قوام الإقناع . وقد جعلنا مدار هذا الباب على الاهواء وكيفية تحريكها

البحث الأوَّل

في حقيقة الاهواء واقسامها

س ما هو الهوى

ج الهوى في اللغة مطلق الشهوة محمودة كانت او مذمومة (١) . وفي الاصطلاح هو عبارة عن شهوات النفس . وهي ميلها الى ما يلائمها واعراضها عمَّا يُنافرها (٢) . وقد حدَّها ارسطو في كتاب الخطابة قال : ان الاهواء انفعالات في النفس

(١) مصطلحات الفنون للتهانوي (٢) الفتح المبين في شرح الاربعين

تُثير بها حزناً ولذَّةً بحيث ان حكمها في الشيء الواحد يختلف عمَّا كان (١)

س ماهي العلة الموجبة للاهواء

ج ان موجبها قوَّتان في الانسان تُعرفان بالقوَّة او النفس الشهوانيَّة وبالقوَّة او النفس الغضبيَّة

س كم قسماً الاهواء

ج الاهواء قسمان منها ما يصدر عن النفس الشهوانيَّة ومنها ما يصدر عن النفس الغضبيَّة

س ما هي اهواء النفس الشهوانيَّة

ج هي المحبة والبغض. والرغبة والنفور. والفرح والحزن

س ما هي اهواء النفس الغضبيَّة

ج هي الرجاء والقنوط. والشجاعة والجُبن. والغضب والحلم

البحث الثاني

في اهواء النفس الشهوانية

في المحبة والبغض

س ما هي المحبة

ج هي حركة في النفس تدعوها الى طلب الخير للمحبوب

(١) تعريب خطابة ارسطو لابن رشد

والى الاصطناع اليهِ مع نزاهة المصطنع عن الاغراض ٠وعليهِ تكون شروط المحبة ثلاثة : الاوَّل الارتياح الى خير المحبوب ٠ الثاني السعي اليهِ ٠ الثالث خلوص المودَّة عن شين المنفعة الخاصَّة وحبّ الذات

س كيف تحرَّك المحبة في القلوب

ج بطرق مختلفة منها:

اولاً ان يبيّن الخطيب ما ازدان به المحبوب من الاخلاق الكريمة لان القلوب تأنس الى الطباع الجميلة كقول المتنبي في سيف الدولة :

ضاقَ الزَّمان ووجهُ الأرض عن ملكٍ ... ملءِ الزَّمانِ وملءِ السَّهلِ والجبَلِ
ليتَ المدائح تستوفي مناقبهُ ... فما كليبٌ واهل الأعصرِ الأولِ
خذ ما تراه ودع شيئاً سمعتَ بهِ ... في طلعة البدر ما يغنيك عن زُحلِ
مُتمني الامانيِّ صرعى دون مبلغهِ ... فما يقول لشيءٍ ليت ذلك لي

ثانياً ان يذكر جميل فضلهِ وحسن معروفهِ وسابغ نعمهِ كقول ابي تمام في المعتضد بالله :

الى قطبِ الدنيا الذي لو بفضلهِ ... مدحت بني الدنيا كفتهم فضائلهْ
مَن الباسُ والمعروف والجودُ والتُقى ... عيالٌ عليهِ رزقهنَّ شمائلهْ
هو البحر من ايِّ النَّواحي اتيتهُ ... فلجَّتهُ المعروف والجودُ ساحلهْ
تعوَّدَ بسطَ الكفِّ حتَّى لو انَّهُ ... ثناها لقبضٍ لم تُطعهُ انامله
ولو لم يكن في نفسهِ غير كفِّهِ ... لجادَ بها فليتقِ الله سائلهْ

ثالثاً ان يخبر عن صفاء ودِّ من يريد ان يجعلهُ الى القلوب

وعظم محبتهِ فان الحبَّ يستدعي الحبَ كقول ابي الوليد بن الزَندقة الطرطوشي في برّ الوالدين :

لو كان يدري الابنُ ايَّة غصة ... يتجرَّع الأبوانِ عند فراقهِ
امٌّ تهيج بوجدهِ حيرانةً ... واب يسحُّ الدمعُ من آماقهِ
يتجرعان لبَينهِ غُصص الردى ... ويبوح ما كتماه من اشواقهِ
لرثى لامٍّ سُلَّ من احشائها ... وبكى لشيخٍ هامَ في آفاقهِ
ولبدَّل الخلق الابيَّ بعطفهِ ... وجزاهما بالعذبِ من اخلاقهِ

وكقول بعضهم في التواصل :

ان المحب لايزال يرعى لكم عهدًا ، ويحفظ لكم ولاء وودًّا ، ويحنُّ الى تلك الذات المحروسة ، والصفات المأنوسة ، التي لا يسكن القلب الَّا اليها ولها ابدًا يتشوف ويتشوق ، وعليها سرمدًا يتلهف ويتحرَّق ، حتَّى يعيد الزمان العطف كأوه المكرر ، ويصفو بذلك شراب وصلهِ المكدَّر ، وليس ذلك بترويق اللسان وصوغهِ بل قد خالط اللحم والدم والمولى بذلك ادرى واخبر ، وان عهد الوداد بحاله لم يتغير ، وصفو الحب ما عهدتم وحاشا ان يتكدر

س ما هو البغض

ج البغض او الحقد ضدّ الحبّ وهو حركة في النفس تحملها على إضمار الشرّ للجاني اذا لم يتمكن من الانتقام منهُ

س ما هي الدواعي المثيرة البغض في القلوب

ج هي ثلاثة تؤْخذ من اضداد دواعي الحب وهي :

اولًا ذكر الاخلاق السيئة المطبوع عليها من تعمدتَ تشنيع اخلاقهِ كقول الفرزدق في قومٍ :

لا بارك الله في قومٍ ولا شربوا ... إلَّا أُجاجًا اتونا من سجستانا
مُنافقين استحلّوا كلَّ فاحشةٍ ... كانوا على غير تقوى الله اعوانا

أَلم يكن مؤمنٌ فيهم فينذرهم عذاب قومٍ اتوا لله عصيانا

ثانيًا صفة تجبرهِ وقسرهِ كقول ابي اذينة يذكر ظلم بني غسّان ويحرّض الاسود على قتلهم :

هم جردوا السيف فاجعلهم بهِ جُزرًا هم اوقدوا النار فاجعلهم لها حطبا
واذكر بحفاظ مثوى ابي كرب فيهم وحبس عديّ عندهم حِقَبا
وسيف جدك لمَّا ان اضرَّ بهم جاءوا بهِ لك في اسلابهم سلبا
لا عفوَ عن مثلهم في مثل ما طلبوا وان يكن ذاك كان الهلك والعطبا

ثالثًا ذكر ما جُبل الخصم عليهِ من البغض واحتقان الحقد كقول ابي العتاهية في صديق اسمهُ صالح تغير عليهِ :

اراني صالحٌ بغضا فاظهرت لهُ بغضا
ولا والله لا ينقضُ م إلّا زدتهُ نقضا
وإلّا زدتهُ مقتًا وإلّا زدتهُ رفضا
ألا يا مُفسد الودِ وقد كان لهُ محضا
تغضبتُ من الريح فما اطلب ان ترضى
لئن كان لهُ المالُ م المصفّى انَّ لي عِرضا

الرغبة والنفور

س ماهي الرغبة

ج الرغبة حركة في النفس تحملها على ارادة لذَّة مأمولة

س كم صنفًا المرغوبات

ج صنفان : منها محسوسة كلذَّات الحواس ومنها معقولة كلذَّة الفضيلة والعلم

س بماذا يتوسل الى اثارة الرغبة في النفوس

ج بتعظيم المرغَّب بهِ وتزيينهِ في عيون السامعين حتى كأنهُ يريهم اياه رأيَ العين مع ذكر قرب منالهِ وذكر الفوائد التي تنجم عنهُ كما جاء في سفر الاحبار على لسان الرب :

ان جريتم على رسومي وحفظتم وصاياي وعملتم بها . انزلت غيوثكم في اوانها واخرجتِ الارض غلالها وشجر الحقل يُخرج ثمرهُ . والدّياس يتصل بالقطاف والقطاف يتصل بالزرع وتأكلون طعامكم شبعاً وتُقيمون آمنين في ارضكم . وأُلقي السلام في الارض فترقدون وليس مزعج وأُزيل الوحوش الضارية من الارض وسيفٌ لا يمرُّ في ارضكم . وتطلبون اعداءكم فيسقطون امامكم بالسيف . فتطرد الخمسة منكم مئةً والمئة منكم تطرد ربوة وتسقط اعداؤكم امامكم بالسيف. وأُقبل عليكم وانميكم واكثركم وأُثبت عهدي لكم . وتأكلون القديم المعتّق وتخرجون القديم من امام الجديد . واجعل مسكني فيما بينكم ولا اخذلكم . واسير فيما بينكم واكون لكم الهاً وانتم تكونون لي شعباً . انا الرب الهكم الذي اخرجكم من ارض المصريين لئلّا تكونوا عبيداً لهم وكسر اغلال نيركم وجعلكم تسيرون منتصبين

وقد يُصنع ذلك بطريق المقابلة وهي من اوقع الطرق وافعل الاساليب كتفضيل المرغوبات المعقولة على المحسوسة كما قالت ميسون بنت الجندل لمعاوية وكان نقلها من البدو الى الشام فرغّبها في الاقامة عندهُ فانشدت :

لَبيتٌ تخفقُ الارواحُ فيهِ	أَحبُّ اليَّ من قصرٍ مُنيفِ
ولبس عباءةٍ وتقرَّ عيني	احبُّ اليَّ من لبس الشفوفِ
واكلُ كُسيرةٍ في كِسر بيتي	احبُّ اليَّ من اكل الرغيفِ
واصوات الرياح بكل فجٍّ	احبُّ اليَّ من نقر الدفوفِ
وكلبٌ ينبح الطرّاقَ دوني	احب اليَّ من قطٍّ أَلوفِ

وبكرٌ يتبع الاظعان صعبٌ احبُّ اليَّ من بغل زَفوفِ
وخرق من بني عمّي نحيفٌ احبُّ اليَّ من علجٍ عنيفِ

س ما هو النُّفور

ج النُّفور ويسمَّى الجزع ايضًا هو حزن يصرف الانسان عمَّا هو بصددهِ ويقطعهُ عنه (١)

س كيف يُثار الجزع

ج بعكس ما تُثار بهِ الرغبة اي بان يصوّر لعقول الجمهور وجوه المضارّ الحاصلة عمَّا اراد التنفير عنهُ كقولهِ تعالى لشعب اسرائيل وقد اراد ان يصرفهم عن العصيان :

وان لم تسمعوا لي ولم تعملوا بجميع هذه الوصايا . ونبذتم رسومي وعافت انفسكم احكامي فلم تعملوا بجميع وصاياي ونقضتم عهدي . فانا اصنع بكم هـذا أُسلط عليكم رعبًا وسلًا وحمّى تفني العينين وتتلف النفس وتزرعون زرعكم باطلًا فيأ كلهُ اعداؤكم. واجعل وجهي ضدكم فتنهزمون من وجوه اعدائكم ويتسلط عليكم مبغضوكم وتفرُّون ولا طالب لكم . ثم ان لم تطيعوني بعد هذا زدتكم تأديبًا على خطاياكم سبعة اضعاف . فأُحطِم تشامخ عزكم واجعل سماءكم كالحديد وارضكم كالنحـاس . وتفرغ قواكم عبثًا ولا تخرج ارضكم إتاءها وشجر الارض لا يخرج ثمرهُ . واطلقت عليكم وحش الصحراء فتثكلكم وتهلك بهائمكم وتقلِّلكم فتوحش طرقكم. وان لم تتأدبوا بهذه وجريتم معي بالخلاف . جريت انا ايضًا معكم بالخلاف وضربتكم سبعة اضعافٍ على خطاياكم . فاجلب عليكم سيفًا منتقمًا نقمة العهد فتجتمعون الى مدنكم وابعث الوباء فيما بينكم وتُسلمون الى ايدي العدو . . . وأَدكُّ مشارفكم وأحطّم تماثيل شموسكم وأُلقي جثثكم على جثث اوثانكم وتكرهكم نفسي. واجعل مدنكم قفرًا ومقادسكم موحشة ولا اشتمُّ رائحة رضًى منكم . واترك الارض بلقعًا فيندهل لها اعداؤكم

(١) الشفاء لابن سينا

الذين يسكنوها . وأبددكم فيما بين الامم وأجرّد وراءكم سيفاً فتصير ارضكم خراباً

او بتبيين سوء مخبره ودغل باطنه كقول سعيد بن صامت في صديق مماذق :

الا ربَّ من تدعو صديقاً ولو ترى مقالتهُ بالغيب ساءك ما يفري
مقالتهُ كالشهد ما كان شاهداً وبالغيب مأثورٌ على ثغرة النحر
يسرّك باديه وتحتَ اديمه نميمة غشٍّ تبتري عَقَب الظّهرِ
تبين لك العينان ما هو كاتمٌ من الغلّ والبغضاء والنظر الشّزرِ
فرشني بخيرٍ طالما قد فرَيتني وخيرُ الموالي من يريش ولا يبري

الفرح والحزن

س ما هو الفرح

ج الفرح لذَّة في القلب لنيل المشتهى (١)

س ما اصدق وسيلة لتحريك شاعرة الفرح في القلوب

ج اصدقها ثلاث :

الاولى صفة الفرح الناشئ عن اصابة الخير المقصود

الثانية ذكر ما لحق الجمهور من المشقة والحزن قبل ادراكه هذا الاحسان

الثالثة الاسترسال في ذكر النعمة المستاحة وجميل عُقباها وطيب جناها بعد طويل انتظارها او اليأس من الحصول عليها كقول ابن زمرك يهنئ ابا عبدالله بن نصر بما تسنّى له من الظفر :

يهنئْ زمانك اعيادٌ مجددة من الفتوح مع الايام تغشاهُ

(١) تعريفات الجرجاني

غضبت للدين والدنيا بحقهما يا حبذا غضب في الله ارضاهُ
فوّقت للغرب سهماً راشهُ قدر وسدّد الله للاعداء مرماهُ
سهم اصاب ورامِيه بذي سلم لقد رمى الغرضَ الاقصى فأصماهُ
من كان بندك يا مولاي يقدمهُ فليس يخلفهُ فتح ترجاهُ
من كان جندك جند الله ينصرهُ آناله الله ما يرجو وسناهُ
ملكت عزّاً بهِ خلدت من ملك للغرب والشرق منهُ ما تمناهُ
وسام اعداؤك الاشقين ما كسبوا ومن تردّى رداء الغدر ارداهُ

وكقول ابي الحليم يحضُّ النصارى على الفرح في صبيحة عيد القيامة:

ايها المؤمنون ان يومكم هذا آشرف الأيام قدرًا ، واعظم الاعياد خطرًا ، وانبه الازمان ذكرًا ، واسعد الاوقات فخرًا ، هو اليوم الاعزّ الازهر ، والمِيقات العظيم الاخطر ، والمقام الشريف الاجهر ، والعيد السعيد الاكبر ، يوم الهناء والافراح ، يوم تجديد الجسوم والارواح ، بكر اعياد السيد المسيح في الدار الآخرة ، والمبشر بالنعيم الابدي واللذات الفاخرة ، يوم قُرّر في القلوب تحقيق القيامة ، وأشعرنا بالخلود السرمدي في دار الاقامة ، يوم تميّز على بواقي الايام بشرف الاحديّة ، وثبتت فيه براهين الرجاء بالحياة الابديّة ، هذا اليوم الذي أنذرت بهِ صوادق المواعيد ، وايقنت القلوب البشريّة بالعالم العتيد ، هذا اليوم الذي بطلت فيهِ الشكوك عن العقائد ، واقتُنصت فيهِ نفائس المغانم واخاير الفوائد ، هذا اليوم الذي فيهِ تجدّدت الجبلة البشريّة ، وقامت الاجساد مع السيد المسيح قيامة سريّة ، اليوم اعتدلت ازمان الفضائل ، وزال عن الاذهان برد شتاء الرذائل ، ازهرت اغصان القلوب ، انتثرت اوراق الخطايا والذنوب ، غاض معين الضلال ، فاض ماء الحياة الابديّة من صخرة السعادة والإقبال ، اليوم تبسّمت ثغور الأسرار ، اشرقت شموس الإيقان على صدور الابرار ، نُشِر على رؤوس المؤمنين اعلام الخلاص ، بُشِر الجنس الآدميّ بغفران الخطايا والاختصاص ، اليوم انفلق فجر الحقّ ، آشرق صباح الافراح لكل الخلق ، عاد رونق البشريّة ، طلعت اقمار الابتهاج على آفاق البريّة ، اليوم زال ليل الضلال الأغسق ، لاحت غرّة الصباح الأشرق ، انجلت ظلم الشكوك بنور البرهان ، ترشّش على نور القلوب طلّ الرجاء والايمان ، اليوم تعفّت اطلال الاضاليل ، ووهت معالم الأباطيل ، انشقّت عن درّة الحياة صدفة الإنجيل ، ثبتت قيامة الاجساد بأصحّ برهان واصدق دليل

س ما هو الحزن

ج قال الجرجاني : هو عبارة عمّا يُحصل لوقوع مكروهٍ او فوات محبوب في الماضي

س كيف يُثير الخطيب الحزن في النفوس

ج من اقوى مُثيرات الحزن بسط الكلام في هول الخطب وعظمة المحنة . ثم تعديد مزايا المفقود وتبيين جدارتهِ بالجزع والحزن . مع ايراد الخطيب اشد الالفاظ سطوةً على القلب في وصف ما تركت المصيبة في قلبهِ من الأسى والكآبة فان دموع الخطيب تدعو الى التأسّي بهِ وقد قيل :

اذا اشتبكت دموعٌ في خدودٍ   تبيَّن من بكى ممن تباكى

س اذكر شاهدًا في هذا الباب

قال الباجي ابو الوليد يرثي ابنهُ محمدًا :

أمحمد ان كنت بعدك صابرًا   صبرَ السليم لما بهِ لا يسلمُ
فلقد علمتُ بانني بك لاحقٌ   من بعد ظني انني متقدمُ
لله ذكرٌ لا يزال بخاطري   متصرّفٌ في صبرهِ متحكمُ
فاذا نظرت فشخصهُ متخيّلٌ   واذا اصخت فصوتهُ متوهمُ
وبكلِّ ارضٍ لي من اجلك لوعةٌ   وبكلِّ قبرٍ وقفةٌ وتلوُّمُ
فاذا دعوتُ سواك حاد عن اسمهِ   ودعاءٌ باسمك مقوَلٌ بك مغرمُ
حكم الردى ومناهج قد سنّها   لاولي النهى والحزن قبل متمم

وقالت اعرابية في ولدٍ صغيرٍ أُصيبت بهِ :

يا بنيَّ لقد غذوتك رضيعاً ، وفقدتك سريعاً ، وكأنهُ لم يكن بين الحالين مدةٌ

التذُّ بعيشك فيها . فاصبحتَ بعد النضَارة والغضَارة ورونق الحياة والتنعم في طيب روائحها تحت اطباق الثرى جسداً هامدًا ورفاتاً سحيقًا وصعيدًا جرزاً . أي بُني قد سحبت الدنيا عليك اذيال الفناء واسكنتك دار البلى . ورمتني بعدك نكبة الردى . أي بني لقد اسفر لي عن وجه الدنيـا صباح داجٍ ظلامهُ . (ثم قالت) : أيْ ربِّ ومنك العدل ومن خلقك الجور . وهبتهُ لي قرة عين فلم تمتعني بهِ كثيرًا بل سلبتنيهِ وشيكاً . ثمَّ امرتني بالصبر ووعدتني عليهِ الأجر فصدَّقت وعدك ورضيت قضاءك . فرحِم الله من ترحَّمَ على مَن استودعتـهُ الرَّدمَ ووسَّدتُهُ الثرى . اللهمَّ ارحم غربتهُ وآنس وحشتهُ واستُر سوءتهُ يوم تنكشف السوءات

البحث الثالث

في اهواء النفس الغضبية

الرجاء والقنوط

س ما هو الرجاء

ج الرجاء في اللغة الأمل وفي الاصطـلاح تعلُّق القلب بحصول محبوب في المستقبل (١)

س ماذا يدعو الى الرجاء في القلوب

ج ينشأُ الرجاء في القلوب بطريقتَين:

الاولى ان يصف المتكلم عظم الخير المبتغى كي يحبّبهُ الى النفوس

الثانية ان يبيّن ان الامر المقصود ليس هو بعيد المتناوَل عزيز المطلب وانما هو بخلاف ذلك سهل الملتمَس لما في اليـد

(١) كليات ابي البقاء والتعريفات

من الوسائل الصادقة المؤدية لإدراكه كما هي الجنود والاقوات الموفورة والعُدَد وسمو الهمَّة والثقة بحول الله وضعف العدوّ الى غير ذلك كما روى المسعودي والطبري عن عليّ بن ابي طالب يوم صفين وهو يحض الانصار على معاوية واصحابه :

يا معشر الانصار عمّوا الاصوات واكملوا اللّأمة واستشعروا الخشية وقلقلوا السيوف في الاجفان قبل السلّة والحظوا الشزر واطعنوا الهبر وناجوا بالظبا وصِلوا السيوفَ بالخطاء والنبال بالرماح. ان هؤلاء لن يزالوا عن موقفهم دون طعن يخرج منهُ النسيم وضرب يفلق الهام ويشجّ العظام وتسقط منهُ المعاصم والاكف حتى تُشدخ جباههم بعمد الحديد وتنتثر لممهم على الصدور والاذقان . اين اهل الصبر وطلاب الأجر. طيبوا عن انفسكم انفساً فانكم بعين الله تعالى ومع ابن ابي طالب . عاودوا الكرّ واستقبحوا الفرّ فانهُ عار في الاعقاب ونار يوم الحساب. ودونكم هذا السواد الاعظم والرواق المطنب فاضربوا بثبجة فان الشيطان راكب صعيدهُ مفترش ذراعيه قد قدم للوثبة يداً واخر للنكوص رجلاً فصمداً صمداً حتى ينجلي وجه الحق وانتم الاعلون والله معكم ولن يتركم اعمالكم

وكما جاء في سفر التوراة في تثنية الاشتراع على لسان موسى وقد حاول ان يبيّن لشعب اسرائيل ان شريعة الله ليست بعسرة الخطة ولا وعرة المسالك قال :

ان هذه الوصية التي انا آمرك بها اليوم ليست فوق طاقتك ولا بعيدة منك . لا هي في السماء فتقول من يصعد لنا الى السماء فيتناولها ويسمعنا اياها فنعمل بها . ولا هي في عبر البحر فتقول من يقطع لنا هذا البحر فيتناولها ويسمعنا اياها فنعمل بها . بل الكلمة قريبة منك جدًا في فيك وفي قلبك لتعمل بها . انظر اني قد جعلت اليوم بين يديك الحياة والخير والموت والشر . بما اني آمرك اليوم ان تحب الربّ الهك وتسير في طرقه وتحفظ وصاياهُ ورسومه واحكامه لتحيا وتكثر ويباركك الرب الهك في الارض التي انت فيها صائر اليها لتملكها . وان زاغ قلبك ولم تسمع وملت وسجدت لآلهة اخرى وعبدتها . فقد انبأتكم اليوم انكم تهلكون هلاكاً ولا تطول

مدتكم في الارض التي انتم عابرون الاردنّ لتدخلوها وتمتلكوها . وقد اشهدت عليكم اليوم السماء والارض باني قد جعلت بين ايديكم الحياة والموت البركة واللعنة فاختر الحياة لكي تحيا انت وذريتك

س ماهو القنوط

ج هو عبارة عن لوعة القلب لقطع الامـل عن حصول المرغوب

س متى وكيف يحرك الخطيب القنوط

ج للخطيب أن يثير القنوط في الجمهور اذا اراد ان يصرفهم عن امرٍ يريدونهُ وذلك بان يصفـه لهم معجز الدرك يحول دون مرغوبهم مخاطر ومشاقّ لايقتحمها الّا الغبيّ الجاهل الباحث عن حتفهِ بظلفهِ كما فعل عنترة يوم بارز ابا يقظان بن بسطام الشيباني فقال يتهددهُ ويبشّره بموت قريب ان طلب مقاتلتهُ :

يا ابا اليقظان اغواك الطمعْ ... سوف تلقى فارساً لا يندفعْ
زرتني تطلب مني غفـلةً ... زورة الذئب على الشاة رَتعْ
يا ابا اليقظان كم صيدٍ نجـا ... خالي البـالِ وصيادٍ وقعْ
ان تكن تشكو لاوجاع الهوى ... فانا اشفيك من هذا الوجعْ
بحسامٍ كلما جردتُهُ ... في يميني كيفما مال قطعْ
وانا الاسودُ والعبد الذي ... يقصد الخيل اذا النقعُ ارتفعْ
نسبتي سيفي ورمحي وهما ... يؤْنساني كلما اشتد الفزعْ
يا بني شيبـان عمي ظالمٌ ... وعليكم ظلمهُ اليوم رَجعْ
ساقَ بسطاماً الى مصرعهِ ... عالقاً منهُ باذيال الطمعْ
وانا اقصدهُ في ارضكم ... واجـازيهِ على ما قد صنعْ

الشجاعة والجبن

س ما هي الشجاعة

ج هي هيئة حاصلة للقوة الغضبية بها يقدم الانسان على ما يجب الإقدام عليه مع التعرض للمكاره الحائلة دون المرغوب

قال ابن عدي والقزويني : ومن اخص سمات الشجاعة الاقدام على الامور التي يحتاج الانسان ان يعرض نفسه لها لدفع المكاره والآلام الواصلة اليه مع ثبات الجأش عند المخاوف والاستهانة بالموت وهو بالاشراف والملوك اليق بل لا يستحقون الملك مع عدم هذه الخلة . والشجاعة متوسطة بين الجبن والتهور فيكون كما قال معاوية :

شجاعٌ اذا ما امكنتني فرصة   وان لم تكن لي فرصة فجبانُ

س ما هي بواعث الشجاعة

ج لا تختلف كثيرًا عن بواعث الرجاء وذلك بان يرغب الخطيب السامعين في حصول المحبوب اللهمَّ اذا كان شريفًا جليلًا ويشهّيه الى القلوب ويبعثها على طلبه كما قال ابن عمّار يغري اهل بلنسية على ابي بكر بن عبد العزيز وبنيه :

بشّر بلنسيةً وكانت جنّة   ان قد تدلت في سواء النارِ
جاروا بني عبد العزيز فانهم   جرّوا اليكم اسوأ الاقدارِ
ثوروا بهم متأولين وقلّدوا   ملكاً يقوم على العدو بثارِ
جاء الوزير بها يكشّف ذيلها   عن سوأة سوأى وعارٍ عارِ
نكث اليمين وحاد عن سنن العلى   وقضى على الإقبال بالإدبارِ

آوى لينصرَ من نآى المثوى بهِ — ودهاهُ خذلانٌ من الانصارِ
ما كنتمُ الّا كامنة صالحٍ — فرميتمُ من طاهر بقُدارِ
هلّا وخصكم باشأم طائرٍ — ورمى ديارَكمُ بالأم جارِ
برّ اليمين ولم يعرّض نفسهُ — ونفوسكم لمصارع الفجارِ
لا بد من مسح الجبين فانما — لطمتهُ عذرًا غير ذات سوارِ

(راجع ايضاً قصيدة الحلي صفحة ٥٩ من الجزء السادس من مجاني الادب)

ومن اقوى اسباب الشجاعة ذكر الامداد العلويّة كما فعل يهوذا المكابي بجيشهِ وكانوا عند رؤيتهم عسكر ملك سورية مقبلًا هتفوا: كيف نطيق قتل مثل هذا الجمع القوي ونحن نفر يسير. فقال يهوذا:

ما اسهلَ ان يُدفع الكثيرون الى ايدي القليلين وسواءٌ عند اله السماء ان يخلّص بالكثيرين وبالقليلين. فانهُ ليس الظفر في الحرب بكثرة الجنود وانما القوة من السماء. اولئك يأتونا بجمعٍ من ذوي الشتائم والنفاق ليبيدونا نحن ونساءنا واولادنا ويسلبونا. واماَّ نحن فنحارب عن نفوسنا وسننا. وهو يكسرهم امام وجوهنا فلا تخافوهم

س ما هو الجبن

ج الجبن او الخوف هيئة حاصلة للقوّة الغضبيّة بها يحجم عن مباشرة امرٍ لما يتوهَّم بهِ من المخاوف

س كيف يتمكن الخطيب من القاء الخوف في القلوب

ج بثلاث وسائل:

الاولى ان يُنذر الجمهور بخَطب عظيم وطامَّة كبيرة كانتشاب حرب ووقوع مجاعة وحلول أَجلٍ وسوء مطلعٍ

يوم الدين وغير ذلك من المهاول التي تلقي الذُعر في القلوب كقول الزمخشري في التحذير من الدنيا :

خفَّ الزاد ، وجفَّ المزاد ، وطال السبيل ، وحار الدليل ، وما يُدريك على مَ تقدم ، اتثبتُ ام تزلُّ بك القدم ، ياجمود العين ، كانك بغراب البين ، اين ادمعك الذوائب ، وقد شابت منك الذَّوائب ، تعشَّشُ أمُّ الرَّدى وتبيض ، حيث تطلع الشعرات البيض ، لم يبقَ الّا الحمل على الآلةِ الحدباء ، والطرح تحت الرمل والحصباء

وكقول زهير في التحذير من الحرب :

وما الحرب الّا ما علمتم وذقتمُ وما هو عنها بالحديث المرجَّمِ
متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً وتضرَ اذا ضرَّيتموها فتضرَمِ
فتعرككم عرك الرحى بثفالها وتلقح كشافاً ثمَّ تنتج فتتئمِ
فتنتج لكم غلمان أشأمَ كلهم كأحمر عادٍ ثمَّ ترضع فتفطمِ
فتغلل لكم ما لا تُغلُّ لاهلها قرًى بالعراق من قفيزٍ ودرهمِ

الثانية ان يتوعد السامعين بقرب حلول المكروه او سرعة فوات المحبوب فان الشرَّ المتوقع حلولهُ ارجف للقلوب كما قال ابو العتاهية :

أنلهو وايامنا تذهبُ ونلعبُ والموتُ لا يلعبُ
عجبتُ لذي لعبٍ قد لها عجبتُ وما لي لا أعجبُ
أيلهو ويلعب مَن نفسهُ تموت ومنزلهُ يخربُ
نرى كلما ساءنا دائماً على كل ما سرّنا يغلبُ
نرى الخلق في طبقات البلى اذا ماهمُ صعَّدوا صوّبوا
نرى الليل يطلبنا والنها رلم ندرِ ايهما أطلبُ
احاط الجديدان جمّاً بنا فليس لنا عنهما مهرب
وكلٌّ لهُ مدةٌ تنقضي وكلٌّ لهُ أثرٌ يكتبُ
الى كم تُدافع نحي المشيبِ م ياايها اللّاعبُ الاشيبُ

وما زلت تجري بك الحادثا ت تسلمُ منهنَّ او تنكبُ
ستُعطي وتُسلب حتَّى تكو ن نفسك آخرَ ما يُسلبُ

الثالثة ان يبيّن الشرّ خصيصاً بالسامع متربّصاً لهُ دون غيرهِ فان النفوس توثّر خيرها الخاصّ ولا ترعج لما عمَّ من الخطوب كقول ابي الحليم من خطبة يحض بها الخطاة على التوبة :

ايها الخاطئ ايقظ غفلة العقل من رقدة الاعمال ، وتنبَّه لايقاد الأضواء بدهن صوالح الاعمال ، قبل ان تندرج الايام ، وتنقرض الاعوام ، وتقرب مدة الآجال ، وتقصر الألسن عن الأجوبة والسؤال ، حيث يحصد كل امرئٍ ما زرع ، ويجازى من الله على كل ما صنع ، ويقدُم على ما قدّم ، ويتنهّد الاثيم ويتندّم ، يوم اضطراب الشيخ الكبير على ما اسلف ، وانتحاب الكهل الخطير على ما اتلف ، يوم يتطي مخاص الكل صهوة السحاب النّوريّ ، ويدين لجلالهِ كل نجيب وبريّ ، يوم تصر اسنان الطالحين لخوف هول النقم ، وتثلج افئدة الصالحين باشهى سنيّ النعم ، يوم نشوة المؤمنين ، يوم غشوة المجرمين ، يوم خاتمة الازمان ، يوم انقضاء الآوان ، يوم ليس لهُ ثانٍ ، فيانضارة وجوه الابرار فيهِ اذا حلّوا عراص الملكوت ، ويا خسارة متاجر الاشرار بما تعاينهُ من المخازي والبهوت ، ألا رحم الله امرءًا تجلبب نفائس ملابس الوليمة الآخرة ، وآثر الخيرات الآجلة بما عجّل في الحاضرة

الغضب والحلم

س ما هو الغضب

ج هو حركة في النفس تتوجه الى دفع المؤذيات قبل وقوعها والى التشفي والانتقام بعد وقوعها (١)

قال الغزالي : انَّ قوت هذه القوَّة الغضبية وشهوتها الانتقامُ . وفيهِ لذَّتها ولا تسكن الَّا بهِ . ثم ان الناس في هذه القوة على درجات

(١) احياء علوم الدين للغزالي

ثلاث في اول الفطرة في التفرط والافراط والاعتدال . اما التفريط فبفقد هذه القوة او ضعفها وذلك مذموم وهو الذي يقال فيه: لاحمية له .·. واما الافراط فهو ان تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ولا يبقى للمرء معها بصيرة . واما الاعتدال فهو ان تنبعث الحمية حيث يجب وتنطفئ حيث يحسن العلم .(١٥) والكلام هنا على هذا الغضب المعتدل

س ماذا يهيج الغضب

ج شيئان :

الاول ذكر الاهانة وتعظيم الأذى وتحريك كامن الحفائظ كما فعلت عفيرة بنت غفار وكان بنو طسم الحقوا بها الاهانة والشتم :

أيجمل ان يوتى الى فتياتكم وانتم رجال فيكمُ عدد الرملِ
ايجمل تمشي في الدماء فتاتكم صبيحةَ زُفَّت في العشاء الى بعلِ
فان انتم لم تغضبوا بعد هذه فكونوا نساء لا تغبُّ من الكحلِ
ودونكمُ ثوب العروس فانما خُلقتم لاثواب العروس وللغسلِ
فلو اننا كنّا رجالًا وكنتمُ نساء لكنّا لا نقرُّ على الذلِّ
فموتوا كراماً او أميتوا عدوكم وكونوا كنار شبَّ بالحطب الجزلِ
والّا فخلّوا بطنها وتحملوا الى بلد قفر وهزل من الهزلِ
فللموتُ خيرٌ من مقام على أذًى وللهزل خيرٌ من مقام على ثكلِ
فدبّوا اليهم بالصوارم والقنا وكلّ حسام محدث العهد بالصقلِ
ولا تجزعوا للحرب قومي فانما يقوم رجال للرجال على رجلِ
فيهلك فيها كل وغل مواكلِ ويسلمُ فيها ذو الجلادة والفضلِ

الثاني بيان ضرورة التشفي كقول الحلي للسلطان الملك الصالح يحرضهُ على قوم عاثوا في اطراف بلادهِ من قصيدة قالها في يوم عيد النحر :

فيا ملكاً قد اطمع الناس حلمهُ لكثرة ما تعفو فيعفو ويصفحُ
أعِد نظر مأمورٍ على الضدّ كيدهُ واذكِ لهُ النار التي بات يقدحُ
فقد ايقن الاعداء انك راحمٌ فباهوا بافعال الخناء وسجّحوا
اذا ما فعلتَ الخير ضوعف شرّهم وكلُّ اناء بالذي فيهِ ينضحُ
ولو تابعوا قول الالهِ وامرهُ لقالوا بانَّ الصلح للخلق اصلحُ
فخذ بعيد النحر وانحر بهِ العدى فجودك عيدٌ للورى ليس يبرحُ
وضحِّ بهم لا زلت تنحر مثلهم ومن دون مغناك العقائر تذبحُ

(راجع ايضاً الجزء السادس من مجاني الادب عدد ٣٩و٤٠)

ومن قبيل الغضب المستحسن تحريك عظم الهمة وهو استصغار ما دون النهاية من معالي الامور (١) قال ابو العتاهية :

ولم ارَ في عيوب الناس عيباً كنقصِ القادرين على الكمالِ

ومن محاسن الشواهد في ذلك قول اسماعيل المقري يستنهض همة المتغافلين عن طلب الخلاص :

اترضى من العيش الرغيد وعيشةٍ مع الملإ الأعلى بعيش البهيمةِ
فيا درَّةً بين المزابل أُلقيت وجوهرةً بيعت بابخس قيمةِ
افانٍ بباقٍ تشتريهِ سفاهةً وسخطاً برضوانٍ ونارًا بجنّةِ
ولو فعل الاعداء بنفسك بعض ما فعلت لمستهم لها بعض رحمةِ

ومنها الأنفة والاباء والحميَّة والغيرة اي النفور عمَّا يسومك الخسف ويشين عرضك كقول الحريري :

المنايا ولا الدنايا وخير من ركوب الخنا ركوبُ الجنازه

(١) تهذيب الاخلاق لابن عديّ

س كيف تُثار الحميَّة والغيرة في القلوب

ج لذلك طرائق : الاولى ان تصف لمن اردتَّ تحريك حميَّتهِ ما حازهُ خصمهُ من العزّ والرفعة على ما فيهِ من اللؤم والاخلاق الذميمة

الثانية ان تقابل مساوئ الخصم بحسَنات من تريد استنهاض همتهِ وكرمَ اخلاقهِ بلؤم اخلاق قرنهِ فيستدل بذلك على انهُ احق بهذا الشرف منهُ

الثالثة ان تبيّن ما سيلحق بصاحبك من العار ان لم يتنبَّه من غفلتهِ وينتزع من يد خصمهِ ما اخذهُ جورًا . كما فعل عليٌّ وقد اراد ان يحمل اهل الكوفة على معاوية واهل الشام :

ايها الشاهدة ابدانهم ، الغائبة عقولهم ، المختلفة اهواؤهم ، المبتلى بهم امراؤهم ، صاحبكم يطيع الله وانتم تعصونهُ ، وصاحب اهل الشام يعصي الله وهم يطيعونهُ ، لوددتُ حقًا ان معاوية صرفني بكم صرف الدينار بالدرهم فاخذ مني عشرة منكم ، واعطاني رجلًا منهم ، يا اهل الكوفة مُنيت بثلاث واثنتين ، صمٌّ ذوو اسماع ، وبكم ذوو كلام ، وعمي ذوو ابصار لا احرار صدق عند اللقاء ، ولا اخوان ثقة عند البلاء ، يا اشباه الابل غاب عنها رعاتها ، فكلّما جُمعتْ من جانب تفرّقت من جانب آخر ، وحقًّا لكأني بكم اخال ان لو حمس الوغى وحمي الضِراب ، انفرجتم عن بن ابي طالب ، وخلفتموهُ شريدًا طريدًا ، اما والذي نفسي بيدهِ ليظهرنَّ هولاء القوم عليكم ليس لانهم اولى بالحق منكم ولكن لإسراعهم الى باطل صاحبهم وابطائكم عن حقي . ولقد اصبحت الامم تخاف ظلم رعاتها . واصبحتُ اخاف ظلم رعيّتي . استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا . واسمعتكم فلم تسمعوا . ودعوتكم سرًّا وجهارًا فلم تستجيبوا . ونصحتُ لكم فلم تقبلوا . آشهودٌ كغياب . وعبيد كارباب . اتلو عليكم الحِكَم فتنفرون منها . وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرقون

عنها . واحثكم على جهاد اهل البغي فما آتي على آخر القول حتى اراكم متفرقين ايادي سبأ ترجعون الى مجالسكم . وتتخادعون عن مواعظكم .

وممَّا جاء في الحميَّة والأنفة مع ايثار الغضب والبغض ماذكره المسعودي :

لمَّا قتل عليٌّ كان في نفس معاوية من يوم صفّين على هاشم بن عتبة وولده إحن فحُمل اليهِ مقيدًا مغلولًا الى دمشق. فادخل الى معاوية وعنده عمرو بن العاصي فقال معاوية لعمرو بن العاصي : هل تعرف هذا . قال : لا . قال : هذا الذي يقول ابوهُ يوم صفّين :

اني شريتُ النفس لمَّا اعتلَّا ... واكثر اللوْمَ وما اقلَّا
اعور يبغي اهلهُ محلَّا ... قد عالج الحيوة حتى ملَّا
لا بد ان يَفَلَّ او يُفَلَّا ... اشلّهم بذي الكعوب شلَّا
لا خير عندي في كريمٍ ولّى

فقال عمرو متمثلًا :

لقد ينبت المرعى على دِمَن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا

دونك يا امير المؤمنين الضبَّ المضبَّ فاشخب اوداجهُ على اثباجهِ . ولا تردّهُ الى العراق فانهُ لا يصبر عن النفاق وهم اهل غدر وشقاق وحزب ابليس ليوم هيجاء وان لهُ هوًى سيرديه ُ ورأيًا سيطغيهِ وبطانةً ستقويهِ . وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها . فقال عبد الله : يا عمرو إن أُقتَل فرجلٌ اسلمهُ قومهُ وادركه يومهُ فألَا كان منك هذا اذ تحيد عن القتال فنحن ندعوك الى النزال وانت تلوذ بسمال النطاف وعقائق الرصاف كالأمة السوداء والنعجة القوداء لا تدفع يد لامس . فقال عمرو: فحقًا قد وقعت في لهازم شدقم للاقران ذي لُبَدٍ ولا احسبك منفلتًا من مخاليب امير المؤمنين . فقال عبدالله : لحقًا يا ابن العاصي انك لبطرٌ في الرخاء جبان عند اللقاء . غشوم اذا وليت. هيَّابة اذا لقيت. تهدر كما يهدر العود المنكوس المقيد بين مجرى السيول . لا يستعجل في المدة . ولا يُرتجى في الشدة . افلا كان هذا منك اذ غمرك اقوام لم يعنّفوا صغارًا. ولم يمزّقوا كبارًا. لهم ايد شداد. والسنة حداد. يقوّمون العوج. ويذهبون العرج. يكثرون القليل. ويشفون الغليل. ويعزّون الذليل. فقال عمرو: اما وحقًا لقد رايتُ اباك يومئذٍ تخفق احشاؤه. وتبقّ امعاؤه. وتضطرب اطلاؤه. كانما انطبق عليهِ صمد . فقال عبدالله : يا عمرو انَّا قد بلوناك ومقالتك فوجدنا لسانك كذوبًا غادرًا خلوت باقوام لا يعرفونك وجند لا يسامونك ولو رمت

المنطق في غير اهل الشام لجحظ اليك عقلك ولجلج لسانك ولأضطرَبت فخذاك اضطراب القعود الذي حكهُ حملهُ. فقال معاوية: ايها عنكما وامر باطلاق عبدالله. فقال عمرو لمعاوية:

امرتـك امرًا حازمًا فعصيتني ... وكان من التوفيق قتل ابن هاشمِ
اليس ابوهُ يامعاوية الـذي ... اعان علينا يوم حزِّ الغلاصمِ
فلم ينثنِ حتى جرَت من دمائنا ... بصفِّين امثال البحور الخضارمِ
وهذا ابنهُ والمرء يشبه شيخـهُ ... ويوشك ان تُقرع بهِ سِنَّ نادمِ

فقال عبدالله مجيبًا لهُ:

معاوي ان المرء عمرًا ابت لهُ ... ضغينة صدرٍ غشُّها غير نائمِ
يرى لك قتلي يا ابن هند وانما ... يرى ما يرى عمرو ملوك الاعاجمِ
على انهم لا يقتـلون اسيرهم ... اذا منعت عنـهُ عهود المسالمِ
وقد كان منا يوم صفّين نفرةٌ ... عليك جناها هاشمٌ وابن هاشمِ
قضى ما قضى فينا لهُ الله ما قضى ... وما قد مضى الّا كاضغاث حالمِ
وان تعفُ عني تعفُ عن ذي قرابةٍ ... وان ترَ قتلي تستحـلَّ محارمي

فقال معاوية:

ارى العفو عن عُليا قريش وسيلةً ... الى الله في اليوم العصيب القماطرِ
ولست ارى قتلي الغداة ابن هاشمٍ ... بادراك ثاري في لويٍّ وعامرِ
بل العفو عنهُ بعد ما بان جرمهُ ... وزالت بهِ احدى الجدود العواثرِ
فكان ابوه يوم صفِّين جمرةً ... علينـا فاردتهُ رماح بحائرِ

وربما اردفوا بهذا الباب المناقشة والحياء. قال ابن عديّ: المناقشة هي منازعة النفس الى التشبُّه بالغير فيما يراه المرء ويرغب فيهِ لنفسهِ. والاجتهاد في الترقّي الى درجة اعلى من درجتهِ. وهذا الخلق محمود اذا كانت المناقشة في الفضائل والمراتب العالية. قال عليّ يذكر الزهّاد ويحرض القوم على التأسي بهم:

لقد رايت مَن تقدَّمكم فما ارى بينكم احدًا يشبههم. لقـد كانوا يصبحون

شعثاً غبراً . وقد باتوا سجّداً وقياماً يراوحون بين جباههم وخدودهم ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم . اذا ذكر الله هملت اعينهم حتى تبلّ جيوبهم ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف خوفاً من العقاب ورجاء للثواب . فالزموا سمتهم ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا

وقال ايضاً في خطبة :

تأسّوا بالانبياء الاطهار واقتصّوا بآثارهم . انظروا الى عيسى ابن مريم فلقد كان يتوسّد الحجر ويلبس الخشن وكان إدامهُ الجوع وسراجهُ بالليل القمر وظلالهُ في الشتاء مشارق الارض ومغاربها وفاكهتهُ ما تنبت الارض للبهائم . ولم تكن لهُ زوجة تفتنهُ . ولا مال يحزنهُ . ولا طمع يذلّهُ . دابّتهُ رجلاه . وخادمهُ يداه

اماَّ الحياء فهو ان يحسن ارتداع النفس عن الامور التي يقبح تعاطيها والاقدام عليها لملاحظتها من ذلك قبح الاحدوثة (١) . والحياء اعمل في قلوب الاشراف منهُ في قلوب غيرهم قال الشاعر :

اذا قلَّ ماء الوجه قلَّ حياؤهُ ولا خير في وجهٍ اذا قلَّ ماؤهُ
حياؤك فاحفظهُ عليك فانمَّا يدلُّ على فعل الكريم حياؤهُ
اذا حُرم المرء الحياء فانهُ بكل قبيحٍ كان منهُ بلاؤهُ

والامثال كثيرة في ذلك منها : ما جاء في ديوان ابي العتاهية عن عبدالله بن معن من جملة ابيات :

ارى قومك ابطالاً وقد اصبحت بطّالا
فصغ ما كنت حلّيت بهِ سيفك خلخالا
وما تصنع بالسيف اذا لم تك قتّالا

(راجع صفحة ٣٣٤و٣٣٥ من ديوانهِ)

---

(١) تحديدات ابن سينا

ومن خطب عليٍّ التي رواها عنهُ الجاحظ بالاسناد قولهُ لاهل كوفة وكانوا خذلوه في حروبهِ :

ايها الناس المجتمعة ابدانهم المختلفة اهواؤهم . كلامكم يوهي الصمَّ الصلاب. وفعلكم يُطمع فيكم عدوكم. تقولون في المجالس : كيت وكيت. فاذا جاء القتال قلتم: حيدي حيادِ . ما عزت دعوة من دعاكم ولا استراح قلب من قاساكم. اعاليل باضاليل. سألتموني التأخير هيهات دفاع ذي الدين المطول لا يمنع الضيم الذليل ولا يدرك الحق الَّا بالجد . اي دار بعد داركم تمنعون . ام مع اي امام بعدي تقاتلون. المغرور والله من غررتموهُ . ومن فاز بكم فاز بالسهم الاخيب . فلا اصدق قولكم ولا اطمع في نصركم فرَّق الله بيني وبينكم . واعقبني بكم من هو خير لي منكم. لوددت ان لي بكل عشرة منكم رجلاً من بني فراس بن غنم صرف الدينار بالدرهم

وللحلي من ابيات كتب بها الى صديقٍ لهُ وعدهُ بالمساعدة في واقعة فاخلف :

وعدتَ جميلًا واخلفتَهُ ... وذلك بالحرّ لا يجملُ
وقلت بانَّك لي ناصرٌ ... اذا قابلَ الجحفلَ الجحفلُ
وكم قد نصرتكَ في معركٍ ... تحطّم فيهِ القنا الذُّبلُ
ولستُ امنُّ بفعلي عليكَ ... فاعجبُ بالقولِ او اعجلُ
بذا يتفاوتُ قدرُ الرجالِ ... فيعلمُ ايّهمُ الاكملُ
كما قالهُ الصقرُ في عزّةٍ ... بهِ حين فاخرهُ البلبلُ
وقال اراكَ جليسَ الملوكِ ... ومن فوقَ ايديهم تُحملُ
وانت كما علموا اخرسٌ ... وعن بعض ما قلتهُ تنكلُ
وأُحبَسُ مع انني ناطقٌ ... وقدريَ عندهمُ مُهملُ
فقال صدقتَ ولكنهم ... بذاك دروا انيَ الافضلُ
لاني فعلتُ وما قلتُ قطُّ ... وانتَ تقولُ وما تفعلُ

س ما هو الحلم

ج الحلم الطمأنينة عند سورة الغضب . وقد حدَّهُ ابن

سينا في كتاب علم الاخلاق : الامساك عن المبادرة الى قضاء الغضب فيمن يُجنى عليهِ جناية يصل مكروهها اليهِ. وقد يُسمَّى هذا كرماً وصفحاً وعفواً وتجاوزاً واحتمالاً وكظم غيظ

س كيف يخمد الخطيب سورة الغيظ ويدعو الى الحلم والتثبُّت

ج هذه ادعى الوسائل لحسم الغضب وكظم الغيظ (١):

اوَّلها الاقرار بالذنب لانهُ كما قيل : الاعتراف يزول بهِ الاقتراف . والمعترف بالجريرة مستحق للغفيرة . وقال ابن حازم :

اذا ما امرؤٌ من ذنبهِ جاء تائباً | اليك فلم تغفر له فلك الذنبُ

وهذه طريقةٌ طالما استعملها اهل الجنايات للاستغفار

قال ابو نواس يعتذر الى الفضل من ذنب :

اَقلني قد ندمتُ من الذنوبِ | وبالاقرار عدتُ عن الجحودِ
فاستدعيتُ عفوك من قريبٍ | كما استدعيت سخطك من بعيدِ
فان عاقبتني فبسوء فعلي | ولم تظلم عقوبة مستقيدِ
وان تعفو فاحسانٌ جديدٌ | سبقتَ بهِ الى شكرٍ جديدِ

ثانيها الإخبات والخضوع وذلك اذا كان الجاني دون المستعطف رتبةً وقدراً . او كان ذنبهُ عظيماً فعليهِ ان يتهضَّم نفسهُ ويستكين لذوي القدرة ذليلاً . كما فعل ابراهيم المهدي عند المأمون بعد عصيانه عليه فانشده :

اذنبتُ ذنباً عظيماً | وانت للعفو اهلُ

(١) ملخص عن كتاب احياء علوم الدين للغزالي

فان عفوتَ فمنٌّ وان جزيتَ فعدلُ

ثالثها ذكر الحلم وفضل كظم الغيظ على التشفي والانتقام كما قيل : ان افضل الاعمال الحلم عند الغضب . وقال الشاعر :

واصفح اذا اذنب مرءٌ عسى تلقى اذا اذنبت من يصفحُ

رابعها وصف ما يجنيهِ الحلم من الشكر والثناء والاسم المخلَّد . قال البحتري :

اذا انت لم تضرب عن الحقد لم تفز بشكر ولم تسعد بتقريظ مادحِ

خامسها حسن تبرّؤ الجاني من ذنبهِ . كما اذا ذكر صفاء مودَّتهِ وحسن نيتهِ في صنيعهِ وانهُ لم يأتِ ما اتى الَّا سهوًا ويدمج كل ذلك في الاسف على تغيظ المعاتب وابداء الرغبة في الرجوع عمَّا ساءهُ . وذلك كما كتب ابو المظفَّر اسامة بن مرشد الى ابيهِ وكان مغتاظًا عليهِ :

وما اشكو تلوّنَ اهلِ ودّي ولو اجدت شكيّتهم شكوتُ
مللتُ عتابهم ويئستُ منهم فما ارجوهمُ فيمن رجوتُ
اذا ادمت قوارصهم فوءادي كظمتُ على اذاهمُ فانطويتُ
ورحت عليهم طلق المحيّا كأني ما سمعتُ ولا رايتُ
تجنّوا لي ذنوبًا ما جنتها يداي ولا امرتُ ولا نهيتُ
ولا واللهِ ما اضمرتُ غدرًا كما قد اظهروهُ ولا نويتُ
ويوم الحشر موعدنا وتبدو صحيفة ما جنوهُ وما جنيتُ

سادسها انتهاز الفرص كيوم عيد ومجلس أُنس مع الاستعانة بمن يُشفَّعون . ومن ذلك ما فعلت استير مع احشورش

الملك وايغال مع داود . ولابي العتاهيــة ابيات ارسلها لموسى الهادي يستعطفهُ وكان الهادي جلس للشعراء فلم يجسر ابو العتاهية ان يحضر ناديهُ :

الا شافعٌ عند الخليفــة يشفعُ فيــدفعُ عنَّا شرَّما نتوقَّعُ
واني على عظم الرجاء لخائف كأنَّ على راسي الاسنَّة تشرعُ
يروّعني موسى على غير عثرةٍ ومالي ارى موسى من العفو اوسعُ
وما آمنٌ يُمسي ويصبح آمنــاً بعفو امير المؤمنين يروعُ

فرضي عنهُ وأمر بدخوله واجازهُ

ومن قبيل الحلم الرحمة وهي : رقَّة القلب على من حلَّ بهِ شيء من المكاره

س كيف يتوسَّل الخطيب الى تحريك الرحمة في القلوب

ج بأن يبسط الكلام في ما لحق المصاب من البلايا والخطوب مع ذكر الظروف التي تريدها فجعة وتأثيراً كمدتها وفظاعتها ذلك اذا كان المبتلَى من الاصحاب والانسباء او سيد قومهِ . ومن جيد ما جاء عن العرب في اثارة الرحمة قول البرَّاق في اخيه غرسان لمَّا قتلهُ العجم :

بكيتُ لغرسانٍ وحقٌّ لناظري بكاءُ قتيل الفرس اذ كان نائيا
بكيتُ على واري الزناد فتى الوغى م السريع الى الهيجاء ان كان عاديا
اذا ما علا نجداً وعرَّض ذابلاً وحمَّم بكرياً وهزَّ يمانيــا
فاصبحَ مغتالاً بارضٍ فجيعــةٍ عليها فتىً كالسيف فاتَ المجاريا
وقد اصبح البرَّاق في دار غربةٍ وفارق اخواناً لهُ ومواليــا
حليف نوىً طاوي حشىً ساهماً دماً يرجع عبراتٍ يهجن البواكيا
فمن مبلغٌ عني كريمة امهِ لتندب غرسان وبرَّاق ثانيــا

ثانيًا ان تبيّن انَّ مَن طرأت عليهِ المحن لم يكن ليستحقها وانما تحامل عليهِ دهرهُ ظلمًا . كما جاء في المقامات الحريريَّة على لسان غلام يستعطف سيدهُ ويرجوهُ الّا يبيعهُ :

لحاك الله هل مثلي يُباع كيما تشبعَ الكرشُ الجياعُ
وهل في شرعة الانصاف اني أُكلَّفُ خطةً لا تستطاعُ
وأن أُبلى بروعٍ بعد روعٍ ومثلي حين يُبلى لا يُراعُ
أما جرَّبتني فخبرت مني نصائح لم يمازجها خداعُ
وكم ارصدتني شركًا لصيدٍ فعدتُ وفي حبائليَ السباعُ
ونُطتَ بي المصاعبَ فاستقادت مطاوعةً وكان بها امتناعُ
وايُّ كريهةٍ لم أبلِ فيها وغنمٍ لم يكن لي فيهِ باعُ
وما ابدت لي الايام جرمًا فيكشفَ في مصارمتي القناعُ
ولم تعثر بحمد الله مني على عيبٍ يُكتَم او يُذاعُ
فأنَّى ساغ عندك نبذ عهدي كما نبذت بُرايتها الصَّناعُ
ولم سمحت قرونك بامتهاني وأن أُشرى كما يُشرى المتاعُ
وهلّا صنتَ عرضي عنهُ صوني حديثك يوم جدَّ بنا الوداعُ
وقلتَ لمن يساوم فيَّ هذا سكابِ فما يعارُ ولا يباعُ
فما انا دون ذاك الطِرف لكن طباعك فوقها تلك الطباعُ
على اني سانشد عند بيعي اضاعوني وايَّ فتىً اضاعوا

ثالثًا ان تأتي ببعض آثار تعرضها على مرأى السامعين فتعمل رؤيتها في قلبهم . كما لو اراد حمل القلوب على الاشفاق لفقير ان يظهر اطمارهُ ويري صغارهُ . او لقتيل فيعرض جثمانهُ مضرَّجًا بالدم ومثخنًا بالجراح وهلمَّ جرًّا . وجاء في المقامات البديعية على لسان الاسكندري مستعطيًا :

يا قوم قد اثقل ديني ظهري وطالبتني طلَّتي بالمهرِ

اصبحتُ من بعد غنًى ووفرِ ساكنَ قفرٍ وحليفَ فقرِ
يا قومِ هل بينكم من حرِّ يعينني على صروف الدهرِ
يا قومِ قد عيل لفقري صبري وانكشفت عني ذيول السترِ
وفضّ ذا الدهر بايدي البترِ ما كان لي من فضة وتبرِ
آوي الى بيت كقيد شبرِ خامل قدر وصغير قدرِ
لو ختم الله بخير امري اعقبني عن عسرٍ بيسرِ
هل من فتى فيكم كريم النجرِ محتسب فيَّ عظيم الاجرِ
ان لم يكن مغتنماً للشكرِ

رابعاً ومن اخص ما يهيج الرحمة في القلوب ان يلوح على وجه الخطيب ويؤخذ من كلامهِ ما عملت في نفسهِ فاجعة المُصاب. قال ابو تمَّام:

ومما كانت الحكماء قالت لسان المرء تبعٌ للفؤادِ

ومن الاقوال الآخذة باعنة القلوب الدالة على اتصاف قائلها بحسن التأثير ما ورد عن ابي فراس الحمداني وهو في الأسر يذكر امهُ:

لو لا العجوز بمنبجٍ ما خفتُ اسباب المنيَّهْ
ولكان لي عما سألتُ من الفدى نفسٌ ابيَّهْ
لكن اردتُ مرادها ولو انجذبت الى الدنيَّهْ
امست بمنبج حرةٌ بالحزن من بعدي حريَّهْ
فيها التقى والدين م مجموعان في نفسٍ زكيَّهْ
لا زال يطرق منبجاً في كل غاديةٍ تحيَّهْ
يا امتا لا تحزني وثقي بفضل الله فيَّهْ
يا امتا لا تيأسي لله الطافٌ خفيَّهْ
اوصيك بالصبر الجميل م فانهُ خير الوصيَّهْ

ولهُ ايضاً كتب بهِ لسيف الدين وقد بلغهُ علة والدتهِ:

يا حسرة ما اكاد احملها اخرها مُزعج واولها

عليلة بالشام مفردة بات بايدي العدى مُعلّلها
تمسك احشاءها على حرقٍ تطفئها والهموم تشعلها
اذا اطمأنت وأين أو هدأت عنتْ لها فكرة تقلقلها
تسأل عنّا الركبان جاهدة بادمع ما تكاد تهملها
يا سيدًا لا يعدُّ مكرمة الّا وفي راحتيهِ اكملها
انت سماءٌ ونحن انجمها انت بلاد ونحن اجبلها
انت سحاب ونحن وابلهُ انت يمين ونحن انملها
بأي عذر رددتَ والهة عليك دون الورى معولها
جاءتك تمتاح ردَّ واحدها تنتظر الناس كيف تقفلها
تلك العقود التي عقدتَ لنا كيف وقد احكمتَ تحللها
ارحامنا منك لا تُقطّعها ولم تزل دائبًا توصّلها
سمحتُ مني بمهجة كرمت انت على يأسها مؤمّلها
ان كنت لم تبذل الفداء لها فلم ازل في هواك ابذلها
تلك المودات كيف تهملها تلك المواعيد كيف تُغفلها
اين المعالي التي عُرفتَ بها تقولها دائبًا وتفعلها
يا واسع الدار كيف توسعها ونحن في صخرة نزلزلها
يا ناعم الثوب كيف تبدلهُ ثيابنا الصوف ما نبدّلها
يا راكب الخيل لو بصرت بنا نحمل اقيادنا وننقلها
رأيتَ في الضرّ اوجهًا كرمت فارق فيك الجمالَ اجملُها
قد اثر الدهر في محاسنها تعرفها تارة وتجهلها
لا يفتح الناس باب مكرمة صاحبها المستغاث يقفلها
اين يرى دونك الكرام لها وانت قمقامها وافضلها
فان سألنا سواك عارفة فبعد قطع الرجاء نسألها
لم يبق في الناس امة عُرفت الا وفضل الامير يشملها
نحن احق الورى برافتهِ فاين عنّا وكيف معدلها
يا منفق المال لا يريد بهِ الا المعالي التي يؤثّلها
اصبحت تشري مكارما فضلا فداؤنا ما علمتُ افضلها
لا يقبل الله قبل فرضك ذا نافلة عندهُ تنفّلها

أَلأَصْلُ ٱلثَّانِي

التنسيق

س ما هو التنسيق

ج التنسيق في اللُّغة التنظيم والترتيب . وفي الاصطلاح هو عبارة عن انتظام معاني الخطابة . وسياق اجزائها . وسرد ادلّتها على طريقة نظام واحد

س ما المقصود من التنسيق

ج المقصود منهُ ان يُحكَم تركيب الخطبة وارتباطُ اقسامها بحيث تكون ابيَن غرضاً واحسن وقعاً في النفوس

س ما شرف التنسيق

ج ان التنسيق من اعظم اركان البلاغة . وقد حدَّ بعض الاقدمين البلاغة : تصحيح الاقسام . فهي بمنزلة المصافّ في العسكر . فلا نصرة لجيش لم يرعَ حسن النظام . وكذلك لولا ترتيب الخطبة لما اصغى السامع الى كلام الخطيب او ما ادرك الموضوع الّا بعد الجهد الجهيد فلا يتحرَّك من ثم لمقالهِ مهما كان بليغاً

س كم قسماً للخطبة

ج قد اختُلف في تقسيم الخطبة . فمنهم من قسمها

الى سبعة اقسام هي: الفاتحة والقضيَّة والتقسيم وايضاح المقصد والاثبات وردّ الخصم والخاتمة . ومنهم من زاد على ذلك ومنهم من نقص . وانما مرجع هذهِ التقاسيم الى ثلاثة اشياء: المقدمة والاثبات والخاتمة

الباب الأوَّل
في المقدمة

س ما هي المقدمة

ج هي فاتحة الكلام ومرجع فحواه

س ماذا تقتضيهِ المقدمة

ج لمَّا كانت المقدمة بمثابة الاساس من البناء والرأس من الاعضاء لزم الخطيب ان يصرف العناية في تطريز بردتها وحياكة لحمتها

س ما هي اغراض الخطيب في المقدمة

ج للخطيب ثلاثة اغراض في المقدمة

الأوَّل ان يستجلب الخواطر ويؤلف القلوب .وهذا يؤْخذ من حسن الافتتاح

الثاني ان يطلع السامعين على ما يريدهُ منهم اجمالًا وذلك يُستفاد من بيان المقصد

الثالث ان يرغّب اليهم الاستماع ويحملهم على الاصغاء والاذعان لما يقول . ومرجعهُ الى تقسيم الخطاب

البحث الاوَّل

حسن الافتتاح

س ما هو الافتتاح

ج هو مطلع الكلام في الخطبة

س ما هي آداب الابتداءات في الخطابة

ج قال ابن الاثير : قد خُصَّ الافتتاح بالاختيار لانَّهُ اوَّل ما يطرق السمع من الكلام (١) . وللابتداء آداب على الخطيب ان لا يتعدَّاها . منها سهولة اللفظ وصحَّة السبك ووضوح المعنى وتجنب الحشو . فان كان كذلك توفَّرت الدواعي على استماعهِ

س كيف اعتاد العرب ان يفتتحوا خطبهم

ج ان خطباء العرب يفتتحون خطبهم بالحمد لله . لان النفوس تتشوق الى الثناء عليهِ تعالى . ثم يردفون بالسلام على انبياء الله واصفيائهِ (٢) . كقول ابن نباتة الخطيب :

الحمد لله فاتح ابواب الرحمة لمن طرقها ، وموضح مناهج السعادة لقلوب وفَّقها ، وقابل الحمد من السنةٍ انطقها ، وشاكر البذل من يدٍ هو الذي نولها ورزقها ، بالخير يجازي من هاجر الى سعة بابهِ وكرمهِ وحلمهِ ، احمدهُ على ما انعم ،

---

(١) عن المثل السائر (٢) القلقشندي

واشكرهُ على ما الهم ، واستعينهُ واستغفرهُ وأومل بهِ واتوكل عليهِ ، واستهدي الله بالهدى ، واعوذ بهِ من الضلالة والردى ، ومن الشك والعمى ، من يهدي الله فهو المهتدى

س ما براعة الاستهلال

ج هو ان يكون الابتداء لائقاً بالمعنى الوارد اعني ان يأتي الخطيب في صدر الخطبة بما يدل على المقصود منها . فيكون الافتتاح مرتبطاً مع الخطبة ارتباط الرأس بالجسد ومتشققاً كما تتفتح الانوار عن اكمامها . وذلك كقول ابن الحديثي في استهلال خطبة القاها يوم عيد البشارة عن يوحنا المعمدان قال :

الحمد لله مشرّف من يصطفيهِ لطاعتهِ بلطيف حبائهِ ، ومبهج مَن يختاره لخدمتهِ بشريف ارعائهِ ، وملبس من يجتبيهِ لنعمتهِ سرابيل جبائهِ ، ومُحلّي اجياد الواقفين على سرائر حكمتهِ بنفائس نعمائهِ ، الذي ارسل من سرادق الوهيتهِ ملكاً قدسياً الى زكريائهِ ، مبشراً لهُ بوم عيد الغفران بيوحنائهِ ، ليمضي امام الرب بأيدهِ العلويّ وروح إيليائهِ ، ليبشّر بالحياة الابدية الساكنين تحت ظلال الموت وأفيائهِ ، نحمدهُ حمد المخلصين في طاعتهِ وحسن ولائهِ ، ونشكرهُ على ما اسدى الينا من جزائل صنائعهِ وآلائهِ

وكقول يشوعياب الدنيسري :

الحمد لله الذي خارت عن اداء مدحهِ فصحاء الالسن وبلغاء الاخبار، وحارت في عظمتهِ عقول ذوي النقول واولو العقول النضار ، وحامت على ادراكهِ لطائف معارف ذوى النباهة والنظّار، وخامت عن عرفان صفاتهِ دقائق صوادق الافكار، المستتر باظلال اجلال مجدهِ عن ملامح لوامع الابصار ، والمتقب بنقاب اثواب البهاء وحجاب ابواب الوقار ، الذي احّد ماهيتهُ بانّيتهِ ، وتعالى على ان يكون وجودهُ زائداً على ماهيتهِ ، لا يُبحث عن وجود ذاتهِ بالهَليّة ، ولا يدخل توحيدهُ تحت المقدار والكميّة ، لا يُسأل عن مكانهِ بالاينيّة، ولا عن دهورهِ وآزالهِ بالمتائيّة، ولا تدرك آثار قدرتهِ بالبصائر الفهميّة ، تفرّد بشرف الابوّة فهو بها علّة العلل ،

وتصمّد بقدس البنوّة فهو بها موصوف في القِدم والازل، وتخصّص بروحهِ القدسيّة التي لم يخلُ عنها ولم يزل، صفاتٌ تعالت عن الشبيه والنظير والمثل، تأحّد بذاتهِ البسيطة القدسية، وتثلّث باقانيمهِ وصفاتهِ الجوهريّة، سبق الموجودات بوجود الوجود، وجلّ بساطتهِ عن المعرّفات من الرسوم والحدود، غاير المبدَعات والمصنوعات بالقدم والازليّة، وباين المخلوقات والمكونات بتوحيد الذّات وتثليث الصفات العليّة، فسبحانهُ وحدهُ لا شريك لهُ يحاكيهِ في سلطان جلالهِ، ولا نظير لهُ يضاهيهِ في عز جمالهِ وكمالهِ، نحمدهُ حمد منصوب لإداء فعل حمد آلائهِ المتتابعة، ونشكرهُ شكر مديمٍ لشكر منحهِ ونعمائهِ المتهاطلة

(فائدة) اعلم ان براعة الاستهلال من اخص اسباب البلاغة في الخطابة اذ بها يستعطف خواطر المستمعين ويمهد لِقضيَّتهِ الطريق بحيث تقع عندهم بموقع الاستحسان والقبول

س ماذا يُستهجن في افتتاحات الخُطب

ج يستهجن فيها: اولًا ان تكون مسهبة مستطيلة فيضجر السامع لطولها

ثانيًا ان تكون مبتذلةً مشاعة بحيث تصلح لكل خطبةٍ . وهذا كثير في دواوين خطباء العرب . ومن ذلك قول البولاقي في بدء خطبة لشعبان :

الحمد لله اللطيف الصنع الجميل العوائد . باسط يد الاحسان والغفران لكل عائد . فما من مخلوق الّا من ثمار احسانهِ اقتطف . ولا رجع اليهِ مذنب الّا وقبلهُ . وغفر لهُ قبيح ما عملهُ . وعليهِ بعواطف احسانهِ عطف

فان هذا وامثالهُ مع انهُ حسن النسج شائع عام يمكن ان تصدَّر بهِ ايّ خطبة كانت

ثالثًا ان لا توافق الموضوع فتكون قلقة غير ملتحمة معهُ

س ما هي موارد الافتتاحات

ج ان للافتتاحات موارد كثيرة هذه اخصها:

اولًا تُستهل بحكمةٍ أو مثَل أو ببعض اقوال للمتقدمين كما فعل ناثان لما دخل على داود الملك يبكتهُ على خطيئتهِ فانهُ افتتح خطابهُ لهُ بمثَل غنيّ ظالم وفقيرٍ مظلوم فكان لخطابهِ حسن وقعٍ وقبول وجاء ايضاً في قصة جُلَيعاد الملك على لسان وزيرهِ ما نصهُ :

ايها الملك قد تقدم من قول المتقدمين انَّ من صلَّى وصام وقام بحقوق الوالدَين وعدل في حكمهِ لقيَ ربَّهُ وهو راضٍ عنهُ. وقد وليتَ علينا ايها الملك فعدلتَ فكنت في ذلك سعيد الحركات ...

ثانيًا وربما ابتدأ الخطيب بعرض قضيتهِ او ذكر الواقع كما قال الاحنف وكان وفد في اهل البصرة الى عليّ يطلبون منهُ ان يحفر لهم نهرًا عذبًا :

يا امير المؤمنين ان مفاتيح الخير بيدَي الله وقد اتتك وفودُ اهل العراق . وان اخواننا من اهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازل الامم الخالية والملوك الجبابرة منازل كسرى وقيصر وبني الاصفر فهم من المياه العذبة والجنان المختلفة في مثل حِوَلاء السَّلى وحدقة البعير تأتيهم ثمارهم غضةً . وانا نزلنا نشاشة لها طرَف في فلاة وطرَف في ملح اجاج جانب منها منابت القصب وجانب سبخة نشاشة لا يجفّ ترابها ولا ينبت مرعاها تأتينا منافعها في مثل مري النعامة . يخرج الرجل الضعيف منا يستعذب الماء من فرسخين وتخرج المراة بمثل ذلك ترنّق ولدها ترنّق العتر تخاف عليهِ العدو والسبع. فالّا ترفع خسيستنا وتنعش ركيستنا وتجبر فاقتنا وتزيد في عيالنا عيالًا وفي رجالنا رجالاً وتصغر درهمنا وتكبر قفيزنا وتأمر لنا بحفر نهر نستعذب بهِ الماء هلكنا

ثالثًا وقد يبتدئ الخطيب بذكر قول خصمهِ او عرض

القضيَّة المخالفة لما حاول تقريرهُ أو بذكر القضية على الوجه العام قبل ان ينتقل الى تخصيصها . كقول عليّ وقد استهل خطابهُ بنعت الرجل الصالح المتعبد :

انَّ من احبِّ عباد الله اليهِ عبداً اعانهُ الله على نفسهِ فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف . فظهر مصباح الهدى في قلبهِ . وأعد القرى ليومهِ النازل بهِ . فقرَّب على نفسهِ البعيد وهوَّن الشديد . نظر فابصر . وذكر فاستكثر . وارتوى من عذب فرات . سهلت لهُ مواردهُ فشرب نهلًا . وسلك سبيلًا جددًا . قد خلع سرابيل الشهوات . وتخلى من الهموم الَّا همّاً واحداً انفرد بهِ فخرج من العمى . ومشاركة اهل الهوى . وصار من مفاتيح ابواب الهدى . ومغاليق ابواب الردى . قد ابصر طريقهُ وسلك سبيلهُ . وعرف منارهُ . وقطع غمارهُ . استمسك من العرى بأوثقها . ومن الحبال بامتنها . فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس . قد نصب نفسهُ سبحانه في ارفع الامور من إصدار كل وارد عليهِ وتصيير كل فرع الى اصلهِ

رابعاً وكثيرًا ما تؤخذ معاني الافتتاحات من احوال الخطيب والسامعين او من ظروف الزمان والمكان . فان ما يأتي بهِ لسان الحال امتع في النفوس واعطف للخواطر . ومثل ذلك قول الرسول بولس في خطبتهِ امام محفل اريوس باغوس في اثينا :

يا رجال اثينا اني ارى انكم في كل شيء تغلون في العبادة. لاني في مروري ومُعاينتي لمناسككم صادفت مذبحاً مكتوباً عليهِ : للاله المجهول. فهذا الذي تعبدونهُ وأنتم تجهلونهُ بهِ انا أُبشركم. ان هذا الاله هو الذي صنع العالم وجميع ما فيهِ لكونهِ رب السماء والارض لايحل في هيا كل مصنوعة بالايدي . ولا تخدمهُ ايدي البشر كانهُ محتاج الى شيء اذ هو يعطي للجميع حياةً ونفساً وكل شيء ...

ولهُ ايضاً يوم احتجَّ امام اليهود وكانوا قد قبضوا عليهِ ليقتلوهُ :

ايها الرجال اخوةً وآباء اسمعوا احتجاجي الان عندكم . (فلما سمعوهُ يخاطبهم باللغة العبرانية ازدادوا هدوءًا) فقال : اني رجل يهودي ولدتُ في طرسوس

كيليكية لكن ربيتُ في هذه المدينـة وتأدّبت لدى قدمَي جمليئيل على حقيقـة الناموس الابدي وكنت غيورًا لله كما انتم جميعكم اليوم . وقد اضطهدتُ هذه الطريقة حتى بالموت مقيدًا ومسلّماً الى السجون رجالًا ونساء . كما يشهد لي رئيس الكهنة وجميع الشيوخ الذين اخذت منهم رسـائل الى الاخوة وانطلقت الى دمشق لآتي بمن هناك الى اورشليم موثّقين ليعاقبوا . . .

س كم نوعًا الافتتاحات

ج اربعة :

الساذج . والجزل . والبديهي . والملوّح او المعرّض

س ما الافتتاح الساذج

ج هو مـا اخذ شرح الموضوع دون تكلُّف . وهو أحرى بالخطب العاديّة ومحافل الادب ومجالس التشـاور والعظات . كقول الذهبيّ الفم في مطلع خطبةٍ مرتّبة على مثَل قاضي الظلم :

ان سيدنا لهُ المجد لاجل رأفتهِ واشفاقهِ علينا يحثنا على ما فيه خلاصنا فيطلب منّا ان نصلي دائمًا ونطلب نعمتهُ طلبًا متواترًا لتكون رحمته لنا واحسانه علينا بطريق الاستحقاق . ويضرب على ذلك لنا الامثال بقاضي الظلم والملتمس الخبز من صديقهِ بالحاحٍ وتكرارٍ وغير ذلك . ويُنهض عزمنا ويضرم نار شوقنـا ويبكت نفوسنا المتراخية في حقيقة الطلب . ويقول اذا كان هذا القاضي الظـالم الزمني الآخذ بالوجوه المرتشي في الاحكام البعيد عن الخوف من الله وعن الحياء من الناس لما اضجرتهُ بالإلحاح وتكرار الطلب تلك المرأة الارملة الخالية من الحقوق الموجبة الانتقام من خصمها .قام لها هذا الالحاح مقام الرجال والمالــ وكانت كانها اجبرت حاكم الارض على الانتقام من غريمهـا . فكيف لا يعطينا ملك الملوك الحاكم على جميع البـرايا جميع مطلوباتنا اذا كـنّا نسـألهُ دائمًا باجتهادٍ

وكقول ابي بكر يوم بويع لهُ بالخلافة :

ايها الناس اني قد وليتُ عليكم ولست بخيركم فان رأيتموني على حق فاعينوني وان رأيتموني على باطل فسددوني. أطيعوني ما اطعت الله فيكم فاذا عصيتهُ فلا طاعة لي عليكم . الّا ان اقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق لهُ واضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منهُ . اقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم

س ما الافتتاح الجزْل

ج هو ما كان انيق اللفظ شريف المعنى يزينهُ حسن التعبير ورونقهُ وهو يصلح للظروف الخارقة العادة والمواقع الشريفة اذ يتوقع الجمهورُ ما يترجم عن عظائم الامور

كقول ابي بكر يوم موت محمد :

ايها الناس انهُ من كان يعبد محمدًا فان محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حيٌّ لا يموت

وكقول عبد الله بن زبير لمَّا بلغهُ قتل اخيهِ مُصعب فحمد الله وسكت وجعل لونهُ يحمرّ مرَّة ويصفرّ اخرى واشتدَّ عليهِ ذكر مقتل سيد العرب ثم تكلم فقال :

الحمد لله لهُ الخلق والامر والدنيا والآخرة. اللهمَّ تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء . وتُعزّ من تشاء . وتذل من تشاء . امَّا بعد فانه لم يعزّهُ الله من كان الباطل معه وان كان معهُ الانام طرًّا ولم يذلّ من كان الحق معهُ وان كان فردًا . ألَا وانَّ خبرًا من العراق اتانا فأحزننا وافرحنا . فأما الذي احزننا فإن لفراق الحميم لوعة يجزنها حميمها. ثم دعوى ذوي الالباب الى الصبر وكريم العزاء . واما الذي فرحنا فان قتل المصعب لهُ شهادة ولنا ذخيرة اسلمهُ النعام المصالم. ألا وان اهل العراق باعوه بأقل من الثمن الذي كانوا يأخذون منه . فإن يُقتل فقد قُتل اخوهُ وابوهُ وابن عمه وكانوا الخيار الصالحين . انَّا والله لا نموت حتفًا ولكن قصفًا بالرماح وموتًا تحت ظلال السيوف ليس كما يموت بنو مروان. ألا انما الدنيا عارية من الملك

ألّا على الذي لا يبيد ذكر هؤلاء ولا يذل سلطانهُ .فان تُقبل الدنيا عليَّ لم آخذها آخذ الأشِر البطر وان تُدبر عني لم ابكِ عليها بكاء الخرِق المهين

س ما هو الافتتاح البديهيّ

ج هو ما اصاب مسامع الحضّار على غرارة دون توقُّع وابرز عن حميم العواطف ومقامهُ المواقع الباغتة والطوارئ المفجعة

كقول صالح بن عليّ لاهل المدينة . وكانوا قد استصغروا همتهُ :

يا اعضاد النفاق وعبيد الضلالة أغركم لين اساسي وطول ايناسي حتى ظنَّ جاهلكم ان ذلك لفلول حدٍّ وفتور جدّ وخور قناة كذبت الظنون انها العترة بعضها من بعض . فاذا قد استوليتم العافية فعندي فطام وفكاك وسيف يقدّ الهام

وكقول الذهبي الفم في استهلال خطبةٍ القاها في قول الانجيل : انسان غنيّ اخصبت كورتهُ :

يا للعجب ان الذين يريدون السفر الى البلاد الغريبة يقطعون علائق الاقامة بها ويكونون دائماً متأهبين مشمّرين مستعدين للرحيل عازمين على الانتقال الى بلادهم . فتراهم يبيعون الاثقال ويقايضون بالامتعة ويعدّون الزاد والمهمات اللازمة للسفر . ونحن المؤمنين بالموت والقيامة والحساب والمجازاة نوجد هكذا متعلقين بالاموال منهمكين في جمعها وتكثيرها ومهتمين بتحصيل اللذّات العالمية . وكيف تقول ياهذا ان القيامة سوف تقوم وان الناس يُحاسبون على اعمالهم وانت مغتبطٌ بمحاسن الحطام الدنيوي متمسكٌ بازمّة الاباطيل الزائلة متعبدٌ للذّات الفاسدة والشهوات الخبيثة

س ما الاستهلال الملوّح او المعرِض

ج الملوّح في اللغة خلاف المصرّح وكذلك المعرض وهو في الاصطلاح ما يخرج مخرج الكناية والتلويح يأتي بهِ الخطيب اذا احتاج الى استعطاف خواطر الجمهور النافرة او

كان المقصود عسر الخطة بعيد المتناول كقول الاناء المصطفى لما احتجَّ امام اغريبا الملك وقد عمد الى ملتمسه بافتتاح لطيف :

اني احسب نفسي سعيداً ايها الملك اغريبا لاني احتج اليوم امامك عن كل ما يشكوني بهِ اليهود ولاسيما وأنت خبيرٌ بكل ما لليهود من سُنن ومسائل فلهذا اسألك ان تسمع لي بطول الاناة. انَّ سيرتي منذ صباي التي من البدء كانت لي بين امتي باورشليم يعرفها جميع اليهود الذين عرفوني من الاول لو ارادوا أن يشهدوا اني قد عشت فريسياً على مذهب ديننا الاقوم . والآن واقف أُحاكَم على رجاء الوعد الذي سبق من الله الذي يؤمل اسباطنا الاثنا عشر البلوغ اليهِ متعبدين بالمثابرة ليلًا ونهاراً فبهذا الرجاء شكاني اليهود ايها الملك أفيحسب عندكم غير مصدق أن الله يقيم الاموات...

س اي طبقة من الانشاء اولى بافتتاح الخطب

ج ان الانشاء الساذج هو الخصيص بالافتتاحات وقد قال القدماء : كل شيء يبدو صغيراً ثم يكبر وينمو . وزد على ذلك ان السذاجة في الاستهلال أدعى الى ثقة السامع بالخطيب لاسيما في خطب المحاكمات والتشاور والعظات

وقد استثنوا من ذلك الافتتاحات الجزلة والبديهية فانها تستلزم زخرفة الكلام وبراعة الانشاء

البحث الثاني
في بيان المقصد

س ما هو بيان المقصد

ج هو قسم المقدَّمة فيهِ يظهر الخطيب يبني ما عليهِ كلامهُ

س كم هي الصفات الملائمة لبيان المقصد

ج اربع :

الاولى ان يكون مترتبًا على قضيَّة واحدة ليس الّا كما لو اردتَ ان تبني الكلام على العدل فانك تقول: ان احسن الرعايا من كان ملكهم عادلًا وشرُّهم من كان ملكهم جائرًا

الثانية ان يكون واضحًا لأنَّ الغرَض اذا كان بعيد المأخذ اعتاص على السامع فتبرَّم منهُ . فان جعلت كلامك على حُسن الخلق قلت : مَن ساء خلقهُ تنكَّدت معيشتهُ . او تقول في شرف العقل : خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل

الثالثة ان ينشط السامعين بابتكار صورتهِ ولطيف مخرجهِ قولك في كثرة خطوب الدهر مع مَن قال: الليل والنهار غرسان يثمران للبريَّة صنوف البلية . او مع غيرهِ : زوايا الدنيا مشحونة بالرزايا . او مع الشافعي :

مِحن الزمان كثيرةٌ لا تنقضي وسرورهُ يأتيك كالأعيادِ

الرابعة ان تعود اليهِ بقيَّة اقسام الخطبة لانهُ كما قيل : الخروج عمَّا بُني عليهِ الكلام اسهاب

س هل ينبغي اظهار المقصد دائمًا

ج كلَّا فانهُ رُبَّما اخفاهُ الخطيب لعلَّةٍ وذلك اذا كان الغرض بيِّنًا جليًّا او اذا كان ثمة سببٌ يدعو للايماء اليهِ لئلا

يثير السامع من ايراده كما فعل رسول الامم في خطبتهِ الى اهل انطاكية بسيدية فانهُ ادرج المقصود في اثناء خطبتهِ ولم يصرّح بهِ الّا في آخر الكلام فقال :

يا رجال اسرائيل والذين يتقون الله اسمعوا ان اله هذا الشعب اختار آباءنا وعظّم الشعب في غربتهِ في ارض مصر واخرجهم منها بذراع رفيعة واحتمل اخلاقهم مدَّة اربعين سنة في البرية واستأصل سبع امم في ارض كنعان وقسم لهم ارضهم بالقرعة بعد نحو اربع مئة وخمسين سنة وبعد ذلك اعطاهم قضاة الى صموئيل النبي · وبعده سألوا ملكاً فاعطاهم الله شاول بن قيس رجلاً من سبط بنيامين مدة اربعين سنة ثم عزلهُ ورفع داود ملكاً عليهم الذي شهد لهُ قائلاً : اني وجدت داود بن يسّى رجلاً على حسب قلبي يعمل بمشيئتي كلها ومن نسل هذا اقام الله يسوع لاسرائيل مخلصاً بحسب الوعد. وقد سبق يوحنا فكرز امام مجيئهِ بمعمودية التوبة لجميع شعب اسرائيل ولما بلغ يوحنا قضاء سعيهِ قال: الذي تحسبون انا هو لست انا به ولكن هوذا ياتي بعدي من لا استحق ان احل حذاء رجليهِ. ايها الرجال الاخوة بني ذريَّة ابرهيم ومن يتقي الله بينكم اليكم ارسلت كلمة هذا الخلاص لان الساكنين في اورشليم ورؤساءهم من حيث انهم لم يعرفوه تمَّموا بالقضاء عليهِ اقوال الانبياء التي تتلى في كل سبتٍ. ومع انهم لم يجدوا عليهِ علَّة للموت طلبوا من بيلاطوس ان يُقتل ولما اتموا كل ما كتب عنهُ انزلوه عن الخشبة وجعلوه في قبر لكن الله أقامهُ من بين الاموات وتراءى اياماً كثيرةً للذين صعدوا معهُ من الجليل الى اورشليم وهم شهوده الان عند الشعب

(فائدة) ولبيان المقصد اسماء غير هذه عند العرب. وربما سموه بالسمة. جاء في شرح التهذيب : السمة هي عنوان الخطاب ليكون عند الناظر اجمال ما يفصلهُ الغرض

البحث الثالث

في تقسيم الخطاب

س ما التقسيم

ج هو في اللغة مصدر قسَّمتُ الشيء اذا جزَّأته . وفي الاصطلاح هو استيفاء المتكلّم اقسام المعنى الذي هو آخذ فيهِ (١) كقول بعض الحكماء :

الدنيا تطلب لثلاثة اشياء للغنى والعزَّة والراحة . فمن قنع استغنى ومن زهد فيها عزّ ومن قلَّ سعيهُ استراح

س ما هي فوائد التقسيم في الخطبة

ج للتقسيم فوائد كثيرة منها ما يعود الى نفس الخطيب من حيث انهُ ينكبّ بهِ عن الهذر والشرود عن المقصود وتكرار المعاني . ومنها ما يؤُول الى فائدة السامعين لان تفصيل الخطاب يمكّنهم من ادراك الموضوع ويروّح خاطرهم . هذا الى ان التقسيم يفيد الخطبة حُسنًا وايضاحًا

س كم هي صفات التقسيم الحسن

ج اربع

(١) ابن ابي الاصبع

الاولى ان تكون القسمة مستوية شاملة لجميع الانواع لايخرج عنها جنسٌ من اجناسهِ وعليهِ فقد اخطأَ ابو الفتح البستي بقولهِ :

امور الدنيا تدور على شيئين رفق القلم وخرق السيف

ألا ترى ان امور الدنيا تدور على اشياء كثيرة غير هذه. ومثلهُ قول الببغاء : اشد امور الدنيا واصعبها محاربة العدو وركوب البحر

فان الشدائد في الدنيا اكثر من ان يفي بها احصاء.

الثانية ان تكون الاقسام متباينة لايدخل بعضها في بعض وعليهِ فقد اخطأَ من قسم الحيوان الى ناطق وذي حس فان الناطق هو ايضاً ذو حسّ . وقد ردُّوا على ابن القرّيَّة قولهُ في تقسيم الناس

ان الناس ثلاثة عاقل واحمق وفاجر

لان الفاجر يجوز ان يكون عاقلًا او احمق . وكذلك قول يحيى بن خالد في الصديق : الصديق لامرين اما ينفع واما يشفع

فان الشفاعة من المنافع

الثالثة ان تكون واضحة يتلقاها عقل السَامع بسهولة لترسخ في ذهنهِ كقول محمد ابن زكريّا في منافع الطب وقد استوفى :

الطب شيئان حفظ الصحَّة وبرءُ العلَّة

الرابعة ان تكون موجزة مبتكرة كقول الحسن فانهُ قسم واوجز واصاب :

الناس ثلاثة فرجلٌ رجلٌ . ورجلٌ نصف رجل . ورجلٌ لا رجل . فاما الرجل فذو الرأي والمشورة . واماَّ نصف الرجل فالذي لهُ رأي ولا يشاور واما الذي ليس برجل فالذي لارأي لهُ ولا يشاور

س اذكر بعض شواهد في حسن التقسيم

قال خوارزم شاهُ مأمون بن مأمون في دواعي المحبة

ثلاثة تورث المحبة: الادب والتواضع والدين

وقال المأمون بن الرشيد :

الاخوان على ثلاث طبقات فطبقة كالغذاء لا يستغنى عنهُ. وطبقة كالدواء يحتاج اليه احياناً. وطبقة كالداء لايحتاج اليهِ ابدًا

وقال عليٌ :

ثلاثة هي افضل ما يورث الاباء الابناء : الثناء الحسَن والادب الصالح والاخوان الثقات

وكقول آخر في قصر الزمان :

انما هذه الحياة متاع والسفيهُ الغويُّ من يصطفيها
ما مضى فات والمؤمَّل غيب ولك الساعة التي انت فيها

وكقول الخليل بن احمد في العالم والجاهل :

الناس اربعة : رجلٌ يدري ويدري انهُ يدري فذلك عالم فاسألوه. ورجل يدري ولا يدري انهُ يدري فذلك ناسٍ فذكروه . ورجلٌ لايدري ويدري انهُ لايدري فذلك مسترشد فارشدوه . ورجلٌ لا يدري ولا يدري انهُ لا يدري فذلك جاهل فاحذروهُ

ولأبي نصر المقدسي في توابع الموت :

الموت اربعة : الفراق . ثم الشماتة . ثم الذل . ثم الخروج من الدنيا

وليونس النحوي في انواع السكر :

السكر خمسة : سكر الشباب . وسكر الشراب . وسكر المال . وسكر العشق . وسكر الولاية

(وقد نظمهُ شاعر فقال:)

* سكرات خمس اذا مُني المرءُ بها صار عرضه للزمانِ

سكرة المال والحداثة والعشق م وسكر الشراب والسلطان

وربما الحقوا ببيان المقصد والتقسيم تعزيزًا لهما ورغبةً في الايضاح ذكر الواقع وذلك اذا كان المقصد مبنيًا على نفس الحادث لا على قضية عقلية . وتسمى هذه الرواية الرواية الخطابية

البحث الرابع

في الرواية الخطابية

س ما الرواية الخطابية

ج الرواية الخطابية ما روت امرًا واقعيًا على طريقةٍ مناسبة لغاية الخطيب

س ماهي سِمة الرواية الخطابية

ج انما تمتاز الرواية الخطابية عمّا سواها من حيث غايتها ومن حيث وسائلها . فامّا غرضها فهو ان تمهد الطريق لاقناع الجمهور . واما وسائلها التي تستخدمها لبلوغ غايتها فهي الاسترسال في الظروف الملائمة لمقصود الخطيب والإعراض عما سواها . او اذا لم يكن للخطيب مندوحة عن ذكر ما يخلّ بمقصوده فيتلطف بايراده ويخرجهُ بصورةٍ تلائِم بغيتهُ

س كم نوعًا الرواية الخطابية

ج الرواية الخطابية نوعان إمّا إخبارية واما قضائية

س ما الرواية الاخبارية

ج الرواية الاخبارية هي ما جيء فيها بقصص الخبر بلاغاً الى نتائج عملية ووصلةً الى اثبات قضية. ومثل ذلك رواية ابي الحليم في عظتهِ عن توبة المجدلية :

ما قرع اليوم اسماعكم من قصَّة مريم الخاطئة وشمعون المعتزلي. قد اورده لوقا الرسولي السمائي بالقول الواضح الجلي. انظروا الى الرحمة المسيحية ما اوفرها. والى فرط عنايتهِ بالخاطئين ما اغزرها وا كثرها. قدمت الخاطئة من تيه الضلال. وأرست سفينة رجائها في مينا القدس ومعدن الافضال. مزّقت عنها ملابس الخطيئة والآثام. وألقت عن كاهل قلبها ثقل الذنوب والاجرام. حقَّقت العزم على ان تتوب. وان تخرج الى دارة الطاعات من خطّة المعاصي والذنوب. هجمت على منزل المعتزلي. رأت من خلال ستور الناسوت نور الازليّ. خرّت ساجدةً بين يديهِ كزهرة ذاوية وغصن ذابل. أتت كجريح مضرَّج بالدماء. قد انكأت في جسدهِ اللهاذم والذوابل. فلما حدَّق اليها استلمحت من اسارير وجههِ آثار الرضاء. وأيقنت من بشرِ محيَّاه بحصول الغرض وقوَّة الرجاء. رآها بجلاليب التوبة حاليه. وهمتها عن شهوات الاجساد عاليه. علم انها مثل كرمة كانت تحمل الاشواك والخرنوب. وقد نثرت عن اغصانها اوراق المعاصي وعناقيد الذنوب. رآها كنعجة مضلالة قد خطفها سبع الخطيئة بمخاليبهِ. واخرجها الشيطان عن نهج الهدى وأركبها اوعار اساليبهِ. رقَّ لها القلب الشريف. وفاضت منابع الرحمة على العضو الضعيف. أباحها الاقدام على لثم اقدامهِ. وجذبها من اساليب الضلال بكلاليب كلامهِ. قامت على قدم العزم مجدَّةً في اجتذاب النعمة. قارعة بمطارق التوبة القلبية باب الرحمة. ثبّت في قلبها نار الخشوع. وقطرت من غمائم عينيها سحائب الدموع. ايقنت ان ذنوبها مصفوحة. وأبواب الخدور الملكوتية امامها مفتوحة. غسلت بدموعها رجليهِ بأقذار الخطيئة لم تدنّسا. وسكبت الدهن الثمين على قدمي لم يزل بالقدس مقدساً نشفت بضفائر شعرها اقدامهُ. عفّرت أوراد الخدود امامه. ايقنت ان الشفاء عنده موجود. كشفت معضل دائها الى ساعور

بيمارستان الوجود. أبرز لها من خزانة الرحمة شراب الغفران . وقال انكِ كنتِ ميتة بالخطية وقد حييتِ الان بالايمان . فلما ان سمع المعتزلي هذا الخطاب . وما ابداه للمرأة الخاطئة من حسن الجواب . خامر فكره الشكّ في السيد والارتياب. قال في نفسه: لو ان هذا رجل له رتبة النبوة . وهو ممدود من الله بالأيد والقوّة . لقرأ صحيفة قصتها بالفجور من عنوانها . وعلم ان الدانية اليه خاطئة وفعل الخطأ من شانها . اضلهُ ما رآه من ظواهر الناسوت . لم يعلم انهُ سكينة الاسرار وحجاب اللاهوت . لم يعدهُ المعتزلي لخاص الكل الّا من الطبقه البشرية . ولا علم انهُ أعطي كل سلطان في السماء وهو باري البرية . يا شمعون انت ظننتهُ نبياً يعلم الاسرار والغيوب . وهذه ايقنت انهُ قادر على غفران الخطايا والذنوب . يا شمعون انتَ خلتَ انهُ شخص مجرَّد عن اللاهوتية انسيّ . وهذه الخاطئة آمنت انهُ اله موشح بالناسوت قدسي . انت احببت قليلًا فاخذت اجرًا يسيرًا . وهذه احبّتهُ كثيرًا فاخذت من خزائن ملكهِ جزءًا غزيرًا . ثم ضرب لهُ بصاحب الدين المثال . ليرده الى نهج الحقائق من طرق الضلال. واخذ في تبكيتهِ بذلك وقطع الكلام. ثم قال لتلك المرأة : ايمانكِ احياكِ فاذهبي بسلام . فانكفأت وايمانها مشكور . وذنبها باخلاص نيتها معفور ، فانظروا ايها المؤمنون الى هذه القصة بعين الاعتبار ، والمحوا فضائل التوبة بمقلة الاستبصار ، انظروا كيف انتقلت هذه السعيدة من حال الى حال ، كيف ارتفعت من حضيض النقائص الى اوج الكمال ، دخلت وهي كغصنٍ زاهر بالرذائل ، خرجت وهي كرمة حاملة لعناقيد الفضائل ، دخلت وهي معدودة من زمرة الشماليين ، خرجت لابسة حلة الاختصاص وهي من اصحاب اليمين ، دخلت وهي كحدأة تنقضّ على جيف المعاصي ، خرجت حمامة وديعة قد اودعت في قفص الناموس الاختصاصي ، دخلت وهي مؤهلة بردى الافعال للنار المؤججة ، خرجت وهي من آل الملكوت مستحقة للخيرات البهجة ، ذلك الفم الذي كان مدنساً بتقبيل الانجاس ، تطهر اليوم بلثمهِ لقدمي قدس الاقداس ، تلك العينان اللتان اعتادتا ان تختلبا القلوب وتوقعا الالباب في اشراك العيوب ، اكتحلتا عند رويتهِ بميل العفاف ، وتبركتا بالنظر الى الاقدام الشراف ، ذانك المنخران اللذان تلذذا بارابيج الطيوب ، استنشقا رائحة الملكوت من علّام الغيوب ، تلك الاذنان اللتان تنعمتا بنغمات الملاهي . سمعتا صوت الغفران من الفم الالهي

س ما الرواية القضائية

ج هي ما روت امرًا واقعًا تحت المخاصمة . واكثر استعمالها في الدعاوي .وهي تتقدم الخصام وتنزل فيهِ منزلة الاساس من البنيان اذ عليها تتوقف المشاجرة وعلى محورها تدور المقاضاة.

كرواية ابي زيد في المقامات الحريرية يتظلم بها من عقوق ابنهِ

فبينا القاضي جالسٌ للاحكام في يوم المحفل والاحتفال ، اذ دخل شيخٌ بالي الرياش ، بادي الارتعاش ، فتبصَّر المحفل تبصر نقَّاد ، ثمَّ زعم ان لهُ خصماً غير منقاد ، فلم يكن الأ كضوء شرارة ، او وحي اشارة ، حتى أُحضر غلام ، كانهُ ضرغام فقال الشيخ ايَّد الله القاضي ، وعصمهُ من التغاضي ، ان ابني هذا كالقلم الردي ، والسيف الصدي ، يجهل اوصاب الانصاف ، ويرضع اخلاف الخلاف ، ان اقدمت احجم ، واذا اعربت اعجم ، وان اذكيت اخمد ، ومتى شويت رمَّد ، مع اني كفلتهُ مذ دبَّ الى ان شبَّ ، وكنت لهُ الطف من ربي وربَّ

ومثلها رواية شابين رفعا دعواهما الى علي بن ابي طالب بامر غلام قتل اباهما :

اقبل شاب من احسن الشباب ، نظيف الاثواب ، يكتنفهُ شابان من احسن الشباب ايضاً ، وقد جذباهُ وسحباه ، واوقفاه بين يدي امير المؤمنين ولبَّباه ، فلما وقفوا بين يديهِ ، نظر اليهما واليه ، فقالا : يا امير المؤمنين نحن اخوان شقيقان ، جديران باتباع الحق حقيقان ، كان لنا ابٌ شيخٌ كبير ، حسن التدبير ، معظمٌ في قبائله ، منزه عن رذائله ، معروف بفضائله ، ربانا صغارًا ، واولانا مننًا غزارًا ، كما قيل:

لنا ولدٌ لو كان للناس مثلهُ   ابٌ آخرٌ اغناهمُ بالمناقبِ

فخرج اليوم الى حديقة لهُ يتنزه في اشجارها ، ويقطتفُ يانع اثمارها ، فقتلهُ هذا الشاب ، وعدل عن طريق الصواب ، فنسألك القصاص عما جناه ، والحكم فيهِ بما امرك الله

الباب الثاني

في الاثبات

س ما الاثبات

ج الاثبات في اللغة التمكين يقال : اثبت الامر اي جعلهُ مكيناً . وهو في الاصطلاح عبارة عن تأييد القضية بالبرهان وهو قطب الخطاب وغاية مقصود السامعين

س كم قسماً الاثبات

ج الاثبات قسمان : قسم ايجابي وهو ما اشتمل على تصديق القضية وتعزيزها بالادلة اللامعة والحجج الراهنة ويسمَّى التبيان . وقسم سلبي يفنّد بهِ الخطيب حُجج الخصم ويدحض مقالهُ ويسمى التفنيد

البحث الاول

في تبيان القضية

س ما الطريقة لتبيان القضية

ج ان الطريقة لذلك معرفة علم البحث والجدال

س ما هو البحث

ج البحث في اللغة التفحص . وفي اصطلاح اهل النظر يطلق على حمل شيء على اخر وعلى اثبات القضيَّة بالدليل

قال ابن خلدون : لما كان باب المناظرة في الردّ والقبول متسعاً وكلُّ واحد من المناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانهُ في الاحتجاج ومنهُ ما يكون جواباً ومنهُ ما يكون خطاباً فاحتاج الائمة الى ان يضعوا آداباً واحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الردّ والقبول وكيف يكون حال المستدل والمجيب ومحل اعتراضهِ ومعارضتهِ واين يجب عليهِ السكوت ولخصمهِ الكلام والاستدلال

س على اي شيء يترتب علم البحث في اثبات القضية

ج يترتب على معرفة القياس فبهِ يتوصل الخطيب الى تأييد رأيهِ وتخطئة رأي خصمهِ (١)

س ما هو القياس

ج القياس لغة التقدير والتشبيه . وفي الاصطلاح هو قول مؤلَّف من قضايا اذا سُلمت لزم عنها لذاتها قولٌ آخر (٢)

س ما هي القضية في القياس ومِمَّ تتركب

ج القضيَّة قول يصحّ ان يقال لقائلهِ انه صادق او كاذب.(٣) وهي تتركب من جزئين يسميان طرفيها او حدَّيها

(١) راجع آداب البحث للسمرقندي (٢) التهانويّ والحاج خليفة
(٣) تعريفات الجرجاني

احدهما وهو المحكوم عليه يسمى موضوعاً وثانيهما وهو المحكوم بهِ يُسمى محمولًا كقولك: الله عادل. فالله هو الموضوع وعادل هو المحمول

س كم قضية للقياس وما هي

ج لهُ ثلاث قضيا المقدَّمتان: وهما الكبرى والصغرى والنتيجة كقولك: كل انسان حيوان وكل حيوان جسم فكل انسان جسم. فالقضيتان الاوليان هما المقدَّمتان والمطلوب اي النتيجة الحاصلة منهما هي قولك: كل انسان جسم (١)

س ما هي الطريقة لاستنباط القياس

ج ان اردت اثبات قضية ما بالقياس فعليك ان تعرض طرفيها او حدَّيها (اي موضوعها او محمولها) على حدّ آخر يعرف بالحد الاوسط فان ثبتت المقابلة صحّ القياس والّا فلا

س اورد مثالًا على ذلك

ج اذا قصد الخطيب ان يثبت حدوث العالم مثلًا فيلتجئ الى قضية اخرى مشهورة يجد فيها حدًّا للقياس وهي كون المتغير حادثًا فيقول: كل متغير حادث والعالم متغير فهو حادث.

(١) شرح الشمسية

فالحادث حدّ اكبر والعالم حدّ اصغر والمتغير هو الحدّ الاوسط. سُمي بذلك لتوسطهِ بين طرفي المطلوب (١)

س كم هي القياسات الخطابية

ج هي ستة: القياس التام. والقياس الإضماري. والاستقرائيّ. والقياس التمثيلي. وذو الحدّين. والقياس المركب

١ القياس التامّ

س ما هو القياس التامّ

ج هو ما حوَت كلتا مقدَّمتيهِ الحدّ الاوسط مع احد طرفي النتيجة كقولك: لكل معلول علة والعالم معلول فللعالم علة. فالحدّ الاوسط هو (المعلول) ورد في الكبرى وفي الصغرى. وطرفا المطلوب (اي للعالم علّة) وردا في المقدمتين كما ترى

س كم نوعاً القياس التامّ

ج القياس التام امّا منطقيّ ويقال لهُ العقليّ ايضاً وامّا خطابي. فالمنطقي كما مرَّ. امّا الخطابي فهو يؤلف من مقدمات ظنية مقبولة يعرضها الخطيب بصورةٍ حقيقةٍ برامهِ

(١) التهانوي

فيكسوها حسناً ومتانةً ويحليها ببديع التشابيه وينمقها بالامثال ويؤيدها بلامع الادلة ويعرضها على اشباهها الى ان يستوفي محاسنها ويتم فائدتها

س اذكر لنا مثالاً على القياس الخطابي

ج قال ابن مسكويهِ واراد اثبات ان النفس ليست بجسم ولا بجزء من الجسم ولا بعرَض

انَّا لما وجدنا في الانسان شيئاً ما يضادُّ افعال الاجسام واجزاء الاجسام بحدّهِ وخواصهِ ولهُ ايضاً افعال تضادُّ افعال الجسم وخواصَّهُ حتى لا يشاركهُ في حال من الاحوال. وكذلك نجدهُ يباين الاعراض ويضادُّها كلها غاية المباينة ثم وجدنا هذه المباينة والمضادة منهُ للاجسام والاعراض انما هي من حيث كانت الاجسام اجساماً والاعراض اعراضاً حكمنا بان هذا الشيء ليس بجسم ولا جزءا من جسم ولاعرضاً وذلك انهُ لا يستحيل ولا يتغير وايضاً فانهُ يدرك جميع الاشياء بالسوية ولايلحقهُ فتور ولا كلال ولا نقص. (وبيان ذلك) انَّ كل جسم لهُ صورة ما فانهُ ليس يقبل صورة اخرى من جنس صورتهِ الاولى الَّا بعد مفارقتهِ الصورة الاولى مفارقةً تامة. (مثال ذلك) انَّ الجسم اذا قبل صورةً وشكلاً من الاشكال كالتثليث مثلاً فليس يقبل شكلاً آخر من التربيع والتدوير وغيرهما الَّا بعد ان يفارقهُ الشكل الاول. وكذلك اذا قبل صورة نقش او كتابة اواي شيء كان من الصور فليس يقبل صورة اخرى من ذلك الجنس الَّا بعد زوال الاولى وبطلانها البتة. فان بقي فيهِ شيء من رسم الصورة الاولى لم يقبل الصورة الثانيـة على التمام بل تختلط بهِ الصورتان فلا يخلص لهُ احداهما على التمام. (مثال ذلك) اذا قبـل الشمع صورة نقش في الخاتم لم يقبل غيره من النقوش الَّا بعد ان يزول عنهُ رسم النقش الاول وكذلك الفضة اذا قبلت صورة الخاتم وهذا حكم مستقيم مستمر في الاجسام ونحن نجد انفسنا تقبل صور الاشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات على التمام والكمال من غير مفارقة للاولى ولا معاقبـة ولا زوال رسم بل يبقى الرسم

الاول تاماً كاملاً وتقبل الرسم الثاني ايضاً تاماً كاملاً . ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة أبداً دائماً من غير ان تضعف او تقصر في وقت من الاوقات عن قبول ما يرد ويطرأ عليها من الصور بل تزداد بالصورة الاولى قوة على ما يرد عليها من الصورة الاخرى وهذه الخاصة مضادة لخواص الاجسام ولهذه العلة يزداد الانسان فهماً كلما ارتاض وتخرَّج في العلوم والاداب فليست النفس اذن جسماً . واما انها ليست بعرض فقد تبيَّن مِنْ قبل ان العَرَض لا يحمل عرضاً لان العرض في نفسهِ محمول ابداً موجود في غيرهِ لاقوام لهُ بذاتهِ . وهذا الجوهر الذي وصفنا حالهُ (يريد النفس) هو قابل ابداً حامل اتم واكمل من حمل الاجسام للاعراض فاذن النفس ليست عرضاً

س بماذا يختلف القياس المنطقيّ عن القياس الخطابيّ

ج ان الخلاف من وجهين الاوَّل : ان المنطقيّ يتتبع اليقينيات امَّا الخطابي فانه يستند الى المقبولات والمظنونات وهي القضايا التي يحكم بها لاعتقاد الناس صحتها ولثبوتها بحكم الظن كقولك : فلان متلطخ بالدم فهو قاتل

والوجه الثاني ان المنطقي لايتصرَّف بالقياس بخلاف الخطيب فانه يتصرَّف في المقدَّمات بالتقديم والتأخير كقول عليّ بن ابي طالب :

إني إمامكم وأسوتكم فسيروا بسيرتي واقتفروا معالي. فانَّ لكل مأموم إماماً يقتدي بهِ ويستضيء بنور علمهِ ألا وإنَّ امامكم قد اكتفى من دنياه بطمريهِ ومن طعامهِ بقرصيهِ

وكقول صاحب كتاب زجر النفس وقد اراد ان يثبت ان لا لذة في الدنيا :

يانفس ينبغي ان تعلمي وتتيقني ان حدّ اللذة بالحقيقة هو ما لا يُملّ . ومتى طلبَت النفسُ في الكون لذة فقد سمت الى غير موجود وطلبت ما لا يمكن. والدليل البيّن على هذا ان جميع ما تشاقهُ النفس في هذه الدنيا مملول والمملول لا ينبغي ان يسمى لذة اذ كان حدّ اللذة ما لا يملّ . او ما تنظرين يانفس الى اكثر اهل الدنيا كيف يبحثون في طلب اللذات ويتوهمون انها موجودة في الدنيا وليس هي موجودة فتبيَّن ان الناس يطلبون في الدنيا ما ليس فيها

٢ القياس الاضماريّ

س ما هو القياس الاضماري

ج هو ما أُضمرت احدى مقدمتيهِ . إمَّا الكبرى ويسمَّى قياس الضمير كقولك : العالم متغير فهو حادث . وتمام القياس : كل متغير حادث والعالم متغير فهو حادث

وامَّا الصغرى ويسمَّى قياس الدليل كقولك : ان ما يزّين العقل شرفٌ للمرء فالعلم اذًا شرفٌ للمرء . فأضربت عن الصغرى . وتتمة القياس بقولك : انَّ ما يزّين العقل شرف للمرء والعلم يُزّين العقل فهو اذًا شرفٌ للمرء

(فائدة) ويُسمَّى القياس الإضماريّ اقترانياً اذا لم تذكر النتيجة

س هل القياس الاضماري كثير الاستعمال في الخطابة

ج هو كثير الاستعمال على ألسنة الخطباء ولاسيما اذا ارادوا اثبات قضية يُسلِّم الخصم باحدى مقدَّمتيها فانَّهم يعرضون عنها ايثارًا للاختصار. وربُما اوردوا القياس مخصرًا

بجملة واحدة كقول الشاعر :

احفظ لسانك لا تقول فتبتلى ان البلاء موكل بالمنطق

وكقول الآخر :

صاحب الشهوة عبد فاذا خالف الشهوة صار الملكا

وهذا كثير في الخطب والكلام العادي ان شئت تحليله واعادته الى القياس الاصلي تقول في البيت الاول :

ان كل ما يجر بلاء يجب ان يحترس منهُ واللسان يجر البلاء فيقتضي الاحتراس منهُ

٣ الاستقراء

س ما هو الاستقراء

ج الاستقراء باللغة التتبع من استقريت الشيء اذا تتبعته. وعند المنطقيين هو الحكم على شيء لوجوده في جزئياته (١) كما اثبت الشيخ جمال الدين الافغاني برسالته التي فيها رد اقوال الطبيعيين ان لا قوام للألفة الاجتماعية الا بالدين. فاستقرى كثيراً من الممالك القديمة وبيّن ان هرمها ناشئ عن ابتعادها من سنن الدين ومحجة الايمان

س كم قسما الاستقراء

ج قال التهانوي : الاستقراء قسمان : تامٌ وناقص . فالتامّ

(١) شرح الرازي على شمسية القزويني . والنجاة لابن سينا

ويسمّى القياس المقسم هو ان يستدلَّ بجميع الجزئيات ويحكم على الكل وهو قليل الاستعمال كما يُقال: كل جسم إمّا حيوان او نبات او جماد وكل واحدٍ منها متحيّز . فينتج ان كل جسم متحيز . وهذا يفيد اليقين

والناقص هو ان يستدلَّ باكثر الجزئيَّات فقط ويحكم على الكل وهو يفيد الظنّ كقول المسعودي في العامَّة وقد حاول ان يبيِّن ان كل العامة يغلب عليها الهوى في جميع امورها فقال:

انظر هل ترى اذا اعتبرت العامة فنظرت في مجالس العلماء هل تشاهدها الّا مشحونة بالخاصَّة من اولي التمييز والمروءة والحجى . وتفقَّد العامـة في احتشادها وجموعها فلا تراهمُ الدهر الّا مُرقلين الى قائد دبٍّ وضارب بدفٍّ على سياسة قردٍ او متشوقين الى اللهو واللعب او مختلفين الى متعبّد متمّس مخرق او مستمعين الى قاصٍّ كذاب او مجتمعين حول مضروب او وقوفاً عند مصلوب . يسوّدون غير السيِّد ويفضّلون غير الفاضل ويقولون بعلم غير العالم . وهم أتباعُ من سبق اليهم من غير تمييز بين الفضـل والنقصان ولا معرفة للحق من البـاطل . يُنعق بهم فيتَّبعون ويُصاح بهم فلا يرتدعون . لا ينكرون منكرًا ولا يعرفون معروفـاً ولا يبالون ان يلحقوا البرّ بالفاجر والمؤمن بالكافر . وقد بيَّن ذلك عليٌّ وقد سُئل عن العامة فقال: همج رعاع أتباع كل ناعق لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا الى ركن وثيق . واجمعَ الناسُ في تسميتهم على انهم غوغاء وهم الذين اذا اجتمعوا غلبوا واذا انصرفوا لم يُعرفوا

فان هذا لا يفيد اليقين لجواز وجود طائفـةٍ من العامَّة لم تُستقرأ فلا يتجاوز الحكمُ حدود الاحتمال

٤ القياس التمثيليّ

س ما هو التمثيل

ج التمثيل عند المنطقيين اثبات حكم في جزئيّ لثبوتهِ في جزئيّ آخر لمعنىً مشترك بينهما . وقيل ايضاً هو اثبات حكم في أمرٍ لثبوتهِ في آخر لعلة مشتركة بينهما . وقد يسميهِ الفقهاء قياساً والجزئي الاول فرعاً والجزئي الثاني اصلاً والمشترك علةً وجامعاً كما يقال : العالم مؤلف فهو حادث كالبيت . يعني ان البيت حادث لانهُ مؤلَّف من اجزاء وهذه العلة موجودة في العالم فيكون اذًا العالم حادثًا (١)

ومن الامثال اللطيفة في هذا الباب ما ورد في كتاب زجر النفس فقال :

يا نفس انهُ من اصعب الاشياء واشدها امتناعاً ان تُعمل صنعة الصاغة بأداة الفلاحة او صنعة التجارة بأداة الخياطة ولكل صنعة أداة لن يستوي عملها الّا بها لا بغيرها واذا كان الانسان عارفاً بجميع الصنائع ايضاً مستعملاً جميع أدواتها فقد ينبغي لهُ اذا اراد ان يعمل الخياطة ان يرمي من يدهِ اداة الفلاحة ويأخذ للخياطة اداتها التي تصلح لها . واذا اراد ان يعمل الفلاحة فيرمي من يدهِ أداة الخياطة ليأخذ للفلاحة أداتها التي تصلح لها . وكذلك يا نفس ينبغي لمن اراد ان يدرك العلم وعمل الخير ان يترك من يده اداة الجهل والشرّ وهو حبّ الدنيا والرغبة فيها . فمتى هممتِ يا نفس بطلب العلم والخير فدعي من يدك اداة الشر كما قد تقرّر في علمك ان الصنعة لا تكمل الّا باداتها وخذي للعلم والخير اداتها . فانهُ متى عملتها باداتها انعملا بغير

(١) السيد الجرجاني والسيد المولوي

تعب ولا نصب ومتى كان بيدك اداة الشر واردتِ ان تعملي بها الخير امتنع ذلك عليكِ وصعب كما امتنع على من كان بيدهِ اداة الفلاحة فاراد ان يعمل بها الصياغة فطال تعبهُ ونصبهُ ولم يتمّ لهُ عملهُ. فتيقني يا نفس هذا المعنى واعلمي ان حب الدنيا والخير لا يجتمعان في قلبٍ فتصوري يا نفس حقيقة هذا وادركيهِ ببصر عقلك

فانهُ قاس اعمال النفس باعمال اليد وقضى على الاولى ما اثبتهُ للثانية على طريقة التمثيل لعلة موجودة في كليهما . وهي انَّ لكل امرٍ اداةً مختصة بهِ

(راجع ايضاً صفحة ١٧٠ من الجزء الثاني من مجاني الادب وفيها مثل حسن على التمثيل)

٥ القياس ذو الحدّين

س ما هو القياس ذو الحدّين

ج هو ان تأخذ قضية فتقسمها الى قسمين متباينين لا وسيط بينهما يفند كلاهما قول الخصم ويُسمى ايضاً بذي القرنين لانهُ ينطح الخصم يميناً وشمالاً . كما ذكر ابو جعفر الاسكافي لعليّ بن ابي طالب من كتابٍ ارسلهُ الى طلحة والزبير :

قد علمتما انكما ممن ارادني وبايعني . فان كنتما بايعتماني طائعَين فارجعا وتوبا الى الله من قريب . وإن كنتما بايعتماني كارهَين فقد جعلتما لي عليكما السبيل باظهاركما الطاعة واسراركما المعصية

وكقول طارق وقد اراد حمل جنوده على لذريق وبيَّن لهم ان لا نجاة الّا بمقاومة العدوّ

ايها النـاس اين المفرّ البحر من ورائكم والعدو امامكم فليس لكم والله الّا الصدق والصبر

ومثلهُ قول السيد المسيح للفريسيين اذ سألهم عن معمودية يوحنا أمن السماء هي ام من البشر فالجمهم اذ انهم قالوا في انفسهم ان قلنا من السماء فيقول لنا لِمَ لم تؤمنوا وان قلنا من البشر فنخاف من الجمع لانهم يعدُّون يوحنا كنبيٍ.

ومن هذا القبيـل ما قالهُ ابو نواس للامين وكان امر بحبسهِ مُراعاة لخاطر بعض حواشيهِ :

مضت لي شهور قد حُبستُ ثلاثة   كأنيَ قـد اذنبتُ ما ليس يُغفرُ
فان اكُ لم اذنب ففيما عقوبتي   وان كنت ذا ذنبٍ فعفوك اكبرُ

س باي طريقةٍ يُتوصَّل الى حلّ القياس ذي الحدَّين

ج لحلهِ طريقتان :

الأُولى بان تجد وسيطاً بين طرفَي القياس فتملَّص منهُ

الثانية بان تبيّن ان القسمة ليست مستوية وشاملة لجميع الانواع كما قال ابن الروميّ وفي قسمتهِ خلل لانهُ سها عن ذكر الدين والعلوم والاداب مع جليل نفعها

لم ارَ شيئاً صادقاً نفعهُ   للمرء كالدرهم والسيفِ
يقضي لهُ الدرهمُ حاجاتهِ   والسيف يحميهِ من الحيفِ

(فائدة) ان القياس ذا الحدَّين رُبَّما يُعدَل عن حلهِ توّاً فيردَ كيدهُ في نحر الخصم. والمثل في ذلك ما اورد ابن العبري لارخيلوخس

الخطيب لما وافاه تيسياس فاخذ عنهُ الخطابة على ان يجعل لهُ مالاً معيناً. ثم حاول الغدر بهِ لما اتقن فن الخطابة فقال لمعلمهِ اني اناظرك في الاجرة فان اقنعتك بانني لا ادفعها اليك لم ادفعها اذ قد اقنعتك بذلك. وان لم اقنعك فلستُ اعطيك شيئاً لانني لم اتعلّم منك الخطابة التي هي مفيدة للاقناع. فاجابهُ ارخيلوخس: وانا ايضاً أناظرك فان أقنعتك بأنَّهُ يجب لي اخذ حقي اخذتهُ اخذ مَنْ اقنع وان لم اقنعك فيجب ايضاً اخذهُ منك اذ قد نشأت تلميذاً يستظهر على معلمهِ

٦ في القياس المركب

س ماهو القياس المركب

ج قال الرازي: هو قياس مركَّب من مقدَّمات يُنتج مقدَّمتان منها نتيجة وهي مع المقدمة الاخرى تنتج أخرى وهلمَّ جرًّا الى ان يحصل المطلوب

س كم نوعاً القياس المركب

ج القياس المركب امَّا موصول وامَّا مفصول. فان صرَّح بنتائج تلك القياسات فهو الموصول لوصل تلك النتائج بالمقدَّمات. كقولنا: كل ج ب. وكل ب د. فكل ج د. ثم كل ج د. وكل د ا. فكل ج ا الخ(١) ونحو كقولك:

البسيط لا جزء لهُ. والنفس بسيطة فلا جزء لها. ثم ما لا جزء لها لا يمكن

(١) شرح الشمسية ومقالات السيد الجرجاني

تقسيمهُ فلا يمكن تقسيم النفس

وان لم يصرَّح بهاسمي مفصولاً لفصل النتائج عن المقدَّمات في الذكر وان كانت مرادة من جهة المعنى كقولنا : وكل ج ب كل ب د وكل د اوكل ا ه فكل ج ه (١) . ويسمى هذا القياس القياس المدرَّج ويُعرَّف انهُ عبارة عن سلسلة قضايا مرتبطة باتساق يكون محمول الاولى موضوعاً للثانية ومحمول الثانية موضوعاً للثالثة الى ان يحصل المقصود

كقول علي بن ابي طالب :

ايها الناس اياكم وتعلم النجامة فانها تدعو الى الكهانة . والمنجم كالكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكافر والكافر في النار وكذلك المنجّم

ومثلهُ قول عمر للاحنف بن قيس :

من كثر ضحكهُ قلّت هيبتهُ . ومن قلّت هيبتهُ كثر سقطهُ . ومن كثر سقطهُ قلَّ ورعهُ ومن قلَّ ورعهُ ذهب حياؤهُ ومن ذهب حياؤهُ مات قلبهُ

(فائدة) اعلم ان القياس المدرج هو مجموع اقيسةٍ يتسلسل بعضها من بعض وبها يعرض عن ذكر الصغريات الَّا صغرى القياس الاوَّل ويعرض كذلك عن ذكر الاقيسة ما خلا نتيجة القياس الاخير . وانما يسهل على الحاذق بان يعيد هذه الاقيسة الى اصولها فيفرز غثها من سمينها ويطلع على خللها ان وجد فيها ففي قول عليّ آنفاً اربعة اقيسة هذه صورتها :

(١) النجاة لابن سينا

القياس الاوَّل : النجامة تؤدي الى الكهانة . والكهانة حرام . فالنجامة حرام

القياس الثاني : الكهانة تؤدي الى السحر . والنجامة تؤدي الى الكهانة . فالنجامة تؤدي الى السحر

القياس الثالث : السحر يؤدي الى الكفر . والنجامة تؤدي الى السحر . فالنجامة تؤدي الى الكفر

القياس الرابع : الكفر يؤدي الى النار . والنجامة تؤدي الى الكفر . فالنجامة تؤدي الى النار

لواحق القياس

س ما هي بقية القياسات المستعملة في الخطابة

ج ربَّما التجأ الخطيب لإثبات قضيتهِ الى انواع أُخر من القياسات هي لواحق لما تقدَّم ذكرهُ . فمنها القياس الشرطي . ومنها القياس الاستثنائي . ومنها قياس الخلف

س ما هو القياس الشرطيّ

ج هو ما كان مركَّباً من قضيتين احداها محكوم عليها والاخرى محكوم بها يجمعهما رابط يدلُّ على العلاقة بينهما . كقولك : ان وُجد المعلول فلا بدَّ لهُ من علة . فالمحكوم بهِ قولك : وُجد المعلول والمحكوم عليهِ قولك : لا بدَّ للمعلول من علة .

والرابط انَّ الشرطية وفاء الجواب (١)

س متى يصحُّ القياس الشرطيّ

ج للقياس الشرطيّ قـاعدتان الاولى ان المشروط يثبت بايجاب الشرط اي يكون موجباً ان كان الشرط موجباً ويكون سلباً ان كان سلباً كقولك :

ان كانت الشمس طالعة فالنهار موجود . والحال انَّ الشمس قد طلعت فقد ثبت اذاً طلوع النهار فلماَّ ثبت المقدَّم نتج ايضاً ثبوت التالي

الثانية ان الشرط يكون سلبياً اذا كان المشروط منفياً كقولك :

لو درست لتعلمت . لكنك لم تتعلم فاذاً لن تدرس

فنفي التالي بعدم تحقُّق الشرط

وكقول ابي العتاهية :

فلو كان هول الموت لا شيء بعده لهان علينـا الامر واحتقرَ الامر
ولكنهُ حشرٌ ونشرٌ وجنَّةٌ ونارٌ وما قد يستطيل بهِ الخُبْرُ

س ما هو القياس الاستثنائي

ج القياس الاستثنائي ويُعرَف ايضاً بالتفصيليّ هو مركَّبٌ من مقدَّمتين احداهما شرطية والاخرى وضعٌ لاحدجزئيهـا او

(١) شرح آداب البحث للسمرقندي

رفعهُ. وعُرّف ايضًا بقولهم: هو ما كان عين النتيجة او نقيضهُ مذكورًا فيهِ بالفعل. وهو لا يصح الّا بعدم وجود ما يتوسط بين المقدّمتين كقولك:

لا يخلو ان يكون هذا العدد زوجاً او فردًا لكن هذا العدد زوج فينتج انهُ ليس بفرد. او لكنهُ فرد فينتج انهُ ليس بزوج

س ما هو قياس الخلف

ج قياس الخلف ويسمّى ايضًا القياس العطفيّ هو ما كان في مقدّمتهِ قضيتان منفيتان معطوفتان فيثبت المطلوب بابطال نقيضهِ. كقول الرب: لا يستطيع احد ان يعبد ربَّين الله والمال. فاذا صدق ان فلانًا يعبد الله فأبطل نقيضه وهو عبادة المال

وقد جاء لبعض العارفين:

انَّ الدنيا والاخرة عدّوان متفاوتان وسبيلان مختلفان فمن احبَّ الدنيا وتولّاها ابغض الآخرة وعاداها

وكقول محمود الورّاق:

تعصي الالهُ وانت تظهر حُبَّهُ هذا مُحالٌ في القياس بديعُ
لو كان حبُّك صادقًا لاطعتهُ إنَّ المحبَّ لِمَن يحبُّ مطيعُ

البحث الثاني

في التفنيد

س ما هو التفنيد

ج التفنيد ويُسمَّى ايضاً النَّقض هو في اللُّغة التكذيب والتجهيل . وفي الاصطلاح هو قسم من الخطابة يُخطِّئ بهِ المتكلّم رأيَ خصمهِ ويردُّ على حُججهِ

س هل يكون للتفنيد وقعٌ في كل اصناف الخُطَب

ج كلاَّ فانَّ الاِضراب عن حجج الخصم في بعض المقامات أولى من نقضها لقلَّة اكتراث السامع لها.هذا الى أنَّ اعتراضات الخصم رُبَّما حُلَّت بمجرَّد اثبات الخطيب لقضيَّتهِ فلا تمسُّ اذ ذاك الحاجة لتفنيدها لانَّ الاضداد ملازِمةٌ بعضها فيكون تحقق الشيء نفياً لنقيضهِ

س على كم صنفٍ هي الحُجَج المقتضى تفنيدها وفي ايّ قسمٍ من الخطابة تُفنَّد

ج هذه الحجج على ثلاثة اصناف : فمنها ما يسبق اليهِ توهُّم السامع والأغلب ان يفندها الخطيب في صدر خطابهِ كما لو اراد الخطيب ان يحمل الجند على القتال فانَّ توهُّمَ السامع خوفُ العدوّ ولا ينجع كلامهُ فيهِ ما لم يبطل خوفهُ في بدء خطابهِ

ومنها ما يفترضها الخطيب ويعرضها على نفسهِ فيحاول إبطالها كتفنيد حجج من يؤجل التوبة رجاء ان ينيب اليهِ تعالى في ساعة الموت

وهذه الحجج ربَّما وقَّع الخطيب إبطالها في آخر خطابهِ كقول رسول الامم في رسالتهِ الى اهل قورنتس فانهُ بعد ان ذكر القيامة والبعث اخذ يردُّ على من نكر وقوعهُ فقال :

ولكن يقول قائلٌ كيف يقوم الاموات وبأيّ جسدٍ يبرزون . ياجاهل إنَّ ما تزرعهُ أنت لا يحيا الَّا اذا مات . وما تزرعهُ ليس هو ذلك الجسم الذي سوف يكون بل مجرَّدُ حبَّةٍ من الحنطة مثلًا او غيرها من البزور . الَّا ان الله يجعل لها جسماً كيف شاء ولكلٍ من الزروع جسمهُ المختص بهِ . ليس كل جسد جسدًا واحدًا بل للناس جسدٌ وللبهائم جسدٌ آخر وللطيور آخر وللاسماك آخر . ومن الاجساد اجسادٌ سماوية وأجسادٌ أرضية ولكن مجد السماويات نوعٌ ومجد الارضيات نوعٌ آخر . ومجد الشمس نوعٌ ومجد القمر نوع آخر ومجد النجوم نوع آخر لانَّ نجماً يمتاز عن نجم في المجد هكذا قيامة الاموات . الزرع بفسادٍ والقيامة بغير فساد . الزرع بهوانٍ والقيامة بمجد . الزرع بضعفٍ والقيامة بقوةٍ

ومنها ما يأتي بها الخصم في المقاضاة والمُشارَعة في الدعاوي . وهذه المحاجَّة تُقدَّم او تؤخر على مقتضى الحال وهي كثيرًا ما تمازج ادلَّة الخطيب يحلُّها في أثناء كلامهِ كقول بعض النصارى يردُّ على من ادَّعى ان المسيحيين حرَّفوا الكتب المقدسة :

وكأني بك اصلحك الله قد ذكرتَ التحريف في هذا الموضع واحتججتَ علينا بانا حرَّفنا الكلِم عن مواضعهِ وبدلنا الكتاب كأنَّ هذا القول جملتهُ كهفًا لك تستتر بهِ . واني لأُخبرك خبرًا حقًّا فاسمعهُ مني وعِهِ واقبلهُ . فانَّ قولي ليس قول

باغٍ ولا حاسد ولا متعنّت معاند بل انما هو نذرٌ مني لك ونصح اذ كان ديني يوجب عليَّ نصيحة كل احد فانا بذلك مشفق عليك من كثرة الجهل وصرعتهِ وضيمهِ. وما اعلم اني سمعتُ قط بحجة اشد انقطاعاً واوحش انفساخاً من حجتك في باب التحريف والتبديل واني لأعجب منك ومن نظائرك ممن فتّش كتب مقالات الحق وكان لهُ ذهن صحيح يميز بهِ كيف يجوز مثل هذا عليه . وانتَ تعلم اننا نحن واليهود الجاحدين لما جاء بهِ نورُ العالم وضياء الدنيا المسيح سيدنا ومخلصنا قد اجتمعنا عن غير تواطؤ على صحة هذا الكتاب وانهُ مُنزَل من عند الله لا تحريف فيهِ ولا تبديل ولم تلحقهُ زيادة ولا نقصان . والّا فنحن ندعوك الى واحدة هي نصَفة لنا ولك إِئتنا اصلحك الله انت ايها المدعي علينا التحريف والتبديل ان كنتَ صادقاً بكتاب غير محرَّف ولا مبدل يشهد لك على صحة الآيات العجيبة كما شهدت الاعاجيب للانبياء والحواريّين حيث جاؤنا بصحة هذا الكتاب فقبلنا ذلك منهم وهو في ايدينا وايدي اليهود بلا زيادة ولا نقصان . إني لأعلم انك لا تقدر على ذلك ابداً. فاذا كنت لا تقدر انت ولا غيرك تُلفِق على ما في ايدينا على الشريطة التي شرطناها وهو ممتنع من امكانك. فمالك والمباهتة التي ليست من عادتك ولا من اخلاقك وتشنّع علينا وتقول انّا حرَّفنا الكتاب وبدلنا تنزيل الله وغيَّرنا كلامهُ ونحن نتلوهُ حق تلاوتهِ فانصف اصلحك الله واطلب رِضى ربك

ومثلهُ ما اخبر المدائني عن عمرو بن العاص قال : كان عمرو في موسم من مواسم العرب فأطرى معاوية بن أبي سفيان وذكر مشاهدهُ بصفين واجتمعت قريش فاقبل عبد الله بن عباس على عمرو فقال :

يا عمرو انك بعتَ دينك من معاوية واعطيتهُ ما بيدك ومنّاك ما بيد غيرك . وكان الذي اخذ منك اكثر من الذي اعطاك والذي اخذتَ منهُ دون الذي اعطيتهُ وكلٌّ راضٍ بما اخذ واعطى. فلما صارت مصر في يدك كدَّرها عليك بالعزل والتنغيص حتى لو كانت نفسك في يدك القيتها . وذكرتَ مشاهدك بصفين فوالله ما ثقلتَ علينا وطأتك ولقد كشفت فيها عورتك وان كنت فيها لطويل اللسان قصير السنان اخر الخيل اذا اقبلت واولها اذا ادبرت. لك يدان يدٌ لا تبسطها الى خير واخرى لا تقبضها عن شر ولسانٌ غرور ذو وجهين وجه موحش ووجه

موئس ولعمري ان من باع دينه بدنيا غيره لحريٌّ ان يطول عليها ندمهُ. لك لسان وفيك خطل ولك رأي وفيك نكد ولك قدر وفيك حسد واصغر عيب فيك اعظم عيب في غيرك

فاجابهُ عمرو بن العاص:

والله ما في قريش اثقل عليَّ مسألةً ولا امرُّ جواباً منك ولو استطعتُ ان لا اجيبك لفعلت. غير اني لم ابع ديني من معاوية ولكن بعتُ الله نفسي ولم انسَ نصيبي من الدنيا. واما ما اخذتُ من معاوية واعطيتهُ فانهُ لا تُعلم العوانُ الخمرة. واما ما اتى اليَّ معاوية في مصر فان ذلك لم يغيرني لهُ. واما خفة وطأتي عليكم بصفين فلِمَ استثقلتم حياتي واستبطأتم وفاتي. واما الجبن فقد علمتْ قريش اني اول مَن يبارز وآخرُ من ينازل. واما طول لساني فاني كما قال هشام بن الوليد لعثمان بن عفان:

لساني طويل فاحترس من شذاته عليك وسيفي من لسانيَ اطولُ

واما وجهايَ ولساناي فاني القى كل ذي قدْر بقدره وارمي كل نابح بحجره. فمن عرف قدره كفاني نفسه ومن جهل قدره كفيتهُ نفسي. ولعمري ما لاحدٍ من قريش مثل قدرك ما خلا معاوية فما ينفعني ذلك عندك (وانشأ عمرو يقول):

بني هاشم مالي اراكم كانكم بيَ اليوم جُهّالٌ وليس بكم جهلُ
الم تعلموا اني سريعٌ على الوغا سريعٌ الى الداعي اذا كثر القتلُ
واولَ من يدعو نزالٌ طبيعةٌ جُبلت عليها والطباع هو الجبلُ
واني فصلت الامر بعد اشتباههِ بدومة اذ اَعيا على الحكمِ الفصلُ
وانيَ لا اعيا بامرٍ اريده واني اذا عجَّت بكارُكمُ فحلُ

س من اين تؤخذ اساليب المحاجَّة لإفحام الخصم

ج تؤخذ من معرفة المغالطة

س ما هي المغالطة

ج المُغالطة في اللغة النسبة الى الغلط . وعند المنطقيين

هي صناعة يعرف بها القياس الفاسد اما من جهة الصورة او من جهة المادة او من جهتهما معاً (١)

قال في شرح المطالع : ان الغرض من معرفة هذه الصناعة الاحتراز عن الخطإ وربما يُمتحن بها مَن يُراد امتحانهُ في العلم ليعلَم بهِ كمالَهُ بعدم ذهاب الغلط عليهِ وقصورهُ بذهابهِ عليهِ . وبهذا الاعتبار تسمى قياساً امتحانياً . وقد تُستعمَل في تبكيت من يُوهم العوامّ انهُ عالم ليظهر لهم عجزهُ عن الفرق بين الصواب والخطإ فيصدُّون عن الاقتداء بهِ وبهذا الاعتبار تسمى قياساً عنادياً

س ماهي مواد المغالطة

ج موادُّ المغالطة المقدّمات الشبيهة بالحق وهي ليست حقاً . قال شارح إشراق الحكمة : انَّ اسباب الغلط على كثرتها ترجع الى امرٍ واحد وهو عدم التمييز بين الشيء واشباههِ . ثم انها تنقسم : (الى ما يتعلّق بالالفاظ) بان تكون مختلفة الدلالة فيقع الاشتباه بين ما هو المراد وبين غيره ويدخل فيهِ الاشتراك والتشابُه والمجاز . والى ما يتعلق (بالمعاني وتأليف القياس) كعدم صحّة مقدماتهِ او تكون النتيجة مغايرة لاحدى المقدَّمتين

(١) اصطلاحات الفنون

وكقول علي يردُّ على معاوية وكان نسب اليهِ اشياء :

وزعمتَ اني لكل الخلفاء حسدتُ وعلى كلّهم بغيت . فان يكن ذلك كذلك فليس الجناية عليك فيكونَ العذرُ اليك . وتلك شكاة ظاهرٌ عنك عارها

وقلتَ اني كنت أقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى أبايع . ولعمر الله لقد اردتَ ان تذمَّ فمدحت وان تفضح فافتضحت وما على المسلم من غضاضة في ان يكون مظلوماً ما لم يكن شاكّاً في دينهِ ولا مرتاباً بيقينهِ . وهذه حجتي الى غيرك قصدُها ولكني أطلقت لك منها بقدرما سنح من ذكرها

ثم ذكرتَ ما كان من امري وامر عثمان فلك ان تجاب عن هذه لرَحِمك منه . فأيُّنا كان أعدى لهُ واهدى الى مَقاتلهِ . أمَن بذل لهُ نصرتهُ فاستقعدهُ واستكفَّه ام مَن استنصره فتراخى عنهُ وبثَّ المنون اليهِ حتى اتى قدرهُ عليهِ . كلّا والله لقد علم الله المعوّقين منكم والقائلين لاخوانهم هلمَّ الينا ولا يأتون البأس الّا قليلًا

وما كنتُ لِاعتذرَ من اني كنت انقم عليهِ احداثاً فان كان الذنب اليهِ ارشادي وهدايتي لهُ فربَّ ملومٍ لا ذنب لهُ . وقد يستفيد الظنّة المتنصح وما اردت الّا الاصلاحَ ما استطعتُ . وما توفيقي الّا بالله عليهِ توكلت

س اليس للخطيب وسائل أُخرى لمناقضة الخصم

ج نعم وهي كثيرة منها : اولاً الانكار وذلك بان لا يُسلم بما ادعاهُ الخصم لحجة تلزمهُ كقول ابن خلدون ردّاً على من نسب الى الرشيد معاقرة الخمر :

واما ما تموّه بهِ الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكرهِ بسكر الندمان فحاشا الله ما علمنا عليهِ من سوء . واين هذا من حال الرشيد وقيامهُ بما يجب بمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليهِ من صحابة العلماء والاولياء ومحاورتهِ للفضيل بن عياض وابن السمّاك والعمريّ ومكاتبتهِ سفيان الثاري وبكائهِ من مواعظهم ودعائهِ بمكة في طوافهِ وما كان عليهِ من العبادة والمحافظة على اوقات الصلوات وشهود الصبح لاوّلِ وقتها

فكيف يليق بالرشيد على قرب العهد من سلفهِ المتحلين للدين وما ربي عليهِ من امثال هذه السير في اهل بيتهِ والتخلُّق بها ان يعاقر الخمر او يجاهر بها . وقد كانت حالة الاشراف من العرب في الجاهلية في اجتناب الخمر معلومة ولم يكن الكرم شجرتهم وكان شربها مذمة عند الكبير منهم والصغير . والرشيد وآباؤُهُ كانوا على ثبج من اجتناب المذمومات في دينهم ودنياهم والتخلُّق بالمحامد واوصاف الكمال ونزعات العرب

وانما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب اهل العراق وفتاويهم فيها معروفة . واما الخمر الصِرف من العنب فلا سبيل الى اتهامهِ بهِ ولا تقليد الاخبار الواهية فيها . فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرَّمًا من اكبر الكبائر عند اهل الملّة . ولقد كان اولئك القوم كلهم بمنجاة من خنث السرف والترف في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم لما كانوا عليهِ من خشونة البداوة وسذاجة الدين التي لم يفارقوها بعد . فما ظنك بما يخرج عن الاباحة الى الحظر وعن الحلّية الى الحرمة

ثانيًا التذكية . بان يقرَّ الخطيب بصحة الواقع ثم يثبت انهُ ليس بجناية كقول علي بن جهم لما حبسهُ المتوكل :

قالوا حُبِستَ فقلتُ ليسَ بضائري ... حبسي وايّ مهنَّدٍ لا يُغمدُ
اوَ ما رأيتَ الليثَ يألفُ غيلهُ ... كبرًا واوباشُ السباع تَردَّدُ
والشمس لولا انها محجوبة ... عن ناظريك لما اضاءَ الفرقدُ
والبدر يدركهُ السِرار فتنجلي ... ايامهُ وكأنَّهُ متجدّدُ
والغيث يحصرهُ الغمام فما يُرى ... الّا وَريّقهُ يراع ويرعدُ
والزاعبيَّة لا يقيم كعوبها ... الّا الثقاف وجذوة تتوقدُ
والنار في احجارها مخبوءَةً ... لاتصطلي ان لم تُثرها الازندُ
والحبس ما لم تغشهُ لدنيةٍ ... شنعاءَ نعم المنزلُ المتوددُ
بيتٌ يجدّدِ للكريم كرامةً ... ويُزار فيهِ ولايزور ويحمدُ
لو لم يكن في الحبس الّا انهُ ... لايستذلُّك بالحجاب الاعبدُ
كم من عليلٍ قد تخطاهُ الردى ... فنجا ومات طبيبهُ والعوّدُ
يا احمد بن ابي دُؤَاد انما ... تُدعى لكل عظيمة يا احمدُ

ابلغ امير المؤمنين ودونهُ خوض الردى ومخاوفٌ لا تنفدُ
ان الذين سعوا اليك بباطلٍ حسَّاد نعمتكَ التي لا تجحدُ
شهدوا وغبنا عنهمُ فتحكموا فينا وليس كغائبٍ من يشهدُ
لو يجمع الخصماء عندك مجلسٌ يوماً لبان لكَ الطريقُ الاقصدُ
فبأيّ جرمٍ أصبحتْ اعراضنا نهباً تقسَّمها اللئيم الاوغدُ

وكقول السموءل يردُّ على من عيَّرهُ بقلة عدد قومهِ :

تعيّرنا انَّا قليلٌ عديدنا فقلت لها انَّ الكرامُ قليلُ
وما قلَّ مَن كانت بقاياهُ مثلنا شباب تسامى للعُلى وكهولُ
وما ضرنا انَّا قليلٌ وجارنا عزيزٌ وجارُ الاكثرينَ ذليلُ

ثالثاً التنديد. بان يعرّض بمعايب الخصم لنقض شهادتهِ وابطال حجتهِ كما جاء في كتاب اخوان الصفا على لسان الببغاء تردُّ على الإنس وكانوا تفاخروا بملوكهم وسياستهم :

خذ الان ايها الانسي بازاء ما ذكرتَ وافتخرت بهِ واحدًا مذموماً وبدل كل جنس حسنٍ مليح جنساً قبيحاً سمجاً ونحن بمعزل عنها . وذلك ان منكم الفراعنة والنَّاردة والجبابرة والكفرة والفجرة والفسقة والمشركين والمنافقين والملحدين والمارقين والناكثين والقاسطين والخوارج وقطَّاع الطريق واللصوص والعيَّارين والطرَّارين . ومنكم ايضاً الدجالون والباغون والمرتابون ومنكم ايضاً الغمَّازون والكذابون والباشون . ومنكم ايضاً السفهاء والجهلاء والاغبياء والناقصون وما شا كل هذه الاصناف والاوصاف والطبقات المذمومة اخلاقهم الردية طباعهم القبيحة افعالهم السيئة اعمالهم الجائرة سيرتهم ونحن بمعزل عنها . ونشاركُكم في اكثر الخصال المحمودة والاخلاق الجميلة والسُّنن العادلة . وذلك ان اوَّل شيء ذكرت وافتخرت بهِ ان منكم الملوك والرؤساء ولكم اعوان وجنود ورعية . اوما علمتَ بان لجماعة النَّحل ولجماعة النمل ولجماعة السباع ولجماعة

الطيور رؤساء وجنودًا واعوانًا ورعية وانّ رؤساءها احسن سياسةً واشدّ رعاية من ملوك بني ادم لها واشدّ تحننًا عليها واكثر رافةً وشفقة عليها. بيان ذلك انّ اكثر ملوك الانس ورؤساءهم لا ينظر في امور رعيته وجنوده واعوانه الّا لجرّ المنفعة لنفسهِ او لدفع المضرّة عنهُ او لاجل من يهواه لشهواتهِ كائنًا من كان من بعيد او قريب. ولا يتفكّر بعد ذلك في احدٍ ولا يهمّهُ امرهُ كائنًا من كان قريبًا او بعيدًا. وليس هذا من فعل الملوك العقلاء ولا عمل الرؤساء ذوي السياسة الرحماء بل من سياسة الملك وشرائطه وخصال الرئاسة ان يكون الملك والرئيس رحيمًا رؤوفًا لرعيتهِ مشفقًا متحننًا على جنودهِ واعوانهِ اقتداء بسنّة الله الرحمن الرحيم الجواد الكريم الرؤوف الودود لخلقهِ وعبيده كائنًا من كان الذي هو رئيس الرؤساء وملك الملوك. واما اجناس الحيوانات وملوكها ورؤساؤها فهم اكثر اقتداء بسنّةِ الله تعالى من رؤساء الانس وملوكهم. وذلك ان ملك النحل ينظر في امور رعيتهِ وجنودهِ واعوانهِ ويتفقّد احوالهم وهكذا يفعل ملك النمل وملك الكراكي في حراستهِ وطيرانهِ وملك القطا في ورودهِ وصدورهِ. هكذا حكمُ سائر الحيوانات التي لها رؤساء ومدبرون لا يطلبون من رعاياهم عوضًا ولا جزاء فيما يسوسهم بهِ ولا يطلبون من اولادهم برًّا ولا صلة رحم ولا مكافاة كما يطلب بنو ادم من اولادهم البر والمكافاة في تربيتهم لهم. ولكنها تربي اولادها تحننًا عليها وشفقةً ورحمةً لها ورافة بها بل كل ذلك اقتداء بسنّة الله اذ خلق عبيدهُ وانشاهم وربّاهم وانعم عليهم واحسن اليهم واعطاهم من غير سؤال منهم ولم يطلب منهم جزاء ولا شكرًا. ولو لم يكن من سوء طباع الانس وسوء اخلاقهم وسيرتهم الجائرة وعاداتهم الردية واعمالهم السيئة وافعالهم القبيحة ومذاهبهم الردية الضالّة وكفرانهم النعم لما امر الله بقولهِ ان: اشكر لي ولوالديك اليّ المصير. كما لم يأمر اولادنا اذ ليس فيهم العقوق والكفران. وانما يوجه الامر والنهي والوعد والوعيد عليكم معشر الانس دوننا لانكم عبيد سوء يقع منكم الخلاف والكفر والعصيان وانتم بالعبودية اولى منا ونحن بالحرية اولى منكم فمن اين زعمتم انكم ارباب لنا ونحن عبيد لكم

رابعاً الاستدراك . بان يُقابل اعتراضات الخصم

باعتراضات مثلها توهن قواها كقول النعمان لكسرى وكان كسرى ادّعى ان العرب ليس لهم شيء من خصال الدين والدنيا فيأكل بعضهم بعضاً :

امّا (تحاربهم وأكل بعضهم بعضاً وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم) فانما يفعل ذلك من يفعلهُ من الامم اذا آنست من نفسها ضعفاً وتخوّفت نهوض عدوّها اليها بالزّحف . وانهُ انما يكون في المملكة العظيمة اهل بيت واحد يُعرَف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون اليهم امورهم وينقادون لهم بازمتهم . واما العرب فان ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا ان يكونوا ملوكاً اجمعين مع انفتهم من اداء الخراج والوصف بالعسف .

وكقول ابي حمزة الخارجي وبلغهُ ان اهل المدينة يعيبون اصحابهُ لحداثة اسنانهم وخفّة اخلاقهم فصعد المنبر وعليهِ كساء غليظ وهو متنكب قوساً عربية فقال :

يا اهل المدينة بلغني انكم تنتقصون اصحابي قلتم : هم شباب احداث واعرابٌ جُفاة . ولولا معرفتي بضعفِ رايكم وقلّة عقولكم لَاحسنتُ آدابكم . ويحكم يا اهل المدينة وهل كان اصحاب نبيّنا المذكورون في الخير الّا احداثاً شباباً . شباباً والله مكتهلون في شبابهم غضيضة عن الشر اعينهم ثقيلة عن الباطل اقدامهم

خامساً الترجيح . وهو ان يبين ان ما اقترحهُ المدافَع عنهُ من الحسنات يشفع بما اجترحهُ من السيئات او انَّ ما فيهِ من النقص لا يقاس بما فيهِ من الفضل كقول المسيب القريطي :

زعموا انّني قصيرٌ لعمري ما تُكالُ الرّجالُ بالقُفْزانِ
إنّما المرء بِاللِسانِ وبِالقلبِ م وهذا قلبي وهذا لساني

سادساً ردّ الحجة على الخصم . وذلك ان تَعمد الى حجة

الخصم وتبين انها عليهِ لا لهُ كقول ابن سعيد يردّ على ابن حوقل وكان قد نسب اهل الجزيرة الى صغر الاحلام وضعة النفس :

لم أرَ بُدًّا من إثبات هذا الفصل وان كان على اهل بلدي فيهِ من الظلم والتعصب ما لا يخفى ولسان الحال في الرد انطق من لسان البلاغة . وليتَ شعري إذا سُلب اهل هذه الجزيرة العقول والاراء والهِمم والشجاعة . فمن الذين دبَّروها بارائهم وعقولهم مع مراصدة اعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيّف ومن الذين حموها بيسالتهم من الامم المتصلة بهم في داخلها وخارجها نحو ثلاثة اشهر على كلمة واحدة في نصرة الصليب . واني لاعجبُ منهُ اذ كان في زمانٍ قد دَلفت فيهِ عبَّاد الصليب الى الشام والجزيرة وعاثوا كلَّ العيث في بلاد الاسلام حيث الجمهور والقبَّة العظمى حتى انهم دخلوا مدينة حلب وما ادراك وفعلوا فيها ما فعلوا وبلاد الاسلام متصلة بها من كل جهة الى غير ذلك مما هو مسطور في كتب التواريخ ومن اعظم ذلك واشدهُ انهم كانوا يتغلّبون على الحصن من حصون الاسلام التي يتمكنون بها من بسائط بلادهم فيسبون ويأسرون فلا تجتمع هِمم الملوك المجاورة على حسم الداء في ذلك . وقد يستعين بهِ بعضهم على بعض فيتمكن من ذلك الداء الذي لا يطبُّ . وقد كانت جزيرة الاندلس في ذلك الزمان بالضد من البلاد التي ترك وراء ظهرهِ وذلك موجود في تاريخ ابن حيَّان وغيرهِ

سابعًا التهكم والهزل . بان تبين انَّ ما جاء بهِ الخصم من الادلة ليس تحتهُ طائل فلا يستحقُّ جوابًا بل السكوت عنهُ أولى وفقًا لما قيل :

اذا نطق السفيهُ فلا تُجبهُ فخيرٌ من اجابتهِ السكوتُ

ومن الامثال في هذا الباب قول علي لمعاوية وكان تهدَّدهُ بالحرب :

وذكرتَ انهُ ليس لي ولاصحابي الَّا السيف . فلقد اضحكتَ بعد استعبار متى الفيتَ بني عبد المطلب عن الاعداء ناكلين وبالسيوف مخوفين . فَلبّثْ قليلًا

يلحق الهيجاء حمل . فيطلبك من تطلب ويقرب منك ما تستبعد . وانا مرقل نحوك في جحفل من المهاجرين والانصار والتابعين لهم بإحسان شديدٍ زحامُهم ساطع قتامهم متسربلين سربال الموت احبُّ اللقاء اليهم لقاء ربهم قد صحبتهم ذرية بدرية وسيوف هاشمية قد عرفتَ مواقع نصالها في اخيك وخالك وجدك واهلك وما هي من الظالمين ببعيد

س ما الذي ينبغي للخطيب ان يحترز منهُ في تفنيد حجج الخصم

ج ينبغي لهُ ان يصون نفسهُ من اربع خصال :

الاولى . ان لا يؤخذ من ردهِ انهُ غافلٌ عن حجة خصمهِ يجهل قوتها او يتجاهل بذلك

الثانية . الأ يكون جوابهُ ملتبساً ضعيفاً اظهرَ تكلفاً لمناظرة الخصم منهُ لاظهار الصواب وتقرير الحق

الثالثة . الأ يشرد عن الموضوع فيتشاغل بحلّ ما لم يكلفهُ الخصمُ حلَّهُ فيكون كالراقم على صفحات الماء

الرابعة . الأ ينكب عن محجة الآداب المانوسة ويذهل عن سنن الالفة

الباب الثالث

في الختام

س ما هو الختام

ج هو آخر ما ينتهي الى أُذن السامعين من كلام الخطيب

اعلم ان هذا نوع يشترك فيهِ الخطيب والمنشئ والشاعر . وهو يُسمى ايضاً عند البديعيين حسن الختام وحُسن الانتهاء وحُسن المقطع الَّا انَّا نعتبرهُ هُنا من حيث هو خاتمة الخطبة ليس الَّا

س ما هو شرف الختام

ج انَّ شرفهُ عالٍ لحسن وقعهِ في النفوس اذ هو الباقي في ذهن السامعين وآخر ما يتردَّد صداهُ في قلوبهم وبهِ تتمُّ الفائدة . قال الحموي : لا بُدَّ ان يُحسن المتكلم في الختام غاية الاحسان لانهُ آخر ما يبقى في الاسماع وربما حُفظ من دون سائر الكلام في غالب الاحوال فلا يحسن السكوت على غيرهِ وقد ضربوا امثالاً كثيرة مستفيضة في ذلك منها ما ورد في سورة الزلزال :

اذا زلزلت الارض زلزالها . وأخرجت الارض اثقالها . وقال الانسان ما لها . يومئذٍ تحدّث اخبارها بان ربَّك اوحى لها . يومئذٍ يصدر الناس اشتاتاً ليروا اعمالهم فمن يعمل مثقال ذرَّةٍ خيرًا يرهُ ومن يعمل مثقال ذرَّةٍ شرًّا يرهُ

س ما هي غاية الختام

ج فيهِ للخطيب غايتان: الاولى ان يتمَّ اقناعُ السامعين. والثانية ان يهيج بهم الميل الى صنيع ما اذعنوا له

س كم قسماً الختام

ج للختام قسمان يؤخذان من غايتي الخطيب فالأوَّل تلخيص ما جاء بذكرهِ مُفصَّلاً في اثناء الخطاب وبهِ يتم اقناع الجمهور. والثاني تحريك العواطف وبهِ نهاية تأثير القلوب

س ماذا يقتضي ان يلاحظهُ الخطيب في تلخيص الخطبة

ج عليهِ ان يكتفي بذكر اهمّ ما جاء بهِ من البينات في خلال الكلام ومن ثمَّ يبرزها على صورة جديدة واسلوب رشيق لئلاَّ تذهب طلاوةُ الكلام كما ختم بهِ الشيخ جمال الدين الافغانيُّ مقالتهُ في مذهب الطبيعيين فقال:

فتبين مما قررناهُ انَّ الدين وان انحطَّت درجتهُ بين الأديان ووهى اساسهُ فهو افضل من طريقة الدهريّين وامسُّ بالمدنية ونظام الجمعية الانسانية واجمل اثراً في عقد روابط المعاملات. بل في كل شأن يفيد المجتمع الانساني وفي كل ترقٍ بشري الى اية درجة من درجات السعادة في هذه الحياة الاولى

ولما كان نظام الاكوان قد بُني على اساس الحكمة ونظام العالم الانسانيّ جزء من النظام الكوني ألهم الله نفوس البشر ان تفزع الى مقاومة اولئك المفسدين (الدهريين) في اي زمان ظهروا او مدافعة ما يعرض من شرّهم كما ألهمهم الفزع من الحيوانات المفترسة والنفرة من الاغذية السامّة. وانحص حفاظ النظام

المدني الحقيقي وهو الدين لبذل الجهد وافراغ الوسع في محو آثارهم واستئصال ما يغرسون في تعاليمهم. لاجرم ان مزاج الانسان الكبير (يعني عموم النوع) بما اودع الله فيهِ من الشعور الفطري وهو اثر الحكمة الالهية يمحو هؤلاء الخونة ولا يحتمل وجودهم في باطنهِ فيدفعهم كما تدفع الفضلات من المعدة او الذنانة من المخر او النخامة من الصدر. لهذا تراهم وان حلُّوا بعض منازل الارض من زمان بعيد وايَّدهم بعض النفوس الخبيثة من ذوي الشوكة لأغراض سافلة الّا انهم لم يثبتوا ولم يتم لهم امر بل كان عارض السوء منهم كسحاب الصيف كلما ظهر تقشع والنظام الحقيقي لنوع الانسان وهو الدين لم يزل قارًّا راسخًا في جميع الاجيال وعلى اي الاحوال

فلم تبق ريبة ان الدين هو السبب الفرد لسعادة الانسان فلو قام الدين على قواعد الامر الالهي الحق ولم يخالطهُ شيء من اباطيل من يزعمونهُ ولا يعرفونهُ فلا ريب انهُ يكون سببًا في السعادة التامة والنعيم الكامل ويذهب بمعتقديهِ في جوادّ الكمال الصوري والمعنوي ويصعد بهم الى ذروة الفضل الظاهري والباطني ويرفع اعلام المدنية لطلابها. بل يُفيض على المتمدنين من ديم الكمال العقلي والنفسي ما يظفرهم بسعادة الدارين والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم. وهذا اخر ما دعت اليهِ الحاجة من المقابلة بين مذهب الدهريين وبين الدين على وجه عام واثر كل من الامرين في بنية الاجتماع الانساني والله اعلم

س كيف يحصل الخطيب على تمة التأثير في قلوب الجمهور

ج انهُ يحصل على ذلك اذا ما افرغ كنانة مجهودهِ في تحريك الاهواء. فيلتجئ تارة الى التحذير والترهيب واخرى الى الوعد والترغيب. وآنات يحمل السامعين على الرجاء واخرى على الخوف

وخلاصة الكلام عليهِ الّا يترك بابًا الّا ويقرعهُ ولا مسلكًا

الأ وينهجه لينصر راية الحق ويكسر شوكة الباطل حتى يفوز بمبتغاه ويحصل على غاية مُناه . مثال ذلك قول ابي الحليم في ختام خطبة القاها يوم عيد القيامة (وهي ليست في مجموع خطبه):

هلمَّ معاشر المؤمنين لنعتدَّ منذ الآن لاوَّل العالم العتيد، نحلي العقول بمكارم الاخلاق تحلية الاجساد بالجديد، ونصون عرائس النفوس بسدول اردية التقى وحدوره، صون خريدة الاحرار باسبال طيالسة الحياء وستوره، نختم بصدقات الطفر صيامنا. وبصلات البر صلاتنا وقيامنا، نتحرى لقصد صدق المقال، وجميل الطريقة في الخليقة والفعال، نسعى في طلب الحلال سعي الابطال، ونشرع الى الشريعة التي تؤدي الى الكمال، حتى اذا ما اتى المخلص غافر الاوزار والآثام، بسنيّ مجد لا يطلق ولا يرام، حين ترتج السماء باصوارها، وتذعن الخلائق خشيها وجبارها، وتدخل الابرار دار المسارّ، وتلج الاشرار شرار النار، وحين تطوى السماء كالجلباب وتحشر الاجساد في مطامير التراب، ويقدم كل على ما قدم من خطإ او صواب، ويتخلد المخلصون في جنات النعيم والمجرمون في اليم العذاب، تلتقي السيد المسيح المخلص بمصابيح اعمال تضيء بانوارها، ونضارة امال تشيع بالايمان مقابس اسرارها، فتسعف النفوس باما لها واوطارها، وتقر العقول في مقر الحيوة بملكوت السماوات قرارها. جعلكم الله ممن امتطى ركائب السلامة، وزمت لكم نجائب السعادة الى ديار الاقامة، ووخدت بـه مطايا الكمال الى بقاع الكرامة، وكتبت بدء دنياه ذخائر الاعمال في القيامة، فلا برحت قلوبكم فرحة بالاعياد، وعرفكم بركة هذا العيد السعيد الميمون بالرشاد، واصلح بكم وعليكم كل منا من الاضداد والحساد، برحمتك يا ارحم الراحمين

وكقول الرندي في رثائه للاندلس :

يا غافلاً ولـهُ في الدهر موعظـةٌ ان كنت في سنةٍ فالدهر يقظانُ
يا راكبين عتاق الخيل ضامرةً كأنهـا في مجال السبق عقبانُ
أعندكم نبأٌ من اهل اندلسٍ فقد سرى بحديث القوم ركبانُ
كم يستغيثُ بنا المستضعفون وهم قتلى واسرى فما يهتز انسانُ

ماذا التقاطعُ في الاسلام بينكمُ — وانتمُ يا عباد الله اخوانُ
آلا نفوسٌ ابيّاتٌ لها هِمَمٌ — آما على الخير انصارٌ واعوانُ
بالامس كانوا ملوكاً في منازلهم — واليوم هم في بلاد الكفر عُبدانُ
لِمِثل هذا يذوب القلب من كمدٍ — إن كان في القلب إسلامٌ وإيمانُ

الاصل الثالث

في التعبير

بينّا في الجزء الاوّل جميع القواعد اللازمة للمنشئ ليحسن التعبير عن المعاني بالطرق المختلفة

ولمّا كان المنشئ والخطيب بمنزلة واحدة من حيث توجيه الكلام لم تكن للخطيب قواعد خصوصية لتأدية مراده . فلا حاجة لنا اذًا الى تطويل الكلام في هذا الاصل الثالث فنكتفي بما يلي

يتحتّم على الخطيب ان يراعي :

١ً طبقات السامعين فيسبك كلامهُ على ما يلائم احوالهم فيعدل الى السذاجة مع العامّة ويتأنق في المقال مع الخاصّة ويلتجئ الى معاريض الكلام مع الشارد النافر عن استماع خطابهِ ويصرّح في المقال مع المسترشد المستهدي ويُسهب في العبارة مع من يؤثر الاكثار ويوجز مع مُحبّ الاقلال

٢ً اصناف الاقوال الخطبيَّة . لان محور كلام الخطيب يختلف باختلاف الموضوع . ألا تراه طورًا يجدّ وطورًا يهزل

وتارةً يزجر وتارة يشكر وحيناً يمدح وحيناً يقدح الى غير ذلك. وعليهِ فايمًا جهة ارادها ينبغي عليهِ ان يُبرز كلامهُ فيها بلفظ يشاكل المعنى وعبارة تليق بالحال

٣ مقام الخطيب فينظر الى نفسه في كل حال من احواله من حداثة او كهولة وتحنُّك في امور او غرارة وهلمَّ جرًّا ويولي كلامَهُ ما يُستَشَفُّ من ورائهِ موقعهُ من هذه الاحوال

الفصل الثاني

في فنّي الخطابة

تأليف

الاب جبرائيل اده اليسوعي

الفصل الثاني

في فنَّي الخطابة

قد تقدَّم ان صناعة الخطابة تدور على محورَين هما اصول الخطابة وفنَّاها . اما الاصول فقد مرَّ بيانها . فبقي الآن ان نأتي على الكلام في فنَّي الخطابة

للخطابة فنَّانِ . الاول : الفنّ المدَنيّ وهو مخصوص بالاحوال المدنية على اختلاف اجناسها . والثاني : الفنّ الدينيّ وهو دائرٌ على كل ما يتعلق بالدين او يرجع اليه من الخطب

الفن الاول

في الخطابة المدنية

س الى كم تنقسم الخطابة

ج اجناس الخطابة ثلاثة كما انَّ اصناف السامعين ثلاثة . لان الغاية بالقول انما تتوجَّه نحو السامعين . والسامعون لامحالة إمَّا مقصود اقناعهُ وإما مُناظر وإما حاكم . فاذًا القول الخطبيّ ثلاثة : تثبيتيّ ومشوريّ ومشاجريّ (١)

س الى اي شيء يُنظر في كُلّ من هذه الاجناس الثلاثة

ج في التثبيتيّ ينظر الى امرين : مدحٍ وذمٍّ . وفي

(١) هذا التقسيم ينطبق ايضاً على الخطابة الدينية كما سترى في بابها

المشوريّ الى امرين ايضاً : اذنٍ ومنعٍ . والى امرين ايضاً في المشاجريّ : شكايةٍ وتنصُّلٍ

س وما الغايات من هذه الاقاويل الثلاثة

ج لهذه الثلاثة الاقاويل ثلاث غايات . فغاية القول التثبيتيّ الفضيلة والرذيلة . وغاية القول المشوريّ النافع والضارّ . واما القول المشاجريّ فغايته العدل والجور

المعنى ان القول التثبيتي يبيّن وجوب التمسك بالفضيلة ولزوم الاعراض عن الرذيلة . وقِسْ على هذا قولنا : وغاية المشوريّ النافع والضارّ . وقولنا : وغاية المشاجريّ العدل والجور . نريد بذلك ان الغرض من القولين المذكورين بيان ضرورة التعلّق بالنافع والعدل واجتناب الضارّ والجور

س اخبرني عن الزمان الخاصّ بكل من هذه الاقاويل

ج الزمان الحاضر والماضي معاً يختصّان بالقول المُثبت . والمستقبل بالمشير (١) . والماضي بالمشاجري (٢)

(١) لانهُ انما يشير انسان على انسان باشياء معدومة . وقد يَعرِض ان تكون المشورة في الاشياء التي قد كانت لكن من جهة ما يُتوقَّع منها

(٢) لانهُ انما يُتشكَّى من الاشياء التي قد وقعتْ . وان تُشكِّي من امور تُتوقَّع من المُشتكى بهِ فانما تلك شكاية على طريق الاشارة بالنافع في ذلك . فمتى كانت الشكوى في شيء واحد لا من اجل غيره فانما تكون ابدًا في الشيء الذي قد وقع (من كتاب تعريب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد) .

الباب الاول

في القول التثبيتي

القول التثبيتي منه مدح ومنه ذم . وغايتهُ الفضيلة والرذيلة وبه تختص الخطبة المدحية والخطبة التأبينية وخطبة التهنئة وخطبة الشكر وما شاكل ذلك مما يلاحظ المدح والذم

البحث الاول

في الخطبة المدحيَّة

س ما الخطبة المدحية

ج هي التي يُثنى فيها على عظيمٍ او صاحب فضل

س ما هي مصادر المدح

ج مصادر المدح الفضيلة لا غير . امَّا ما سواها من مثل القوَّة والثروة ومآثر الآباء وكَرَم الأُرومة فلا يُمدَح بهِ الَّا بالتبعيَّة للفضيلة لكونهِ مظهرًا لها

س ما هو المنهاج المتَّبع في هذه الخطبة

ج لك في هذه الخطبة منهاجان : علميّ وطبيعيّ

س ما المنهاج العلميّ

ج المنهاج العلميّ ان تُصدّر خطابك بالثناء على بعض

الفضائل او المزايا ثم تتخلّص الى انهـا حازت كمالها في الممدوح . كما لو أتيت بالشجاعة والاقتصاد والبلاغة ثم بيَّنتَ انها من صفات عليّ بن ابي طالب جرى مدحك على هذا المنهاج العلميّ

ومن هنا تعلم ان هذا المنهـاج غير مقيَّد بقيد الزمان

س وما المنهاج الطبيعي

ج وامّا المنهاج الطبيعي فهو ما يُراعى فيـه جانب الخَبَر وترتيب الزمان . وعليه فهو ينقسم الى ازمنـة ثلاثة : الزمان الذي يتقدم حياة الممدوح وزمان حيـاته والزمان الذي يلي وفاته

وكان الاقدمون كَلِفين بهذه الطريقـة وهي في الحق قريبة المأخذ الّا انها اذا لم يعاونها عقل رصين يُحسِن التصرُّف فيهـا وتركيب متين يخرجها من ابتذالها انحطَّت عن درجة البلاغة وسقطت عن الغرض

١ً في الزمان الذي يتقدم حياة الممدوح

س الى اي شيء يُنظر في هذا الزمان

ج يُنظر فيه الى ثلاثة امور: ١ً كرم المحتِد. ٢ً الوطن .

٣ً ما يضاف الى ذلك من الظروف

فان كان الممدوح شريف العُنصر يُثنَ عليهِ بذكر مآثر آبائهِ وتعديد مفاخر اجدادهِ لانَّ تلك المآثر بزورٌ للفضيلة نبتت في تربة النفوس الشريفة . فلو اردت ان تمدح يزيد بن عبد المدَان قلتَ مثلاً :

ان وقفت لأثني على كرمهِ الذي لا يباري فيهِ انسان . وامدح سطوتهُ التي لا يختلف عليها اثنان . اداَّني سياق الكلام . وجرَّتني وحدة النظام . الى ان اذكر مفاخر اجدادهِ العظام . ومآثر سلفائهِ الفخام . هم الذين شيَّدوا الكعبة النجرانيَّة فأمَّنوا كل خائف واجاروا كل ملهوف واطعموا كل جائع وقضوا حاجة كل محتاج وفكّوا الاسرى باموالهم وبذلوا النفوس دون اعراضهم وساقوا كتائبهم الى كلّ معاند وحطموا ديار كلّ مخاصم . وما هو الا سلالة أولئك القوم الذين رفعوا رايات عزّهم فوق كل راية ... فكفاه فخرًا انهُ وريث مكارمهم ... ومُعمّر ما طُمِس من رسوم عظائمهم .. وما لي اقول ذلك وقد زادهم رُقيًا الى ذرى المجد والشرف حتَّى اجتمع لديهِ ما نقصهم وتوفَّر لهُ ما فاتهم

وقد يؤْخذ المدح من دناءة الحسب فيُمدح مَن وصل بنفسهِ الى درجة عالية ولو انهُ كان خامل الذكر . كما قال الشاعر :

ان الفتى مَن يقول ها انا ذا ليس الفتى مَن يقول كان ابي

ومن مواضع المدح الوطن اللهمَّ اذا كان منشأً لقوم مشاهير . فاذا مدحتَ على هذا الاسلوب يوحنا الدمشقي امكنك ان تقول مثلاً :

قد فازت دمشق بالشرف الاثيل . ورُقّيت الى مقام عالٍ جليلٍ . وجرّت ذيل افتخارها على البلاد الشامية . وسحبت مطارف العزّ على المدائن الشرقية . ربت تحت سمائها اعاظم الرجال. وهذّبت اكابر الابطال . منها ظهر جلّة العلماء المدقّقين وفيها كان مثوى البررة الصالحين . ومنزل الاتقياء المتورعين . ولم تلبث ان زادت على ما تقدّم من مزاياها مزيّة واضافت الى ما سلف من مكارمها مكرمة . . . فانبتت في تربتها الصالحة يوحنا هذا الذي يندر ان تاتي لهُ الايام بضريب …

واما الظروف التي تتقدم ميلاد الممدوح فان لك فيها مجالاً فسيحاً فاذا امكنت الحال تصف مثلًا احوال العصر من جهة الدين والسياسة والعلم وما اشبه ذلك ثم تبيّن ما كان من الملاءمة والمناسبة بين ولادة الممدوح والظروف المذكورة

واذا كان قد جرى شيء من الخوارق والمعجزات فعلى المادح ايضًا ان لا يُغفِل ذكرهُ . مثل ذلك ما حدث للقديس امبروز لمَّا ان وقف النحل على شفتيهِ وهو طفل صغير اشارةً الى ان كلامهُ يكون لطيفًا حلوًا ولا حلاوة العسل . ومثله ما ذُكِر في الكتاب المقدَّس عن ميلاد يوحنا المعمدان

٢ً في زمان حياة الممدوح

س ما هي الاشياء التي يُمدح بها الانسان في حياتهِ

ج هي ثلاثة : الفضائل والعلوم والارتياضات الصناعيَّة

س ما هي اولى الفضائل بالمدح

ج اولاها بالمدح التمسك بجانب تقوى الله ومحبة الوطن والبرّ بالوالدين . من ذلك خطبة ابي حمزة بمكة يمدح بها اصحاب رسول المسلمين من حيث تقواهم وتديُّنهم :

يا اهل المدينة قد بلغني مقالتكم في اصحابي وما عبتموه من حداثة أسنانهم . ويحكم وهل كان اصحاب رسول الله المذكورون في الخير الّا احداثًا شبابًا . . . مكتهلون في شبابهم . غضيضة عن الشر اعينهم . ثقيلة عن الباطل ارجلهم . أنضاء عبادة . قد نظر الله اليهم في جوف الليل . منحنية أصلابهم على اجزاء القرآن كلما مرَّ احدهم بآية من ذكر الله شهق خوفًا . كأنَّ زفير جهنم بين اذنيهِ . قد أكلت الارض جباههم وركبهم . ووصلوا كلال الليل بكلال النهار . مصفرَّة الوانهم . ناحلة اجسامهم . من طول القيام وكثرة الصيام

ومنها العدل والحلم . كما لو مدحتَ صلاح الدين وقلت مع من قال :

لقد كان عادلاً رؤوفاً رحيماً ناظرًا للضعيف على القوي . وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء . ويفتح الباب للمتحاكمين حتَّى يصل اليهِ كل احد من كبيرٍ وصغيرٍ وعجوز هرمة وشيخ كبير . وما استغاث اليهِ احد الّا وقف وسمع ظُلامتهُ وكشف قضيَّتهُ واخذ قصَّتهُ

ومنها الكرم والسخاء . قال عمر بن سعيد في سخاء يزيد بن معاوية لما عقد لهُ معاوية البَيعة :

فان يزيد بن معاوية املٌ تأملونهُ وأجلٌ تأمنونهُ . . . وان افتقرتم الى ذات يدهِ اغناكم . . . فهو خلَفُ امير المؤمنين ولا خلف منهُ

ومن الفضائل التي يُمدح بها ان يكون المرء عالي الهمة

متوفِّر النخوة شجاعاً مُقدماً على كبائر الامور وما شاكل ذلك من اصناف المروآت . من ذلك ما جاء في وصف صلاح الدين :

وقد كان صلاح الدين من عظماء الشجعان قوي النفس شديد البأس عظيم الثبات وكان اذا اشتد الحرب يطوف بين الصفَّين ويخرق للعساكر من الميمنة الى الميسرة ويرتب الاطلاب ويأمرهم بالتقدُّم والوقوف من مواضع يراها

وقال ابو حمزة في خطبة لهُ مدح بها اصحاب الرسول :

اذا رأوا سهام العدو قد فُوّقت ورماحهم قد أشرعت وسيوفهم قد انتُضيت وبرقت الكتيبة ورعدت بصواعق الموت استهانوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله . فمضى الشاب منهم قَدَماً حتى تختلف رجلاه على عنق فرسهِ وقد رُمّلت محاسن وجهه بالدماء وعُفّر جبينهُ بالثرى واسرع اليهِ سباع الارض وانحطت عليهِ طير السماء . فكم من مُقلة في منقار طائر طالما بكى صاحبها من خشية الله . وكم من كفّ بانت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في سجودهِ . وكم من خدّ عتيق وجبين رقيق قد فُلِقَ بعمد الحديد . رحمة الله على تلك الابدان وادخل ارواحها في الجنان . . .

س وكيف يُمدح المرء بالعلوم والصنائع

ج بان تذكر ما كان عليه من سَعَة العقل وسرعة الادراك والبراعة في الفنون على اختلاف اجناسها

قال الفتح في الفقيه العالم ابي مروان عبد الملك بن حبيب السلمي :

ايّ شرف لاهل الاندلس واي فخر واي بحر بالعلوم يزخر خلّدت منهُ الاندلس : فقيهاً طالما اباد مجاهل اهلها معالِمَ . واقام فيها العلوم اسواقاً نافقة ونشر منها الوية خافقةً وجلا عن الالباب صدأ الكسل وشحذها شحذ الصوارم والاسل . وتصرَّف في فنون العلوم . . . وسمع بالاندلس وتفقَّه حتّى صار اعلم من فيها وافقه

س أيُمدح المرء ايضاً لثروةٍ او لصفة في جسمه

ج نقول ان المدح بالفضائل النفسية اشرف واصحّ . وبعده المدح بالعلوم والصنائع . وان أُضيف الى هذا كله لواحق عرضية او صفات جسمية كالأُبهة وبسطة الخُلق وسعة الدنيا والجمال كان ذلك جيدًا

قال عبأس في علي بن ابي طالب :

الّا ان لامير المؤمنين اشباهاً اربعة : الاسد الخادر . والبحر الزاخر . والقمر الباهر . والربيع الفاخر : فاما الاسد الخادر فاشبه منهُ صولتهُ ومضاءهُ . واما البحر الزاخر فاشبه منهُ جودهُ وعطاءه . واما القمر الباهر فاشبه منه نورهُ وضياءه . واما الربيع الفاخر فاشبه منهُ حسنهُ وبهاءهُ

٣ً في الزمان الذي يلي وفاة الممدوح

س اذكر ما يُمدح بهِ المرء في اواخر حياته

ج هو اثنان ١ً ما جرى وقت الموت نفسه . ٢ً ما جرى عقيب الموت

س وما يُلاحَظ وقت الموت

ج يلاحظ في اوان الموت ممَّا يحق به المدح امران : نوعيَّة الموت وسببيتهُ . اما النوعيَّة فكما لو مات وهو يخشى الله ولا يرهب المنيَّة على ما يجدُر بالرجل العاقل الفاضل . واما السببية فكما لو مات مدافعاً عن الوطن او مُجاهدًا في سبيل

الله وكذلك لو عاجلته المنون لأتعابٍ عاناها ومشقات قاساها

س الى اي شيء يُنظر عقيب الموت

ج ١ً الى حفلة المأتم وكآبة الاهل والاحباء

قال ابن الجياد في خطبة له:

ففي كل بيت بكاء وانتحاب ونوح والتزام. وحارت الالباب والعقول. فلا صبر هنالك لقد زلّت عن الصبر الاقدام. فعمّ الحزن والاكتئاب وتوارى النور فاظلم الجناب وعاد الاصحاب وكافًا دموعهم السحاب

وكذلك لو قلت مع القائل:

خبر عزّ على النفوس مسمعهُ وآثر في القلوب موقعهُ. خبر كادت له القلوب تطير والعقول تطيش والنفوس تطيح. خبر جرح الصدر واحلّ البكاء وحرم الصبر واطار واقع السكون واثار كامن الوجوم وثقلت وطأتهُ على اجزاء النفس وتأدّت معرّتهُ الى سرّ القلب. كتبتُ والارض واجفة والشمس كاسفة للرزء العظيم والمصاب الجسيم في فلك الملك وركن المجد وقريع الشرق والغرب

٢ً الى الذريّة فيُثنى عليهم ببقائهم خلفًا حسنًا للميت كقولك مثلًا:

اذا فارقنا مَن كنّا بهِ نفتخر وبهِ نتعظّم واليهِ نلجأ.. مَن كان ذخرًا في المهمّات وسندًا في البليات.. فارقنا ولكن لم يفارقنا كُلُّهُ. خلّف لنا اعقابًا كُرَماء فيهم نرى مثال فضائلهِ وصورة نجدتهِ ونموذج كرمهِ

تنبيه. ينبغي على المادح ان يسلك طريقة الافصاح والاشادة بذكر الممدوح وان يستعمل في المدح الاشياء التي يكون فيها تعظيم الشيء وتتميمه. وهو ان يخيّل في الشيء انه بالقوّة اشياء كثيرة. وذلك اذا قيل ان الممدوح هو اوّل من

فعل هذا او انهُ وحده فعل هذا او انه فعل في زمن يسير ما شأنهُ ان يُفعَل في زمن كثير. او انه فعل فعلاً كبيرًا. وكذلك اذا قيل انه فعل في زمن يعسُر فعلهُ. فان هذه كلها انَّما تفيد عظم الفعل (١)

ممَّا ذكرنا من قوانين المدح تتبيَّن لك ما هي طريقة الذمّ اي انها عكس الأُولى. والاشياء انمَّا تُعرف باضدادها

البحث الثاني

في الخطبة التأبينيَّة

س ما هي الخطبة التأبينية

ج هي خطبة تُعدِّد بها مآثر ميتٍ يوم مأتمه او يومًا آخر. واجزاؤُها ثلاثة. الاول مدح الميت. الثاني تسلية الاهل والاحباء. الثالث حثّ السامعين على ان يأتمُّوا بفضائل الميت

س كيف تكون المقدمة في هذه الخطبة

ج سبيل المقدمة ان تكون ظاهرة التفجُّع بيِّنة الحسرة مخلوطة بالتلهف والاسف فيستهلّ الخطيب:

(١) من كتاب ارسطاطاليس. تعريب ابن رشد

١ً اما بالالتفات او الهتاف . قام عمر بن عثمان فوقف على شفير قبر جعفر فقال :

رحمك الله يا ابن جعفر ان كنتَ لِرحمك لَواصلًا ولأهل الشرّ لَمبغضًا ولاهل الريبة لَقاليًا . فرحمك الله يوم كنتَ رجلًا ويوم مُتَّ ويوم تُبعثُ حيًّا

وقيل في دفن الاحنف بن قيس :

لله درّك من مجنّ في جَنَن ومُدرَج في كفن . نسأل الذي فجعنا بموتك وابتلانا بفقدك ان يجعل سبيل الخير سبيلك ودليل الرشد دليلك وان يوسّع لك في قبرك ويغفر لك يوم حشرك

٢ً واما ببعض اقوالٍ في زوال الدنيا ودوران دوائرها كما لو قلت :

هو الدهرُ لا يُعجَب من طوارقهِ ولا يُنكَر هجوم بوائقهِ . عطاؤُه في ضمان الارتجاع وحباؤُه في قران الانتزاع . ما الدنيا الا دار النقلة وما المقام فيها الا للرحلة

٣ً وربما ابتدأ بوصف ما يراه من الحزن والكآبة في وجوه الحاضرين او بظروف الزمان الحالية . وعلمتَ ان ما ياتي بهِ لسان الحال اجلب للنفوس واعطف للخواطر

س وكيف يتصرّف الخطيب في الاثبات

ج يذكر الاجزاء الثلاثة اعني مدح الميت وتسلية الأهل وحثّ السامعين . امّا المدح فقد مرّت عليك قواعدهُ (راجع الخطبة المدحية) . وهاك ما خاطب بهِ لسان الدين تربة السلطان ابي الحسن . قال يمدحهُ :

السلام عليك ايها المولى الهمام الذي اوجبت حقهُ العلماء الاعلام وخفقت بعزّ نصره الاعلام وتنافست في انفاذ امره وتهيه السيوف والاقلام . السلام عليك ايها المولى الذي قسم زمانه بين حكم فصل وامضاء نصل واحراز خصل وعبادة قامت من اليقين على اصل . السلام عليك يامقرّر الصدقات الجارية ومشبع البطون الجائعة وكاسي الظهور العارية وقادح زناد العزائم الوارية ومكتّب الكتائب الغازية في سبيل الله تعالى والسرايا السارية . السلام عليك يا حجّة الصبر والتسليم ومتلقّي امر الله تعالى بالخلق المرضي والأمر السليم ومفوّض الامر في الشدائد الى السميع العليم . كرّم الله تعالى تربتك وقدّسها وطيّب روحك الذكية وآنسها . فلقد كنت للدهر جمالاً وللمستجير مجيراً وللمظلوم ولياً ونصيراً . لقد كنت للمحارب صدراً وفي المواكب بدراً وللمواهب بحراً وعلى العباد والبلاد ظلّاً ظليلاً وستراً . لقد قرعت اعلام عزك الثنايا واجزلت همّتك لملوك الارض الهدايا . كانك لم تعرض الجنود ولم تنشر البنود ولم تبسط العدل الممدود . فتوسدت الثرى وأطلت الكرى وشربت الكأس التي يشربها الورى وأصبحت ضارع الخدّ كليل الحدّ سالكاً سنن الاب والجدّ لم تجد بعد انصرام أجلك الا صالح عملك ولا صحبت لقبرك الا رابح تجرك وما أسلفت من رضاك وصبرك . فنسأل الله تعالى أن يؤنس اغترابك ويجود بسحاب الرحمة ترابك وينفعك بصدق اليقين ويجعلك من الامة المتّقين ويُعلي درجتك في علّيين ويجعلك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين

واما التسلية فمن اقوى اسبابها ان يظهر الخطيب للمبتلَى

اولاً انهُ مشاركهُ في حزنه ومشاطرهُ الاسى

ثانياً ان يصف ما ابقى الفقيد عند الخاصة والعامة من حسن الصيت وعَرْف الجميل

قال ابو الفضل الميكالي في ابن عمر المجتري :

فلقد عاش نبيه الذكر جليل القدر عَبِقَ الثناء والنشر . يتجمّل به اهل

بلدهِ ويتباهى بمكانهِ ذوو مودّتهِ ويفتخر الاثر وحاملوه بتراخي بقائهِ ومدّتهِ حتَّى اذا تسنَّم ذروة الفضائل والمناقب وظهرت محاسنه كالنجوم الثواقب اختطفتْه يد المقدار ومحت اثرهُ بين الآثار . . فالفضل خاشع الطرف لفقده . والكرم خالي الربع من بعدهِ . والحديث يندب حافظهُ ودارسهُ . وحسن العهد يبكي كافلهُ وحارسه

ثالثًا ان يؤمّل السامعين بوصول الفقيد او بوشك وصولهِ الى محل الرحمة والرضوان

وقف محمد على قبر الحسن وقد اغرورقت عيناه وقال :

رحمك الله يا ابا محمّد فلئن عزّت حياتك فلقد هدت وفاتك . ولنعم الروح روحٌ تضمّنه بدنك . ولنعم الجسد جسدٌ تضمّنه كفنك . ولنعم الكفن كفنٌ تضمنه لحدك . وكيف لا تكون كذلك وانت سليل الهُدَى وخامس اصحاب الكسا . وخلفُ اهل التقى . غذتْكَ اكف الحق ورُبّيتَ في حجر الاسلام ورضعتَ ثُديَ الايمان فطبْتَ حيًّا وميتًا . فلئن كانت الانفس غير طيّبة لفراقك انها غير شاكّة ان قد خِيرَ لك وانك واخاك لسيّدا شباب اهل الجنة . فعليك يا ابا محمّد منا السلام

ثم يذكر ان اهل بيتهِ ورثوا عنهُ تلك الخصال الطيّبة والسجايا المحمودة فهي لا تزال باقية فيهم متوفرة لهم . كما قال لسان الدين في خطبة لهُ :

وليهنئك انّ صير الله تعالى ملكك من بعدك الى نير سعدك وبارق رعدك ومنجز وعدك ارضى وُلْدك وريحانة خلدك وشقة نفسك والرحمة المباركة من غرسك ونور شمسك وموصل عملك البر الى رمسك . فقد ظهر عليهِ اثر دعواتك في خلواتك واعقاب صلواتك . فكلمتُكَ والمنّة لله تعالى باقية وحسنتك الى محل القبول راقية يرعى بك الوسيلة ويتمّم مقاصدك الجميلة . اَعانهُ الله تعالى ببركة رضاك على ما قلّدهُ . وعمّر بتقواه يومهُ وغده . وابعد في السعداء امدهُ . واطلق

بالخير يدهُ . وجعل الملائكة أنصارهُ والاقدار مددهُ

واذا فرغ من التسلية وجب ان ينتقل الى الجزء الثالث ويُرغّب السامعين في الاقتداء بفضائل الفقيد

س كيف تكون الخاتمة

ج يختم مُبيّناً ان فضائل المؤبَّن تُبقي في القلوب ذكرًا مستمرًّا وذلك حتّى يحمل السامعين على شدَّة الاسف لفقده وفرط الاسى لخسرانهِ

هذا وانك لتجد في تأبين داود لشاول ويوناثان على قصرهِ وايجازهِ اهمّ ما سلف من قوانين الخطبة التأبينيَّة وهذا هو بنصهِ الشائق :

الظبي يا اسرائيل مجدّل على روابيك . كيف تصرَّعت الجبابرة . لا تخبروا في جتّ ولا تبشروا في اسواق أشقلون لئلَّا تفرح بنات الفلسطينيين وتطرب بنات القُلْف . يا جبال الجلبوع لا يكن فيكنَّ ندى ولا مطر ولا حقول تقادمَ لانهُ هناك طرح مِجَنُّ الجبابرة مجنّ شاول كأنه لم يمسح بدهن . عن دم القتلى وعن شحم الجبابرة قوس يوناثان لم تنكص الى الوراء وسيف شاول لم يرتدّ خائبًا . شاول ويوناثان محبوبانِ شهيّانِ في حياتهما وفي مماتهما لم يفترقا . أسرع من النسور واشدّ من الاسود . يا بنات اسرائيل ابكينَ على شاول الذي كان يكسوكنَّ القرمز ترفاً ويُرصّع لباسكنَّ بحليّ الذهب . كيف تصرَّعت الجبابرة في وسط الحرب . يوناثان مجدَّل على روابيكِ . قد ضاق ذرعي عليك يا اخي يوناثان لقد كنتَ شهيًّا اليَّ جدًّا وقد احببتُك حبَّ أمٍّ لابنها الوحيد . كيف تصرَّعت الجبابرة وبادت آلات الحرب

البحث الثالث

في خطبة الشكر

س ما خطبة الشكر

ج هي التي تتضمَّن الثناء على المُحسِن بنشر احسانهِ

س كيف تُصاغ هذه الخطبة

ج يحسن ان يكون الكلام فيها منقسماً الى ثلاثة اقسام فالاوَّل ان نبيّن ما اصبناهُ من النعمة ومزيد ارتياحنا الى الشكر. والثاني ان نبيّن برقَّة ولطفٍ ان ذكر الاحسان لا ينفكُّ راسخاً في عقولنا كالرسم على الحجر لا يعفو أثرُهُ. والثالث ان نعظِّم قدر الاحسان

فالجزء الاوَّل محلّهُ في المقدمة والجزء الثاني في الاثبات والثالث في الخاتمة

س وكيف يُعظَّم قدر الاحسان

ج من اربعة اوجه. الاوَّل من قدر المُحسِن كما لو كان ملكاً او وزيراً او عظيماً من عظماء الدنيا. وذلك لان النعمة انما تعظُم قيمتها بعظم المُنعِم وعلوّ شأنهِ

الثاني من قِبَل المُنعَم عليهِ اي اذا خصّهُ المُنعِم بالنعمة

دون سابقة فضل منهُ وعلى حين حاجتهِ اليها

الثالث من قِبل النعمة نفسها . اي اذا كانت في ذاتها صالحة . اذا كانت حقيقة بالمُنعَم عليهِ . اذا توجَّه اليها ارتياحُهُ . اذا كانت ممَّا يندُر او يعسُر الحصول عليهِ

الرابع من نوعيّة التفضُّل بالنعمة كما لو جاء بها المُنعِم عن مُجرَّد رضًى وطيبة خاطر من دون ان يسبق لها التماس ومن غير ان تكون على سبيل مكافأة . وان تكون مُعجَّلة لان خير البرّ عاجلهُ

س أوردْ مثالاً على خطبة الشكر

ج اليك خطبة منذر بن سعيد وهي خطبة بليغة قام بها بين يدي الخليفة :

فاصغوا اليَّ معشر الملا باسماعكم وآتقنوا عنّي بافئدتكم . ان من الحقّ أن يقال للمُحقِّ صدقت وللمبطل كذبت . وان الجليل تعالى في سمائهِ وتقدّس بصفاتهِ واسمائهِ أمر كليمه موسى ان يذكّر قومه بايام الله جلَّ وعزَّ عندهم . واني اذكركم بايام الله عندكم وتلافيهِ لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمَّت شعثكم وامنت سربكم ورفعت قوّتكم بعد أن كنتم قليلًا فكثّركم ومستضعفين فقوّاكم ومستذلّين فنصركم . ولّاه الله رعايتكم وأسند اليهِ امامتكم ايام ضربت الفتنة سرادقها على الافاق واحاطت بكم شعل النفاق حتَّى صرتم في مثل حدقة البعير من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير . فاستبدلتم بخلافته من الشدّة بالرخاء وانتقلتم بيمن سياستهِ الى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء . أنشدكم بالله معاشر الملا ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها والسُّبُل مخوفة فامَّنها والاموال منتهبة فاحرزها وحصَّنها . الم تكن البلاد خراباً فعمَّرها وثغور المسلمين متهضّمة فحماها

ونصرها . فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافتهِ وتلافيهِ جمع كلمتكم بعد افتراقها بامامتهِ حتى اذهب الله عنكم غيظكم وشفى صدوركم وصرتم يدًا على عدوّكم بعد ان كان بأسكم بينكم . فانشدكم الله ألم تكن خلافتهُ قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها . ألم يتلافَ صلاح الامور بنفسهِ بعد اضطراب احوالها . ولم يَكِل ذلك الى القوّاد والاجناد . حتى باشره بالقوّة والمهجة او الاولاد . ورفض الدعة وهي محبوبة . وترك الركون الى الراحة وهي مطلوبة بطوية صحيحة وعزيمة صريحة وبصيرة ثابتة نافذة ثاقبة وريح هابّة غالبة . ونصرة من الله واقعة واجبة . وسلطان قاهر . وجدّ ظاهر . وسيف منصور . تحت عدل مشهور . متحملًا للنصب . مستقلًا لما نالهُ في جانب الله من التعب . حتى لانت الاحوال بعد شدّتها . وانكسرت شوكة الفتنة عند حدّتها . ولم يبق لها غارب الاجبّهُ ولا نجح لاهلها قرن الّا جدّهُ . فاصبحتم بنعمة الله اخوانًا . وبلمّ امير المؤمنين لشعثكم على اعدائهِ اعوانًا . حتّى لو اثرت لديكم الفتوحات . وفتح الله عليكم بخلافتهِ ابواب الخيرات والبركات . وصارت وفود الروم وافدةً عليهِ وعليكم . وآمال الاقصين والادنين مستخدمة اليهِ واليكم . يأتون من كل فجّ عميق . وبلد سحيق . لاخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلًا . ليقضي الله امرًا كان مفعولاً . ولن يخلف الله وعدهُ . ولهذا الامر ما بعده . وتلك اسباب ظاهرة بادية . تدلّ على امور باطنة خافية . دليلها قائم . وجفنها غير نائم . وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم الآية وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب . ولكل نبإ مستقرّ ولكل أجل كتاب . فاحمدوا الله ايها الناس على آلائهِ . واسالوه المزيد من نعمائهِ . فقد اصبحتم بين خلافة امير المؤمنين أيَّدهُ الله بالعصمة والسداد . وألهمهُ خالص التوفيق الى سبيل الرشاد . احسن الناس حالاً . وانعمهم بالاً . وأعزهم قرارًا . وامنعهم دارًا . وأكثفهم جمعًا . واجملهم صنعًا . . .

نقلناها برُمّتها لانها مستوفية لجميع شرائط الشكر . الا ترى انهُ بدأ باظهار فرحه بالنعمة وارتياحهِ الى الشكر : ثمّ تطرّق الى تعظيم قدر الاحسان من جهة المُنعَم عليهم فبيّن

احوالهم وشدَّة حاجاتهم اليه وما صاروا اليه من بعدهِ . واخذ عقيب ذلك يعظِّم النعمــة ببيان قدر المنعِم وما عاناهُ حتى يسَّرها لهم

البحث الرابع

في خطبة التهنئة

س ما هي خطبة التهنئة

ج هي ما تبيّن فيها فرحك للمخاطَب بما اصاب من نعمة ونجح العمل . والطريقة اللازمة المتَّبعة في هذه الخطبة هي: ان تبدي سرورك لنعمة المُهنَّإ . ثم تعظم قدر تلك النعمة . ثم تطلق اللسان بالمدح على المُهنَّإ والدعاء لهُ

فلو شئتَ انشاء خطبةٍ تهنّئ بها سلطانًا على ما اظفرَه الله بعــدوهِ فأوّل ما يتحتم عليك ان تجعل تعابيرك مملوءة حبورًا على ما اناله . ثم تنتقل الى الجزء الثاني فتدخل في تعظيم الانتصار مبيّنًا من جهة لزوم الحرب ووفرة مخاطرها وصعوبة مباشرتها ومن أخرى حسن تصرُّف المهنإ فيها وسرعة دوسهِ لشوكتها وكثرة عدد العدوّ وشدّة بطشه وقوّة اسلحته

مثل ذلك ما قاله بديع الزمان في تهنئة امير المؤمنين بفتح بهاضية

وسنذكرُ من حديث الهند وبلادها . وغلظ اكبادها . وشدّة احقادها . وقوّة اعتقادها . وصدق جلادها وكثرة اجنادها . نُبَذًا ليعلم السامع ايّ غزوة غزاها الامير السيد . انها بلاد لولم تحيها السحابُ بدرّها . لأهلكتها الشمس بحرّها فهي دولة بين الماء والنار . ونوبة بين الشمس والامطار . تقدّمها صعاب الجبال وتحجبها رحاب القفار . ويعصمها ملتفّ الغياض وتحفّها طواغي الانهار . حتى اذا خُرِقت هذه الحُجُب خلص الى عدد الرمال والحصى رجالًا . وشبه الجبال افيالًا وأتراع المخاض جلادًا . ومناف الجمال طعانًا واركان الجبال ثباتًا . ثم لا يعرفون غدرًا ولا بياتًا . ولا يخافون موتًا ولا حياةً . ولا يبالون على اي جنبيهِ وقع الامر وينامون وتحتهم الجمر . وربما عمد احدهم لغير ضرورة داعية ولا حميّة باعثة فاتخذ لراسهِ من الطين اكليلًا . ثم قوّر قحفهُ فحشاهُ فتيلًا . ثم اضرم في الفتيل نارًا ولم يتأوّه والنار تحطمهُ عضوًا فعضوًا وتأكلهُ جزءًا فجزءًا . فاما محرق نفسهِ ومغرقها وآكل لحمهِ . ومفصل عظمهِ . والرامي بها من شاهق . فاكثر من ان يُعدّ . واقلهم من يموت حتف انفهِ فاذا مات هذه الميتة احدهم سُبَّ بها اعقابهُ . وعظم عندهم عقابهُ . بلادٌ هذه حالها . وفيلة تلك اهوالها . وجبالٌ في السماء قلالها . وفلاة يلمع آلها . وغياض ضيّق مجالها . وانهارٌ كثيرة اوحالها . وطريق طويل مطالها . ثم الهند ورجالها . والهندوانيّة واستعمالها . زحم الامير السيد ادام الله ظلهُ هذه الاهوال بمنكبهِ محتسبًا نفسهُ معتمدًا نصر الله وعونهُ فركض اليهم بعون من الله لا يخذل ومددٍ من التوفيق لا يفتر وقلب من الاهوال لا يجبن وحثٍ على المطلوب لا يقصر وسيف على الضريبة لا ينكل : فسهّل الله له الصعب . وكشف بهِ الخطب . ورجع ثانيًا من عنانهِ بالاسارى تنظمهم الاغلال . والسبايا تنقلهم الجمال . والفيلة كانها الجبال . والاموال ولا الرمال . فتحٌ ذخرهُ الله من الملوك السالفة الخالية . الجبابرة العاتية . حتى وسمهُ بناره وجملهُ بعض آثاره

واما الخاتمة فلا بد ان تملأها دعاء للمنتصر سائلاً الله

ان يؤيّد شوكته ويُظفر جنوده ويمتّعه بالغلبة على عدوّه

والطف خاتمـة من هذا القبيل خاتمة خطبة لابي الحليم

اللهمّ زِدْ سيدنا ومولانا امير المؤمنين نصرًا واعتزازًا . وأدم ايام دولتِهِ التي اضحَت على ثوب الزمان طرازًا . واجعل العزّ والاقتدار باطناب سرادقهِ محتفًّا . والنصر والاقبال على ذوائب اعلامهِ منشورًا وملتفًّا . ومطالع السعد مشرقة الاضواء على مواكبهِ . وبنود الظفر خافقةً على جنودهِ وكتائبهِ . ونسائم النصر والاجلال هابّةً على انصارهِ واوليائهِ . وسمائم القهر والاذلال لافحةً لوجوه اضدادهِ واعدائهِ . حتى تمتدّ اظلال دولتِهِ على المغارب والمشارق . ويُذعن لعزّتهِ بالسطوة والعلاء كلُّ ضدٍّ مُباين وعدوٍّ مارق . برحمتك يارحيم الراحمين . آمين

في خُطب أُخر للقول التثبيتي

س اذكر الخطب التي ترجع الى القول التثبيتي

ج ترجع الى القول التثبيتي الخطبة التي تلقى في قدوم كبير او ذهابهِ . والخطب المعروفة عندنا بالتقاريظ . والخطب التي تُتلى في المحافل الادبيَّة عند ادخال عضوٍ جديد فهذه كلُّها تدور امَّا على المدح وامَّا على الشكر واما على تهنئةٍ ولذا مرجعها الى القول التثبيتي

س وايّ طبقة من الانشاء يستخدمها الخطيب في القول المُثبت

ج لمَّا كان الغرض من هذه الاقوال جميعها استرضاء السامع واستجلاب سروره تعيَّن ان يكون انشاؤُها من الطبقة المتوسّطة الانيقة الممسوحة بمسحة الطلاوة والرونق مع تجنُّب التعابير الضخمة والاساليب الجافية

الباب الثاني

في القول المشوريّ

القول المشوريّ منه اذنٌ ومنه منعٌ. وذلك ان كُلّ مَن يُشير فانمَّا يشير ابدًا بقولٍ هو اذنٌ او منع

وغايته النافع والضارّ. فان الذي يشير فانمَّا يأذن في النافع او في الذي هو انفع ويمنع من الضارّ او من الذي هو اضرّ

س وما مادّة القول المشوريّ

ج مادّته كُلّ شيء يأتي عن الاختيار والارادة. فامَّا الاشياء التي كونها او لا كونها من الاضطرار فليس يجري عليها مشورة. ولا ايضًا المشورة تكون في جميع الخيرات الممكنة في الطبيعة بل في الخيرات التي يتعلَّق بنا امكانها او لا امكانها

س ما هي الخُطَب المُختصَّة بالقول المشوريّ

ج هي خطبة الاشارة بعمل الشيء او تركهِ. وخطبة الحثّ على عمل الشيء او تركهِ. وخطبة التحريض على عمل الشيء او تركهِ. وخطبة التوصية. وخطبة الطلب

في خطبة الاشارة بعمل الشيء أو تركهِ

س كيف تُصاغ هذه الخطبة

ج ان الذي يُشير بعمل الشيء فيأذن فيهِ او بتركهِ فيمنع عنهُ يحتاج الى ادلَّة يدفع بها السامعين الى الاقبال على ما يُرّغبهم فيهِ والاعراض عمّا ينفّرهم عنهُ . والادلّة في الاشارة بعمل الشيء هي : كون الشيء صالحًا وكون الشيء نافعًا وكونهُ ضروريًا وكونه سهلًا وكونه لذيذًا

والادلّة في الاشارة بترك الشيء هي اضداد الخمسة المذكورة

س ما المراد بكون الشيء صالحًا

ج هو ان يكون الشيء محبوبًا ممدَّحًا لذاته مُختارًا من اجل نفسهِ مع قطع النظر عن منفعته

وعلى هذا النحو خطب يهوذا جيشهُ قال :

تنطَّقوا وكونوا ذوي بأس وتأهَّبوا للغد لمقابلة هذه الامم المجتمعة علينا لتُبيدنا نحن واقداسنا . فانهُ خير لنا ان نموت في القتال ولا نُعاين الشرّ في قومنا واقداسنا . وكما تكون مشيئتهُ في السماء فليصنعْ بنا

س وما المراد بالنافع

ج هو كل ما يُرغَب فيهِ لخيرٍ يطلب منه سواء كان نفعهُ مقرونًا بالصلاح ام غير مقرون مثال الاول : الشرف والمجد

والفضيلة . ومثال الثاني : صحة البدن ورغد العيش والأمن من حوادث الدهر

خطب طارق المسلمين وحثهم على الجهاد قال :

واعلموا انكم ان صبرتم على الاشقّ قليلًا استمتعتم بالارفهِ الالذّ طويلًا. وقد بلغكم ما انشأت هذه الجزيرة من الخيرات العميمة . وقد انتخبكم الوليد ابن عبد الملك امير المؤمنين من الابطال عربانًا ... ليكون مغنمها خالصة لكم من دونهِ ومن دون المؤمنين سواكم ....

وهاك ايضاً من باب النافع خطبة منذر بن سعيد يحثّ قومهُ على التزام الطاعة لخليفتهم :

فاستعينوا على صلاح احوالكم بالمناصحة لامامكم والتزام الطاعة لخليفتكم فان من نزع يدًا من الطاعة وسعى في تفريق الجماعة ومرق من الدين فقد خسر الدنيا والاخرة ذلك هو الخسران المبين. وقد علمتم ان في التعلّق بعصمتها والتمسُّك بعروتها حفظ الاموال وحقن الدماء وصلاح الخاصة والدهماء وان بقوام الطاعة تُقام الحدود وتُوفى العهود وبها وصلت الارحام ووضحت الاحكام وبها سدّ الله الخلل وأمن السُّبُلَ ووطأ الاكناف ورفع الاختلاف وبها طاب لكم القرار واطمأنّت بكم الدار. فاعتصموا بما امركم الله بالاعتصام بهِ

س وماذا تفهم بالضروريّ

ج هو ما لا يسلم بدونهِ شرف الانسان حتَّى ولا حياتهُ. وفي هذا الدليل من القوَّة ما لا يُخفى . لان الخطيب قد لا يتَّصل الى ما يُحبّ من السامعين بطريقتي الصالح والنافع . فلا بُدَّ لهُ حينئذٍ من الاستعانة بالدليل من الضروري .

لما بلغ طارقًا دنوّ رُدريق قام في اصحابهِ فحمد الله واثنى عليهِ بما هو اهلهُ ثم حث المسلمين على الجهاد ورغبهم ثم قال :

ايها الناس اين المفرّ . البحر من ورائكم والعدوّ امامكم وليس لكم والله الّا الصدق والصبر . واعلموا انكم في هذه الجزيرة اضيَع من الايتام في مأدُبة اللئام . وقد استقبلكم عدوّكم بجيشهِ . واسلحتهُ واقواتهُ موفورَة وانتم لا وَزَرَ لكم الّا سيوفكم ولا اقوات الّا ما تستخلصونهُ من ايدي عدوكم . وإن امتدّت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم امرًا ذهب ريحكم وتعوّضت القلوب من رُعبها عنكم الجرأة عليكم . فادفعوا عن انفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية . فقد ألقت بهِ اليكم مدينتهُ الحصينة وان انتهاز الفرصة فيهِ لممكن ان سمحتم لانفسكم بالموت . واني لم أُحذّركم امرًا انا عنهُ بنجوةٍ ولا حملتكم على خطّة أرخص متاع فيها النفوس . أبدأُ بنفسي . . . . .

س وما المراد بالسهل

ج هو كُل ما حصّلتَهُ بغير عناء معدود ووصلتَ اليهِ بزمن يسير . فان تحصيل الشيء بدون تعب والوصول اليه باقرب وقت كلاهما من اهمّ بواعث الاقناع في ما يُشار به :

فلما راوا الجيش مقبلًا الى لقائهم قالوا ليهوذا كيف نطيق قتال مثل هذا الجمع القوي ونحن نفرٌ يسير وقد استرخينا اليوم من الصوم . فقال :

ما أسهل ان يُدفَع الكثيرون الى ايدي القليلين وسواءٌ عند إله السماء ان يخلّص بالكثيرين وبالقليلين . فانهُ ليس الظَّفر في الحرب بكثرة الجنود وانما القوّة من السماء . اولئك يأتوننا بجمع من ذوي الشتائم والنفاق ليبيدونا نحن ونساءنا واولادنا ويسلبُونا . واما نحن فنحارب عن نفوسنا وسُننا . وهو يكسرهم امام وجوهنا فلا تخافوهم

س وما مُرادُك باللذيذ

ج اللذيذ كل ما يشتمل على اللذة الصالحة إما في النفس او في الجسد

فلو ان قوماً اجمعوا على مُباشرة الحرب وعمدتَ الى ترغيبهم في السلم ببيان ما ينجم عنها من طمأنينة البال وسعة الصدر ولذة العيش: قلت مثلاً:

حقّاً قضيتُ العجب مما انطوى عليهِ عزمكم . . . تريدون خوض غمَرات الحرب وما ادراكم ما الحرب وما وراءها . . . فان كنتم نسيتم ما في السلم من اللذائذ فها انا اذا اذكركم بهِ لا بل بهِ يذكركم الاهل والاقارب . . . قل ايها الوالد الـديكَ شيءٌ امرّ . . . أالفوادك اثلج من ان تنظر اولادك اشبه بحلقة من حواليكَ يُذيقونكَ حلاوة العيش ويُلذّذونك بأُنس محضرهم . . . فاذا ما نادى منادي الحرب فكل ما تذوقهُ من لذة في ايام طمأنينتك هذه تُصبح منهُ مستلباً . . . . .

الا افيدوني ايها السامعون . الان ثغور الراحة باسمة لكم ووجوه الرغد متهللة وكواكب التوفيق بادية في سمائكم . . . . شملكم مجتمع وأُنسكم متوفر وارزاقكم مصونة . . . وانتم في رياض السلامة تجرّون مطارف العزّ في بحبوحة الراحة . فيالله أَيبقى لكم شيءٌ من هذه اللذائذ اذا ما شمّرت الحرب عن ساقها . . .

وعلى هذا الاسلوب قُلْ في تحبيب الدرس لمن يكون قد غلب عليهِ الكسل :

ارى احوالكَ قد انقلبت وبدّلتَ الاجتهاد بالتهاون . . . . قُلْ لي بعيشك هل تُحسّ اليوم بلذّة الامس . . . كُنتَ بالامس ايّام اجتهادك تغذّي عقلك من ثمر شجرة الاداب وتسقيهِ من صافي زلال العلوم والمعارف . . . . كُنتَ قُرّة عين أُمك وفرجاً لكربة ابيك . كُنتَ في لسان اقرانك مُمدحاً . وفي افواه

الطلبة مثلًا سائرًا . . . . . كلّ ذلك لذائذ ما فوقها للطالب العاقل لذائذ . . .
عجبًا كيف استبدلتَها بهذه المكروهات وما اكره الكسل . . . . .

ومن هذا الباب كلام ايّوب البارّ لمّا تذكر نعمة عيشهِ في ما مضى عليه قال :

مَن لي بمثل الشهور السالفة ومثل الايّام التي كان الله فيها حافظي . يُوقِد مصباحَهُ على رأسي فأسلك الظلمة في نورهِ . على ما كنت ايّام عنفواني والله مجالسي في خبائي . والقدير لم يزل معي وصبيتي يحيطون بي . أغسلُ قدميَّ باللّبن والصخر يُفيض لي انهارًا من الزّيت . أخرجُ الى باب المدينة واتّخذُ في الساحة مجلسي . يراني الشبّان فيتوارونَ والشيوخ يقفون منتصبين . والامراءُ يمسكون عن الكلام ويجعلون ايديهم على افواههم . يتخافت منطق العظماء وتلصق السنتهم باحناكهم . اذا سمعتْ بي اذنٌ غبطتني واذا رأتني عين شهدت لي . لأني كنت أُنجّي البائس المستغيث واليتيم الذي لا معين لهُ . فتحلُّ عليَّ بركة الهالك وأجعلُ قلب الارملة متهلّلًا . لبستُ العدل فكان كسائي وما برح قضائي حلّتي وتاجي . كنتُ عينًا للاعمى ورجلًا للاعرج . وكنتُ ابًا للمساكين . استقصي دعوى مَن لم أعرفهُ . وأحطّم انياب الظالم وانزع فريستهُ من بين اسنانهِ . وكنت اقول اني ساموت في كنّي وكالرمل ازداد ايّامًا . وعروقي منبسطة على المياه والنّدى يبيت على اغصاني وقد تجدّد مجدي لديَّ وازدادت قوسي قوّةً في يدي . يستمعون لي منتظرين وينصتون لمشورتي . وعلى كلامي لا يزيدون واقوالي تقطر عليهم كالنّدى . ينتظرونني كالغيث ويفتحون افواههم كأنّي وليُّ المطر . ابتسم اليهم فلا يصدّقون ولا يطرّحون نور وجهي . اختار طريقهم فاجلس في الصدر وأحلُّ محلَّ الملك من الجيش والمعزّي من النائحين .

امّا الان فقد ضحك مني من يصغرني في الايّام من كنت آنف ان اجعل آباءهم مع كلاب غنمي . . . . . .

هذا في الاشارة بعمل الشيء

ومن الاشـــارة بترك الشيء ما قالهُ تلامذة بيدبا يصدّونهُ عن

ملاقاة دبشليم الملك . قالوا باجمعهم :

ايُّها الفيلسوف الفاضل والحكيم العادل أنت المقدَّم فينا والفاضل علينا وما عسى ان يكون مبلغ رأينا عند رأيك وفهمنا عند فهمك غير آننا نعلم ان السّباحة في الماءِ مع التمساح تغرير والذنب فيهِ لمن دخل عليهِ في موضعهِ . والذي يستخرج السمَّ من ناب الحيَّة فيبتلعهُ فليس الذنب للحيَّة . ومن دخل على الأسد في غابتهِ لم يأمن وثبته . وهذا الملك لم تُفزِّعه النوائب ولم تؤدِّبهُ التجارب . ولسنا نؤمن عليك وعلى انفسنا سطوتهُ . وانَّا نخاف عليكَ من سورتهِ ومبادرتهِ بسوءِ إذا لقيتهُ بغير ما يحبُّ

ومن ذلك ايضاً ما قال يحيي للهادي وكان قد عزم الهادي على ان يخلع اخاهُ هرون من الخلافة ويُبايع لابنهِ جعفر . فصدّهُ عن ذلك يحيي قال :

يا أمير المؤمنين : إنْ فعلتَ حملتَ الناس على نكث الايمان ونقض العهود . وتجرّأ الناس على مثل ذلك . ولو تركتَ أخاك هرون على ولاية العهد ثم بايعت لجعفرٍ بعدهُ كان ذلك أوكد في بيعتهِ .... ولو حدث بك حادث الموت وقد خلعت اخاك و بايعت لابنك جعفرٍ وهو صغيرٌ دون البلوغ أفترى كانت خلافتهُ تصحُّ . وكان مشائخ بني هاشم يرضون ذلك ويسلّمون الخلافة اليهِ . فدعْ هذا الأمر حتَّى تأتيهُ عفواً . ولو لم يكن المهديُّ بايع لهرون لَوجب أن تبايع أنت لهُ لئلَّا تخرج الخلافة من بني ابيكَ .

وقال يهوذا لاخوتهِ :

ما الفائدة من ان نقتل آخانا ونخفي دمهُ . تعالوا نبيعهُ للاسماعيليين ولا تكن ايدينا عليهِ لانهُ اخونا ولحمنا .....

وقال الفضل ابن العباس (في مشاورة المهدي لاهل بيتهِ في حرب خراسان) يصدّ المهدي عن محاربة خرسان:

ايها المهدي إنَّ وليّ الامور وسائس الحروب ربَّما نحَّى جنودهُ وفرَّق اموالهُ

في غير ما ضيّق امر حربهِ ولا ضغطة حال اضطرّتهُ فيقعُد عند الحاجة اليها وبعد التفرقة لها عديمًا منها فاقدًا لها لا يثق بقوّة . ولا يصول بعدّة ولا يفزعُ الى ثقة. فالراي لك ايها المهديّ وفّقك الله ان تعفيَ خزائنك من الانفاق للاموال وجنودك من مكابدة الاسفار ومقارعة الخطار وتغرير القتال . ولا تسرع للقوم في الاجابة الى ما يطلبون والعطاء لما يسألون فيفسد عليك ادبهم وتجرّئ من رعيّتك غيرهم . ولكن اعزّهم بالحيلة وقاتلهم بالمكيدة وصارعْهم باللّين وخاتلْهم بالرفق . وابرقْ لهم بالقول وارعدْ نحوهم بالفعل . وابعث البعوث وجنّد الجنود وكتّب الكتائب واعقد الالوية وانصب الرّايات . واظهرْ انك موجّه اليهم الجيوش مع احنق قوّادك عليهم واسوئهم اثرًا فيهم . ثم ادسس الرُّسل وابثث الكتب وضعْ بعضهم على طمع من وعدك وبعضًا على خوفٍ من وعيدك . واوقدْ بذلك وأشباههِ نيران التحاسد فيهم واغرسْ اشجار التنافس بينهم . حتى تملأْ القلوب من الوحشة وتنطوي الصدور على البغضة ويدخل كلًّا من كلّ الحذرُ والهيبة . فان مرام الظفر بالغيلة . والقتال بالحيلة . والمناهبة بالكتب والمكايدة بالرُّسل . والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل في القلوب القويّ الموقع من النفوس المعقود بالحجج الموصول بالحيل المبنيّ على اللّين الذي يستميل القلوب ويسترقّ العقول والاراء ويستميل الاهواء ويستدعي المواتاة انفذُ من القتال بظُبات السيوف واسنّة الرماح . كما انّ الوالي الذي يستنزل طاعة رعيّتهِ بالحيل ويفرّق كلمة عدوه بالمكايدة احكم عملًا والطف منظرًا واحسن سياسة من الذي لا ينال ذلك الّا بالقتال والاتلاف للاموال والتغرير والخطار . وليعلم المهدي انهُ ان وجّه لقتالهم رجلًا لم يسر لقتالهم الّا بجنود كثيفة تخرج عن حال شديدة وتُقدِم على اسفار ضيّقة واموال متفرّقة وقوّاد غشّشة ان ائتمنهم استنفدوا مالهُ وان استنصحهم كانوا عليهِ لا لهُ

البحث الثاني

في خطبة الحث على عمل الشيء او تركه

س ما الفرق بين الاشارة بالعمل والحث على العمل

ج توجيه الكلام الى العقل ليقنع هو الاشارة . وتوجيه الكلام الى القلب ليميل هو الحث. اذًا الاشارة تقتضي الاستعانة بالادلّة كما علمتَ والحث يقتضي الاستعانة بتحريك الاهواء

س أيُّ هي الاهواء التي يحرّكها الخطيب في الحث على عمل الشيء

ج على الخطيب ان يُثير

١ً الرجاء

٢ً المحبة والشوق

٣ً المجاراة . وذلك بان يصف لِمن يحثّهُ ما حاز غيرهُ من العزّ والرفعة ليحملهُ على مباراتهِ في ذلك السبيل

وعليه ايضًا ان يبسط الكلام بمدح فضائل من يحثّهم . فان المدح في مثل هذه الخُطَب من اقوى الاسباب التي تُعين الخطيب على الوصول الى غرضهِ من المحثوث

دونك ما قالتهُ ام المكابيين تحثّ ولدها على الموت بشريعة الله

وتُثير فيه المحبة والرجاء والمجاراة :

يا بُنيّ ارحمني انا التي حملتُكَ في جوفها تسعة اشهر وارضعتك ثلاث سنين وعالتكَ وبلّغتكَ الى هذه السنّ وربّتكَ . انظر يا ولدي الى السماء والارض واذا رأيت كل ما فيهما فاعلم ان الله صنع الجميع من العدم وكذلك وُجِد جنس البشر . فلا تخف من هذا الجلّاد لكن كُن مستأهلاً لاخوتك واقبل الموت لأتلقّاك مع اخوتك بالرحمة

وهاكَ مثالاً اخر على تحريك المجاراة — وقاربت ايام متتيا ان يموت فقال لبنيهِ :

لقد اشتدّ التجبّر والعقاب وزمان الانقلاب ووغر الحنق . فالان أيها البنون غاروا للشريعة وابذلوا نفوسكم دون عهد آبائنا . أذكروا اعمال ابائنا التي صنعوها في اجيالهم فتنالوا مجدًا عظيماً واسماً مخلّدًا . الم يكن ابراهيم في التجربة وُجِد مؤمناً فحُسِب لهُ ذلك برًّا . ويوسف في اوان ضيقهِ حفظ الوصيّة فصار سيّدًا على مصر . . .

وممّا قال يهوذا لِمَن معهُ من الرجال يلقي فيهم حسن الثقة بالله :

لا تخافوا كثرتهم ولا تخشوا بطشهم . اذكروا كيف نجا آباؤنا في بحر القلزم حين تتبّعهم فرعون بجيشهِ . فالان لنصرخنَّ الى السماء لعلّهُ يرحمنا ويتذكّر عهد آبائنا ويكسر هذا الجيش امامنا اليوم . فتعلم كل الامم ان لاسرائيل فاديًا ومُخلّصاً

وقال طارق يحثّ المسلمين على فتح الاندلس بعد ان صدّر كلامهُ بالثناء عليهم :

وقد انتخبكم الوليدُ بن عبد الملك امير المؤمنين من الابطال عُربانًا . ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارًا واختانًا . ثقةً منهُ بارتياحكم للطعان . واستماحكم بمجالدة الابطال والفرسان . ليكون حظّهُ منكم ثوابُ الله على إعلاء كلمتهِ وإظهار دينهِ بهذه الجزيرة

ومن الحث ايضاً ما قالهُ هولاكو الى الملك الناصر صاحب حلب يحذرهُ من الخروج عن طاعتهِ ويدعوهُ الى الاقبال على ولايتهِ :

يعلم الملك اننا نحن جند الله في ارضهِ خلقنا وسلّطنا على من حلَّ عليهِ غضبهُ . فليكن لكم فيما مضى معتبر . وبما ذكرناه وقلناه مزدجر . فالحصون بين ايدينا لا تمنع . والعساكر للقائنا لا تضرّ ولا تنفع . ودعاؤكم علينا لا يستجاب ولا يسمع . فاتّعظوا بغيركم . وسلّموا الينا اموركم . قبل ان ينكشف الغطاء . ويحلّ عليكم الخطا . فنحن لا نرحم من شكا . ولا نرق لمن بكا . وقد اخربنا البلاد . وافنينا العباد . وايتمنا الاولاد . وتركنا في الارض الفساد . فعليكم بالهرب . وعلينا بالطلب . فما لكم من سيوفنا خلاص . ولا من سهامنا مناص . فخيولنا سوابق . وسهامنا خوارق . وسيوفنا صواعق . وعقولنا كالجبال . وعددنا كالرمال . فمن طلب منا الامان سلم . ومن طلب الحرب ندم . فان انتم اطعتم امرنا وقبلتم شرطنا كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا . وان انتم خالفتم امرنا وفي غيّكم تماديتم فلا تلومونا ولوموا انفسكم . فالله عليكم يا ظالمون فهيّئوا للبلايا جلباباً . وللرزايا اترابا . فقد اعذر من انذر . وانصف من حذّر . لانكم اكلتم الحرام وخنتم بالايمان . . . . فابشروا بالذلّ والهوان . فاليوم تجدون ما كنتم تعملون . سيعلم الذين ظلموا ايّ منقلب ينقلبون . فقد ثبت عندكم اننا كفرة . وثبت عندنا انكم فجرة وسلّطنا عليكم مَن بيده الامور مقدّرة . والاحكام مدبّرة . فعزيزكم عندنا ذليل . وغنيكم لدينا فقير . ونحن مالكون الارض شرقاً وغرباً . واصحاب الاموال نهباً وسلباً . واخذنا كل سفينه غصباً . فميّزوا بعقولكم طرق الصواب قبل ان تضرم الكفرة نارها . وترمي بشرارها . فلا تبقى منكم باقية . وتبقى الارض منكم خالية . فقد ايقظناكم . حين راسلناكم . فسارعوا الينا بردّ الجواب بتّة . قبل ان يأتيكم العذاب بغتة . وانتم تعلمون .

البحث الثالث

في خطبة التحريض على عمل الشيء او تركهِ

س ما خطبة التحريض

ج هي خطبة حماسية يُقصد بها تهييج حركات النفوس للوصول لا محالة الى قصد عظيم . وتكون إمَّا على طريقة التهييج مجرَّدًا وإمَّا على سبيل التوبيخ والتقريع

واقوى كلام في التحريض ما قالهُ الحجَّاج : خرج الحجَّاج يريد العراق واليًا عليها في اثني عشر راكبًا على النجائب حتى دخل الكوفة حين انتشر النهار وقد كان بشر بن مروان بعث المهلَّب الى الحرورية فبدأ الحجَّاج بالمسجد فدخلهُ ثم صعد المنبر وهو ملثَّم بعمامة حمراء فقال : عليَّ بالناس . فحسبوه واصحابهُ خوارج فهمُّوا بهِ حتى اذا اجتمع الناس في المسجد قام ثم كشف عن وجههِ ثم قال .

انا ابن جلا وطلَّاع الثنايا
متى اضع العمامة تعرفوني

صليب العود من سلَفَيْ نزارٍ
كنصل السيف وضَّاح الجبينِ

وماذا تبتغي الشعراء منِّي
وقد جاوزت حدَّ الاربعينِ

اخو خمسين مجتمع اشُدِّي
ونجَّدني مداورة الشؤُونِ

واني لا يعود اليَّ قرني
غداة العَبّ الَّا ايَّ حينِ

اَما واني لاحمل الشرَّ بحملهِ واَحذوه بنعلهِ واَجزيه بمثلهِ . واني لارى رؤوسًا قد اَينعت وحان قطافها واني لصاحبها . واني لانظر الدماء بين العمائم واللِحى تترقرق

قد شمَّرت عن ساقها فشمِّري　　هذا أوان الحرب فاشتدّي زِيَمْ
قد لفَّها الليل بسوّاقٍ حُطَم　　ليس براعي إبلٍ ولا غنم
ولا بجزّارٍ على ظهر وضَم

قد لفَّها الليل بعصلبيّ　　أروع خرّاجٍ من الدّويّ
مهاجرٍ ليس بأعرابيّ

قد شمَّرت عن ساقها فشدّوا　　ما عليّ وانا شيخ أدّ
والقوس فيها وترٌ عِردٌّ　　مثل ذراع البكر أو أشدّ

اني يا اهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوئ الاخلاق لا يُغمَز جانبي كتغماز التين ولا يُقعقع لي بالشِّنان . ولقد فررت عن ذكاء وفتّشتُ عن تجربة واجريت مع الغاية . وان أمير المؤمنين نثر كنانتهُ ثم عجم عيدانها فوجدني أمرّها عودًا وأشدّها مكسرًا فوجّهني اليكم ورماكم بي . فانهُ قد طالما أوضعتم في الفتن وسننتم سنن الغي . وايم الله لالحونّكم لحو العصا ولاقرعنّكم قرع المَروة ولاعصبنّكم عصب السلَمة ولاضربنّكم ضرب غرائب الابل . أما لا أعد الّا وفيت ولا أخلق الا فريت . واياي وهذه الزرافات والجماعات وقالـ وقيل وما يقولون وفيم انتم . . . ولتستقيمنّ على طريق الحق او لأدعنّ لكل رجل منكم شغلًا في جسده . من وجدتُهُ بعد ثالثة من بعث المهلب سفكتُ دمهُ وانتهبتُ مالهُ وهدمتُ منزلهُ . . .

ولهُ ايضًا خطبةٌ بعد وقعة دير الجماجم قرّع فيها اصحابَهُ تقريعًا لا مزيد عليهِ :

يا اهل العراق . . . قد اتّخذتم الشيطان دليلًا تتّبعونهُ وقائدًا تُطيعونَهُ ومؤامرًا تستشيرونهُ وكيف تنفعكم تجربة او تعظكم وقعة او يحجزكم اسلامٌ او يردُّكم ايمان . ألستم اصحابي بالاهواز حيث رمتم المكر وسعيتم بالغدر واستجمعتم للكفر وظننتم ان الله يخذُل دينهُ وخلافتهُ . وانا ارميكم بطرفي وانتم تتسللون لِواذًا وتنهزمون سراعًا يوم الزاوية وما يوم الزاوية بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءةُ الله منكم ونكوص وليّهِ عنكم إذ ولّيتم كالإبل الشوارد الى اوطانها النوازع الى أعطانها لا يسأل المرء منكم عن اخيهِ ولا يلوي الشيخ على بنيهِ حتّى عضّكم السلاح وقصمتكم الرماح يوم دير الجماجم وما دير الجماجم بهِ

كانت المعارك والملاحم بضربٍ يُزيل الهام عن مقيلهِ ويذهل الخليل عن خليلهِ .
يا أهلَ العراق أهلَ الكفرات والفجرات والغدرات بعد الختَرات والثورة بعد الثورات إن ابعثكم الى ثغوركم غللتم وخِنتم وان امنتم ارجفتم . وان خفتم نافقتم . لا تذكرون نقمةً ولا تشكرون نعمةً . . . . . . يا اهل العراق هل استخفّكم ناكثٌ او استغواكم غاوٍ او استفزّكم عاصٍ او استنصركم ظالم او استعضدكم خالع إلّا وثقتموهُ وآويتموهُ وعزَّرتموهُ ونصرتموهُ ورضيتموهُ وارضيتموهُ . يا اهل العراق هل شغب شاغب او نعب ناعب او نعق ناعق او زفر زافر إلّا كنتم اتباعهُ وانصارهُ . يا اهل العراق ألم تنهكم المواعظ ألم تزجركم الوقائع . يا اهل الشأم إنما انا لكم كالظليم الذّابّ عن فراخهِ ينفي عنها المَدَر ويباعد عنها الحجر ويكنّها من المطر ويحميها من الضباب ويحرسها من الذباب يا اهل الشأم انتم الجُنّة والرداء وانتم العُدّة والحِذاء

وكذلك ما قالهُ الامام علي بن ابي طالب في ذمّ اصحابهِ :

احمد الله على ما قضى من امرٍ وقدّر من فعل وعلى ابتلائي بكم ايتها الفرقة التي اذا أمرتُ لم تطع . واذا دعوتُ لم تُجِب . إن أُمهلتم خضتم . وان حُوربتم خرتم . وان اجتمع الناس على امام طعنتم وان اجبتم الى مشاقّة نكصتم . لا ابا لغيركم ما تنتظرون بنصركم ربكم والجهاد على حقكم . الموت او الذلّ لكم . فوالله لئن جاء يومي وليأتيني ليفرقنّ بيني وبينكم وانا لكم قالٍ وبكم غير كثير . لله انتم أما دين يجمعكم ولا حمية تشحذكم . او ليس عجباً ان معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونهُ على غير معونة ولا عطاء وانا ادعوكم وانتم تريكة الاسلام وبقيّة الناس الى المعونة وطائفة من العطاء فتفرّقون عني وتختلفون عليّ . انهُ لا يخرج اليكم من امري رضى فترضونهُ ولا سخط فتجتمعون عليهِ . وان أحبّ ما انا لاقٍ اليّ الموتُ . قد دارستُكم الكتاب وفاتحتُكم الحجاج وعرّفتُكم ما انكرتم . وسوّغتُكم ما مججتم . لو كان الاعمى يلحظ او النائم يستيقظ . واقربْ بقومٍ من الجهل بالله قائدهم معاوية ومؤدّبهم ابن النابغة

وقال حمزة في خطبةٍ لهُ بالمدينة :

يا اهل المدينة يا ابناء المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان ما اصحّ اصلكم واسقم فرعكم . كان اباؤكم اهل اليقين واهل المعرفة بالدين والبصائر النافذة

والقلوب الواهية وانتم اهل الضلالة والجهالة . استعبدتكم الدنيا فاذلّتكم والامانيّ فاضلّتكم . فتح الله لكم باب الدين فافسدتموه . واغلق عنكم باب الدنيا ففتحتموه . سراعٌ الى الفتنة بطاءٌ عن السنّة . عُمي عن البرهان . صُمٌّ عن العرفان . عبيد الطمع . حلفاء الجزع . نعمَ ما ورّثكم آباؤكم لو حفظتموه وبئسما تورثون ابناءكم ان تمسكوا بهِ . نصر الله آباءكم على الحق وخذلكم على الباطل . كان عدد آبائكم قليلاً طيّباً وعددكم كثير خبيث . اتبعتم الهوى فارداكم . واللهو فاسهاكم . . . . وقلنا لكم : تعالوا الى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم وجاروا في الحكم فحكموا بغير ما انزل الله . فقلتم : لا نقوى على ذلك وَوَدِدْنا انّا اصبنا من يكفينا . فقلنا : نحن نكفيكم ثم الله راعٍ علينا وعليكم ان ظفرنا لنعطينَّ كل ذي حقّ حقه . فجئنا فاتقينا الرماح بصدورنا والسيوف بوجوهنا فعرضتم لنا دونهم فقاتلتمونا فابعدكم الله . فوالله لوقلتم : لا نعرف الذي تقول ولا نعلمه لكان اعذر ولكن لا عذر للجاهل . ولكن ابى الله الّا ان ينطق بالحق على السنتكم ويأخذكم بهِ في الآخرة

ويندرج تحت الخطبة الحماسيَّة خطبة القوّاد لعساكرهم يُهيجونهم على محاربة العدوّ من غير مبالاة بالخطر .

قال الامام علي بن ابي طالب لاصحابهِ في الحرب :

وايُّ امرءٍ منكم آحسّ من نفسهِ رَباطة جاش عند اللقاء ورأى من احدٍ من اخوانهِ فشلًا فَلْيذُبَّ عن اخيهِ بفضل نجدتهِ التي فضل جا عليهِ كما يذبّ عن نفسهِ فلو شاء الله لجعلهُ مثلهُ . ان الموت طالب حثيث لا يفوتهُ المقيم ولا يعجزهُ الهارب . ان اكرم الموت القتلُ . والذي نفسُ ابن ابي طالب بيدهِ لألفُ ضربة بالسيف اهون عليَّ من ميتة على الفرش . . . وكأني انظر اليكم تكشّون كشيش الضباب لا تاخذون حقّاً ولا تمنعون ضيماً قد خليتم والطريق فالنجاة للمقتحم والهلكة للمتلوّم . . . فقدّموا الدارع وآخّروا الحاسر وعضّوا على الاضراس فانهُ انبأ للسيوف عن الهام . والتووا في اطراف الرماح فانهُ اَمور للاسنة . وغضوا الابصار فانهُ اربط للجاش واسكن للقلوب . وأميتوا الاصوات فانهُ اَطرد للفشل . ورايتكم فلا تميلوها ولا تخلوها ولا تجعلوها الّا بايدي شجعانكم والمانعين الذمار منكم . فان الصابرين على نزول الحقائق هم الذين يحفون براياتهم ويكتنفونها حفافيها

ووراءها وامامها ولا يتأخرون عنها فيسلموها ولا يتقدمون عليها فيفردوها . اجزأ امرؤٌ قرنهُ وآسى اخاهُ بنفسهِ ولم يكِلْ قرنه الى اخيهِ فيجتمع عليهِ قرنهُ وقرن اخيهِ وايم الله لئن فررتم من سيف العاجلة لا تسلموا من سيف الآخرة وانتم لهاميم العرب والسنام الاعظم ان في الفرار موجدة الله والذل اللازم والعار الباقي وان الفارّ لا مزيد في عمرهِ ولا محجوز بينهُ وبين يومهِ الرائح الى الله كالظمآن يرد الماء . الجنة تحت اطراف العوالي . اليوم تُبلى الاخبار والله لأنا اشوق الى لقائهم منهم الى ديارهم . اللهم فان ردُّوا الحق فافضضْ جماعتهم وشتتْ كلمتهم وآبسلهم بخطاياهم انهم لن يزولوا عن مواقفهم دون طعن درَّاك يخرج منهُ النسيم وضرب يفلق الهام ويُطيح العظام ويندر السواعد والأقدام وحتّى يُرموا بالمناسر تتبعها المناسر ويرجموا بالكتائب تقفوها الحلائب وحتى يُجرّ ببلادهم الخميس يتلوهُ الخميس وحتى تدعق الخيول في نواحر ارضهم وباعنان مسارحهم ومسارحهم

ومثلهُ ما جاء لطارق في خطبةٍ لهُ للمسلمين :

. . . وليكون مغنمها خالصةً لكم من دونهِ ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى وليُّ انجادكم على ما يكون لكم ذكرًا في الدارين . واعلموا اني أول مجيبٍ الى ما دعوتكم اليهِ وأني عند ملتقى الجمعين حاملٌ بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتلهُ ان شاء الله تعالى . فاحملوا معي فان هلكتُ بعدهُ فقد كُفيتم امرهُ ولم يُعوِزكم بطلٌ عاقلٌ تُسندون اموركم اليهِ . وان هلكتُ قبل وصولي اليهِ فاخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بانفسكم عليهِ واكتفوا الهمَّ من فتح هذه الجزيرة بقتلهِ

ولما التقى الزحفان وتقارب القوم قام حنظلة ابن ثعلبة فقال :

يا معشر بكر بن وائل إن النشاب الذي مع الاعاجم يفرقكم فاذا ارسلوه لم يخطئكم . فعاجلوهم اللقاء وابدؤوهم بالشدة

ثم قام هانيء بن مسعود فقال :

يا قوم . مهلك مقدور . خير من نجاء معرور . وان الحذر لا يدفع القدر . وان الصبر من اسباب الظفر . المنية ولا الدنية . واستقبال الموت خير من استدباره . والطعن في الثغر . اكرم من الطعن في الدبر . يا قوم جدُّوا فما من الموت بدّ . فتح

لو كان لهُ رجال . اسمع صوتاً ولا ارى قوماً . و يا آل بكر شدّوا واستعدّوا تشدوا والاّ تُردّوا .

ثم قام شريك بن عمرو فقال :

يا قوم انما تهابونهم انكم ترونهم عند الحفاظ اكثر منكم وكذلك انتم في اعينهم . فعليكم بالصبر فان الاسنة تردي الاعنة . يا آل بكر قدماً قدماً

ثم قام عمرو بن جبلة بن باعث فقال :

يا قوم لا تَغررْكم هذي الخرقْ ولا وميض البيض في الشمس برقْ
من لم يقاتل منكم هذا العنقْ فجنّبوهُ الراح واسقوه المرَقْ

البحث الرابع

في خطبة التوصية

س ما خطبة التوصية

ج هي خطبة في صالحِ ثالثٍ

س ما هو المسلك المتّبَع في خطبة التوصية

ج ان تستهلّ بذكر ما أوجب الخطابة في شأن المُوصَى بهِ فتذكر

١ً حسن صفاتهِ من كونهِ محمود السيرة وصادق الامانة ولطيف العشرة الى غير ذلك من المزايا المستوجبة التفات الجمهور الى اسعافهِ

٢ً انه في غاية الاحتياج الى ان يُلتفت اليه

ثم تختم بالشكر وإدامة الاقرار بمعروفهِ من قِبَلك ومن جهة مَن اوصيت به

ومما ينطبق على هذا ما كتب بهِ ابن الخطيب الى شيخهِ ابي عبد الله بن مرزوق التلمساني على سبيل الخطبة قال:

يا سيدي ابقاكم الله تعالى محطَّ الآمال وقبلة الوجوه. وبلّغ سيادتكم ما تؤمّلهُ من فضل الله تعالى وترجوه. وكلأ بعين حفظهِ ذاتكم الفاخرة. وجعل عزّ الدنيا متصلًا لكم بعزّ الآخرة. بعد تقبيل يدكم التي يدها لا تزال تُشكَر. وحسنتها عند الله تعالى تُذكَر. أُنهي الى مقامكم ان الشيخ ابا فلان مع كونهِ مستحقّ التجلّة. بهجرةٍ الى ابوابكم الكريمة قدُمت. ووسائل من اصالة وحشمة كرمت. وفضل ووقار وتنويه للولاية ان كانت ذات احتقار وسنّ اقتضى الفضل برّهُ. وادب شكَرَ الاختبار عليهِ وسرهُ. ولهُ بمعرفة سلفكم الارضيّ وسيلة مرعيّة. وفي الاعتراف بنعمتكم مقامات مرضيّة. وتَوَجّه الى بابكم والتمسك باسبابكم. والمؤمّل من سيدي سترهُ بجناح رعيهِ في حال الكبرة. ولحظهُ بطرف المبرّة. اما في استعمال يليق بذوي الاحتشام. او سكون تحت رعي واهتمام. واعانة على عمل صالح يكون مسكة ختام. وهو احقّ الغرضين بالتزام. واحالة سيدي في حفظهِ رسم مثلهِ. على الله تعالى الذي يجزي المحسنين بفضلهِ. ومنهُ نسأل ان يديم ايام المجلس العليّ محروساً من النوائب. مبلّغ الآمال والمآرب. والمملوك قد قرر شأنهُ في اسعاف المقاصد المأمولة من الشفاعة اليكم. والتحسب في هذه الابواب عليكم. وتقليب القلوب بيد الله تعالى الذي يعطي ويمنع ويملك الأمر اجمع. والسلام

البحث الخامس

في خطبة الطلب

س ما هي خطبة الطلب

ج هي خطابٌ يلتمس فيهِ الخطيب امرًا إما لنفسه وإمَّا لغيره

س ماذا يجب مراعاتهُ في هذه الخُطبة

ج يجب اولًا ان يكون المطلوب سهلًا على المُلتَمس منهُ

ثانيًا ان يكون للمطلوب اسبـاب موجبة

ثالثًا وهو الاخصّ ان يتحاشى الخطيب في طلبهِ حَمْلَ المُلتمَس منهُ على الاشمئزاز والنفور

وبعد هذا ينبغي ان يُنهي الخطبة بالثناء عليهِ راجيًا من الله ان يقدّرهُ على مكافأتهِ

ومن ذلك ما ورد على لسان السمكة لما اختطفها مالك الحزين وقصد الى ابتلاعها (باب الامثال) قالت :

اسمع يا جار الرضا . ومَن عمرنا في صونهِ انقضى . لا تعجل في ابتلاعي . ولا تُسرع في ضياعي . ففي بقائي فوائد وعوائد . عليك عوائد . وهو أنَّ ابي قد مَلك هذا السَّمك فالكلُّ عبيدهُ ورعيّتهُ . وواجبٌ عليهم طاعتهُ ومشيّتهُ . ثمَّ إني واحدُ ابويَّ . وأُريد منكَ الإبقاء عليَّ . فإنَّ ابي نذر النذور . حتى حصلَ لهُ بوجودي السرور . فما في ابتلاعي كبير فائدة . ولا أسُدُّ لك رَمقا . ولا اشغل

لك معدة فتصير مع ابي كما قيل: فافقرَني فيمن أُحبُّ ولا استغني . فالاولى ان اقرَّ عينك . وأُعرِّف ما بين ابي وبينك . فاكون سبباً لعقود المصادقة . وفاتحاً لاغلاق المحبة والمرافقة . وبتحمل لك الجميلة . والمنة التامة والفضيلة . واما انا فاعاهدك ان اعتقتني . ومننت عليَّ واطلقتني . ان اتكفل لك كل يوم بعشر سمكات بيض سمان وَدكات . تأتيك مرفوعة . غير ممنوعة ولا مقطوعة يُرسلها اليك ابي مكافأة لما فعلت بي من غير نصب منكَ ولا وصب . ولا كدّ تتحمَّلهُ ولا تعب

ولما قتلت بنو اسد ملكهم ابا امرئ القيس تجهَّز امرؤُ القيس للفتك بهم فبلغ بني اسد ما يعدُّهُ لهم امرؤُ القيس فاوفدوا عليهِ رجالًا من قبائلهم كهولًا وشبَّانًا فيهم المهاجر بن خداش ابن عمّ عبيد بن الابرش وقبيصة بن نعيم وكان ذا بصيرة بمواقع الامور وردًا واصدارًا يعرف ذلك لهُ من كان محيطاً باكناف بلدهِ من معرب . فلما علم امرؤُ القيس بمكانهم أمر باتزالهم وتقدَّم باكرامهم والافضال عليهم واحتجب عنهم ثلاثاً . فسألهم من حضرهم من رجال كندة . فقال : هو في شغل باخراج ما في خزائن ابيهِ حجر من السلاح والعدَّة . فقالوا : اللهمَّ غفرًا انما قدمنا في أمر نتناسى بهِ ذكر ما سلف ونستدرك بهِ ما فرط فليُبلَّغ ذلك عنا . فخرج عليهم في قباء وخف وعمامة سوداء وكانت العرب لا تعتمّ بالسواد الَّا في الترات . فلما نظروا اليهِ قاموا لهُ وبدر اليهِ قبيصة

انك في المحلّ والقدر والمعرفة بتصرُّف الدهر وما تحدثهُ ايامهُ وتتنقل بهِ احوالهُ بحيث لا تحتاج الى تبصير واعظ ولا تذكرة مجرّب ولك من سودد منصبك وشرف اعراقك وكرم اصلك في العرب محتمل يحتمل ما حمل عليهِ من اقامة

العثرة ورجوع عن هفوة . ولا تجاوز الهمم الى غاية الّا رجعتْ اليك فوجدتْ عندك من فضيلة الراي وبصيرة الفهم وكرم الصفح في الذي كان من الخطب الجليل الذي عَمَّت رزيّتهُ نزارًا واليمن ولم تُخصص كندة بذلك دوننا للشرف البارع . كان لحجر التاج والعمّة فوق الجبين الكريم واخاء الحمد وطيب الشيم . ولو كان يُفدى هالك بالانفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا على مثله ببذل ذلك ولَفَديناه منهُ . ولكن مضى بهِ سبيل لا يرجع أولاه على أخراه ولا يلحق اقصاه ادناه . فاحمد الحالات في ذلك ان تعرف الواجب عليك في احدى خلال . إمّا ان اخترت من بني اسد اشرفها بيتاً واعلاها في بناء المكرمات صوتاً فقُدناه اليك بنسعهِ يذهب مع شفرات حُسامك تنائي قصيدته فيقول : رجل امتُحن جلك عزيز فلم تَستلّ سخيمتهُ الّا بتمكينهِ من الانتقام . او فداء بما يروح من بني اسد من نعَمها فهي ألوف تجاوز الحسبة فكان ذلك فداء رجعت بهِ القضب الى اجفانها لم يرددهُ تسليط الاحن على البراء . وإمّا ان توادعنا حتى تضع الحوامل فنسدل الازر ونعقد الخُمُر فوق الرايات

وهذا مثال ايضاً في الطلب (المقامة الخامسة الكوفية للحريري)

فلما روَّق الليل البهيم . ولم يبقَ الّا التهويم . سمعنا من الباب نبأة مستنبح . ثم تلتها صكة مستفتح . فقلنا مَن الملمُّ . في الليل المدلهمّ . فقال :

يا اَهلَ ذا المَغنى وقيتُمْ شرًّا ... ولا لقيتُمْ ما بقيتُمْ ضُرًّا
قد دَفَعَ اللَّيلُ الذي اكفهرَّا ... الى ذَراكُمْ شَعِثًا مُغبرًّا
اَخا سِفارٍ طالَ واسبطرَّا ... حتى انثنى مُحقَوقِفًا مُصفرًّا
مِثلَ هلالِ الافقِ حينَ افترَّا ... وقد عَرا فِناءَكُمْ مُعترًّا
وأَمَّكُمْ دُونَ الأَنامِ طُرًّا ... يَبغي قِرًى منكم ومُستقرًّا
فَدُونَكُمْ ضيفًا قَنوعًا حُرًّا ... يَرضَى بما احلَولَى وما اَمرَّا
وينثني عنكم يَنُثُّ البرَّا

س وكيف يكون الانشاء في القول المشوريّ

ج يختلف الانشاء باختلاف الخُطَب المُختصّة بهذا الفنّ . فان الخطيب يفتقر في الطلب والتوصية ان يستعمل كُلّ تعبيرٍ لذيذ رقيق ليستميل بهِ المُخاطَب الى الغرض المقصود .

ولا يصحّ مُطلقًا ان يخرج الكلام مخرجًا دنيئًا سافلًا كما يقع لبعض القوم . لأنّ هذا ممّا يحمل على امتهانهِ والاستخفاف بهِ .

وعليهِ ان يتحاشى الاكثار . لان الاكثار ينفر السامع ويعدل بهِ عن اجابة المطلوب .

امّا خطب الاشارة فقد علمتَ انها موجَّهة للعقل . وانت تعرف ان العقل لا يقتنع بحقيقةٍ الّا اذا اكتحل بنور البرهان . فينبغي اذًا للمتكلم في مثل هذه المقامات ان يُودع كُلَّ تعليل يأتي بهِ قوّةً ومتانةً يتمكّن بهما من امتلاك قياد العقل وان يتصرَّف في أدلّتهِ تصرُّفًا لا غاية بعدهُ وذلك بأن يقلّبها الى ما شاء الله من الوجوه المختلفة والاساليب المُتفنّنة

وخُطب الحثّ والتحريض ينبغي ايداعها قوّةً أشدّ ممّا تُودع خُطب الاشارة . فالخطيب يُهيّج تارةً على الحرب وأُخرى على السلم وطورًا يُثير الخوف وآخر يبعث الرجاء وحينًا يُحرّك

المحبَّة وآخر يُخرِج البغضة الى غير ذلك من الاهواء ولا غرْوَ انَّهُ يفتقر في جميع هذا الى تقوية الخطاب تقويةً غريبة بل الى كثرة تفنّن في وجوه الكلام وحسن تصرُّف في هيئة التعبير . ولولا ذلك لَمَا بلغ الحجَّاج من سامعيهِ ما بلغ (في ما مثَّلنا بهِ من الخطب) ولَمَا أثَّر كلامُ عليّ بن ابي طالب في مخاطبيهِ كلَّ ذلك التأثير فدفعهم الى مُلاقاة المنايا واستقبال الحتوف

الباب الثالث

في القول المشاجريّ

القول المشاجريّ صنفانِ : شكاية وتنصّل . وغايته العدل والجور

وفي هذا القول لا بُدَّ للخطيب من شيئين : اتّصافه بصفاتٍ ذاتيَّة . ومعرفته المواضع المختصَّة بهذا الفنّ

البحث الاول

في صفات الخطيب الذاتيَّة

س ما هي صفات الخطيب الذاتيَّة

ج هي ١ً الاستقامة . والمراد بها هنا ان يدافع بكُلّ جهدٍ وغيرة عن الدعوى الآخذ فيها . وان لا يرضى بالمحاماة عن كلّ دعوى يعتقدها خارجة عن العدل او يتوهَّم فيها ذلك

٢ً معرفة الشريعة . وضرورتها لا تَخفى على احد . فمِن اين للخطيب ان يتولَّى المدافعة عن الخصومات وهو يجهل اصول الشرع وقوانين الدولة

٣ً معرفة الدعوى . لانَّ مَن كان جاهلاً شيئاً جاء كلامهُ فيهِ ساقطاً لا يؤدّي الى غرض

البحث الثاني

في مواضع القول المشاجري

س ما هي مواضع القول المشاجري

ج هي ستة : الشرائع . الشهود . الصكوك . السُّمعة . الحَلِف . العقوبة

س وكيف يستخدم الخطباء المواضع من الشرائع

ج لا بدَّ ١ً ان يثنوا على الشرائع بانها الرباط الجامع للجمهور وقوَّة الدوَل وملاذ الحريَّة الخ (١)

(١) قال ابن خلدون في مقدمتهِ :

ان الاجتماع البشري ضروري وهو معنى العمران الذي نتكلم فيهِ وانَّهُ لا بدَّ لهم في الاجتماع من وازع وحاكم يرجعون اليهِ . وحكمهُ فيهم تارةً يكون مستنداً الى شرع منزَّل من عند الله يوجب انقيادهم اليهِ وإيمانهم بالثواب والعقاب الذي جاء بهِ مبلّغهُ وتارةً الى سياسة عقليَّة يوجب انقيادهم اليها ما يتوقّعونهُ من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفتهِ بمصالحهم . . . . وان السياسة العقليَّة تكون على وجهين احدهما تُراعى فيهِ المصالح على العموم ومصالح السلطان في استقامة ملكهِ على الخصوص . . . . . .

٢ً ان يتطرّقوا من ذلك الى مدح واضعي الشريعة

٣ً ان يكشفوا عمّا يلحق بالهيئة الاجتماعيَّـة من الاضرار لو تُرِكَ الناس يُخالفون الشرائع من غير مُعـارض ولا مانع يردّهم (١) مثال ذلك ما لو خطبت في وجوب الشريعة :

ان ضعف الانسان وحريّته ومبلهُ الى الشرّ يستلزم خضوعَهُ لشريعة لا يمكن الاستغناء عنها فهي ضروريَّة لهُ ضرورة السُنن للاجرام الفلكيَّة والارضيَّة غير المتنفّسة . . . . واذا لم يكن الناس مُقيَّدين بشريعة تصدّ القاتل عن القتل والسارق عن السرقة والشهواني عن الفجور . . . . . . آتظنّون انَّهُ يبقى في العالم شيءٌ من النظام والهيئة الاجتماعيَّة . . . لعمركم كما ان الهوا ضروريٌّ للحياة الطبيعيَّة هكذا الشريعة ضروريَّة للحياة الأدبيَّة . . . . لذلك قام في كُلّ زمان رجالٌ تفرّدوا بالعقل والحكمة فوضعوا ما وضعوا من السُنن التي أضحت نور العقل واساس العمران بها توصّـل صاحب الحقّ الى حقّهِ ودفع بها المظلوم الظلمَ عن نفسهِ . . . وبعدها اضحوا وليس من قويٍ يهتضم حقّ ضعيف ولا ضعيف يتطاول الى حقّ قويّ

(١) وقال ابن خلدون في مقدّمتهِ

ان هذا الاجتماع اذا حصل للبشر وتمّ عمران العالم لهم فلا بدّ من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم . وليست السلاح التي جُعلت دافعةً لعدوان الحيوانات بكافيـة في دفع العدوان بينهم لأنّها موجودة لجميعهم . فلا بدَّ من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض . . . . . . فيكون ذلك الوازع واحدًا منهم يكون لهُ عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل احد الى غيرهِ بعدوان وهذا هو معنى الملك . . . وانَّهُ لا بدَّ للبشر من الحكم الوازع . . . وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عنـد الله يأتي بهِ واحدٌ من البشر يكون متميّزًا عنهم بما يودع الله فيهِ من خواصّ هدايتـهِ ليقع التسليم لهُ والقبول منهُ حتّى يتمّ الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ولا تحريب

س وما العمل اذا أُعترض على الخطيب بمادَّة من موادّ الشرع تُخالف ما أتى بهِ

ج يقتضي الامر حينئذٍ ان يظهر بطلانها بمادّة أُخرى او نصّ اخر من نصوص الشرع

وقد يحتمل ان يكون الخصم أورد نصًّا لاثبات دعواه ناقضًا لها من حيث لا يعلم . فينبغي ان يثني عليهِ الخطيب فيحاربهُ بنفس سلاحه

س ما الشهود وكيف يستعينون بالمواضع من الشهود

ج الشهود هم الذين يؤدّون شهادتهم امّا شفاهًا وامّا خطًّا في الشيء المتخاصَم عليه

امّا المصدّقون منهم فهم الذين يعلمون الحق ويقولونه . وعليهِ فلا يوثق بالشهود الّا اذا كانوا عِيانيّين ومستقيمين ومن المشهورين والوجهاء . اذًا لا يُوثق بشهادتهم اذا كانوا

١ً غير محمودي السُّمعة ومتَّصفين بالطيش وخفَّة العقل

٢ً اذا دفعهم الى الشهادة أملٌ او خوف. وغضب او رحمة

٣ً اذا ساقهم اليها البرطيل والرشوة. لان الرشوة كما قال ضياء الدين ابو الفتح تحلّ عقد القلوب وتهوّن فراق المحبوب

٤ً اذا جاءَت شهادتهم متناقضة او مخالفة لغيرهم من الشهود الموثوق بهم او للدلائل الظاهرة

٥ً اذا كانت شهادتهم مأخوذة من طريق الحدس والتخمين

كتب ابو الفضل الهمذاني بديع الزمان الى الشيخ ابي العباس يتشكّى من شهادة شاهدٍ لا ثقة بكلامهِ :

كتابي اطال الله بقاء الشيخ وقليلٌ في الولاء ان احتذي من العين . واتخذ نعلَين . ان يسوقني هذا المساق إلّا الشوق الهائج . والوجد اللّاعج . وانا في هذه الحُرقة كثير الشوق ولكنّي وردتُ . لغير ما اردتُ . إنما ضربتُ في جنب . ما نسبوا اليَّ من الذنب . وطَعَنتُ في عين . ما قُذفتُ بهِ من المَيْن . وخرجتُ على مقام يومين . وسأرِدُ فأُدحِضُ المهمَّة . وأُمحِضُ الخدمة . وأُجدِّد عهدًا بين ذلك . وآخذُ موثقًا من أُولئك . لئلَّا يتَّهمني كلّ ما كذبَ كاذبٌ . او استعملَ كاتبٌ . او شرَعَ حاسدٌ بكفران نعمتهِ . قُلْ لي أيُستحلُّ ان يُسمَع في الحال . ولم يُكشَف فيهِ الحال . وما هذا التصديق لرجل ليس في المروَّة رأسًا ولا في الدين ذنبًا . والله يكفي شاهدًا . وإن كان واحدًا . فامّا غير الله فلا اقلُّ من شاهدَين . ولا كلُّ شاهدَين حتّى يكونا عدلَيْن

س ما الصكوك وكيف يستعملون الموضع منها

ج الصكوك هي مجموع الشهادات والافادات المحفوظة التي تتضمَّن العقود والوثائق والوصيَّة

لايخلو كاتب الصكوك ان يكون صادقًا او مزوِّرًا

فعلى الخطيب ان يثبّت الصكوك الصادقة ويقرّرها او يفنِّد المزوَّرة ويضعّفها إمَّا بتخريجها على تأويل يوافقهُ وإمَّا بايراد شهادات تخالفها او ببيان ما يناقضها من الاحوال

س ما السُمعة وكيف تتخذ المواضع منها

ج السمعة هي إمّا اجماع بلدةٍ أو أُمّة على شيءٍ وإما أُحدوثة مُفتراة يبثها اهل الرداءة فتتناقلها الافواه

فان علمتَ هذا هان عليك استعمال الموضع من السمعة لو انتصب وكيل دعاوٍ امام القاضي ليحامي عن رجل اتُّهم بذنب لامكنهُ ان يقول :

التمس من مولانا القاضي مثال النصفة والعدل ان لا يبرز الحكم على فلان الذي وكّيت المدافعة عنهُ بمجرد ما بلغهُ من الاراجيف والاحاديث المفتراة . اذ لا يغرب عن علم مولاي ان ليس كل ما تتناقلهُ الافواه ملابساً للصحة ولا كل ما يسهل انتشارهُ وجريانهُ على الالسنة ناشئاً عن الحق . ومَن كان مثلهُ ينبغي عليهِ ان لا يُعير اذناً واعية للمرجفين ولا يجعل الابرياء فريسة لمخالب اهل القال والقيل .

س ما الحلِف وكيف تُتناول المواضع منهُ

ج الحلِف هو إشهاد الله على اثبات امرٍ او نفيه

فللخطيب ان يتصرّف هنا في اثبات الحلف او ردّه بمقتضى ما قلناه عن الشهود

س ما هي العقوبة

ج هي قصاص يوجبهُ الحاكم على المذنب او الشاهد أملًا ان ألم العذاب يحملها على الاقرار بالحقّ (١)

(١) قد بطل استعمالها الّا في بعض الاحوال

البحث الثالث

في انواع الخطابة المشاجريّة

هي بحسب الدعاوي نوعان

لان الدعاوي إمَّا جنائيَّة واما مدنيَّة . فالاولى هى شكاية اهل الذنوب والمطالبة بعقوبتهم والثـانية هي المدافعـة عن حقوق الرعيَّة

١ً في الدعاوي الجنائية

س كيف يتصرَّف المشتكي

ج ينبغي ان تكون خطبتهُ غير قاصرة عن الغرض ولا متجاوزة الحدّ بل مطابقة للواقع كل المطابقة فيأتي بذكر كل ما يتوقّف عليهِ بيان كبر الجريمة من الظروف والاحوال

وبعد خمسة ايَّام انحدر حننيا رئيس الكهنة مع بعض الشيوخ وخطيبٍ اسمهُ ترتُلُس وعرضوا لدى الوالي شكواهم على بولس . فلما دُعي طفق ترتلس يشكوهُ قائلًا :

قد نلنا بكَ سلامًا عظيمًا وبعنايتكَ حصلتْ مصالح جمّة لهذه الامّة . فنتقبَّل ذلك في كل وقتٍ وكل مكان بكل شكر يافيلِكس العزيز . ولكن لكي لا أعوّقك بالإطناب أسألك أن تسمع لنا بحلمك قليلًا . إنَّا قد وجدنا هذا الرَّجل مُفسِدًا ومُثير فتنةٍ بين جميع اليهود الذين في المسكونة وإمامًا لشيعة الناصريّين . وقد حاول ايضًا أن ينجّس الهيكل فامسكناهُ وأردنا ان نحاكمهُ بحسب ناموسنـا .

إلَّا أنَّ ليسياس قائد الألف أقبلَ وانتزعهُ من أيدينا بعنف شديد . وأمرَ خصومَهُ بأن يأتوا اليكَ ومنهُ تستطيع اذا فحصتهُ ان تعرف جميع ما نشكوهُ بهِ .

ومن امثلة ذلك ما ورد في المقامة السابعة من مجمع البحرين :

فاشار القاضي الى الرجل وقال تقدَّم فقُلْ . فقال :

يا مولاي لا تُطعِم العبدَ الكُراع . فيطمع في الذراع . ان هذا الشيخ استأجر مني ناقة مهريَّة . في الديار المصريَّة . وقال اذا بلغنا اليمن لا أُسلِمك الزمام . حتى أُسلِمك الاجرة عن تمام . فرخَّصتُ لهُ في النسيئة . وغفلتُ عن الخبيئة . فلما بلغنا مَوطِىء القدم . اذا هو أضبط من عائشة بن عثم . فامسك المطيَّة . فضلًا عن العطيَّة

س وكيف يتصرَّف المُدافع

ج اما ان ينكر الواقع بقولهِ مثلًا : إن زيدًا لم يدخل بيت عمرٍ فيسرق منهُ

واما ان يقرَّ بالواقع مع انكار جريانهِ على ما ادَّعاه المشتكي . كقولهِ مثلاً : لا ينكر احد عليك ان الجيش انهزم ولكن لم يكن ذلك عن خيانة من القائد

وإمَّا ان يقرَّ بالواقع مدافعًا عنهُ بحجة كونه صوابيًا كما لو قال : نعم ان خالدًا قتل يحيي غير انهُ اضطرَّ الى ذلك مدافعةً عن نفسهِ

س وان لم يصحَّ للمدافع استعمال شيء من هذا كلّهِ فما العمل

ج ينبغي عليهِ ان يعتذر عن الفعل بأنَّهُ وقع عن ضرورة

موجبة او اتفاق غير اختياريّ او عن غير عمدٍ وانتباه. او ان يلتمس مُلجأً في محو الذنب بشفاعة ما للمذنب من فضلٍ سابق ويدٍ سالفة

افترضْ انّ رجلاً من اعاظم الرجال لهُ على دولتهِ ووطنهِ احسانات جمّة فقُضي عليهِ لجريمةٍ ارتكبها . فاذا قمتَ مقام المدافع امكنك ان تقول :

لا انكر انّ فلاناً قد اتى جريمةً كبيرة واقترف ذنباً عظيماً واَعلمُ انّ سادتنا القُضاة المتولّين امر الاحكام هم رجال عدول لا يخرجون عن جادّة الانصاف وسبيل الاستقامة . وبالتالي فانّ الحكم الذي ابرزوهُ في حقّهِ هو عادل من كُل وجهٍ مُطابق لاصول الشرع مستوفٍ جميع الشرائط المُقتضاة ... ولكن ان سمحتم لي قلتُ: أَيُنافي العدل ان أُذكّركم بسوابق احسانهِ لدولتنا ووطننا ... أَلم تكن الدولة على شرفٍ خطير ... أَلم تقبل علينا الاعداء بجيوشها الجرّارة .. أَلم يرَ كُلٌّ منّا اسباب الموت منتصبةً ... أَلم توشك الدولة ان تحطّ من رتبتها وتسقط عن درجتها وتلحق بالامم البائدة . هذا نعلمهُ حقّ العلم ونتذكَّرهُ بالخوف والرجفة بينا انّا نتذكّر بالفرح والسرور انهُ هو هو الذي خلّصنا من جميع هذه المهالك . أَيُنافي العدل اذًا ان نُعرض عمّا اتى من الذنب ... أَيخالف الانصاف ان نصفح عن جريمتهِ بشفاعات ما سبق لهُ .. أَما احسانهُ الغير المنسيّ لا يُنسينا عملهُ هذا الجزئيّ ... مالي اطيل مع قُضاةٍ يغارون على صالح الوطن والدولة ويجازون الاحسان بالاحسان . فمحبّةً بالدولة والوطن اقضوا بحكمكم على مَن رفع شأن الدولة وعمّ فضلهُ كلاً من اهل الوطن

ومن كلام المدافع في انكار الواقع ما قالهُ بولس الرسول

فاجاب بولس مدافعاً عن نفسه :

بما أَنّي أَعلمُ بأنّكَ قاضٍ لهذه الامّة منذ سنين كثيرة فبطيب نفسٍ أُجيبُ عن نفسي . انّهُ يمكنكَ ان تعلمَ أَن ليس لي اكثرُ من اثني عشر يوماً

منذ صعدتُ الى أورشليم للعبادة . ولم يجدوني في الهيكل أفاوض احدًا ولا أهيّجُ الجمعَ لا في الجامع ولا في المدينة . ولا يستطيعون أنْ يبرهنوا على ما يشكونني بهِ الآن . ولكنّي أقرّ لكَ اني بحسب الطريقة التي يسمّونها شيعةً اعبدُ اِله آبائي مؤمنًا بكلّ ما كُتب في النّاموس والأنبياء . ومؤمّلًا من الله ما ينتظرونهُ هم ايضًا انها سوفَ تكونُ قيامةٌ للاموات الأبرار منهم والأثمة . لهذا أُدرّبُ نفسي ليكون لي دائمًا ضميرٌ لا عثار بهِ امام الله والناس . وبعد سنين كثيرة جئتُ لأصنعَ صدقاتٍ لأمّتي وأقدّم قرابين . فعلى هذا وجدَني قومٌ من اليهود من آسية متطهرًا في الهيكل لا مع جمعٍ ولا في فتنةٍ . وكان يجبُ عليهم ان يحضروا لديكَ ويشكوا ان كان لهم عليّ شيءٌ . او ليقُلْ هؤلاء ماذا وَجَدُوا فيّ من إثمٍ وأنا قائمٌ امام المحفل سوى هذا القول وحدهُ الذي صحتُ بهِ لمّا وقفتُ بهم اني على قيامة الأموات أُحاكَمُ منكمُ اليوم .

وقال ايضًا بولس :

أنا واقفٌ لدى منبر قيصر وهناك ينبغي أنْ أُحاكَم . اني ما ظلمتُ اليهود بشيء وأنتَ بذلكَ أعلمُ من الجميع . وان كنتُ قد ظلمتُ وصنعتُ شيئًا يوجب الموت فلست استعفي من الموت ولكن ان لم يكن شيءٌ مما يشكونني بهِ فما احد يستطيع أنْ يدفعني اليهم . الى قيصر انا رافع دعواي .

وراجعْ ان شئتَ مدافعــة بولس عن نفســهِ في اعمال الرسل (الفصل السادس والعشرين)

س واما رئيس المجلس فما تكون خطبتهُ

ج يجب ان يتبصّر في الشكوى والمدافعة ويقابل بين حجج المتخاصمين جامعًا في خطبتهِ بين امرَين : الوضوح والعدل .

فقال فَستُس في دعوى بولس

أيها الملك اغريبا وياجميع الرجال الحاضرين معنا أنكم ترون هذا الذي سعى اليَّ بهِ جمهور اليهود كلهُ في أورشليم وهنا . وهم يصيحون انهُ لا ينبغي ان يحيا من بعدُ . اما انا فوجدتُ انهُ لم يصنع شيئًا يوجب الموت ولكن إذْ رفعَ هو دعواه

الى اغسطس قضيتُ بان أُرسِلَهُ . ولم اتيقّن في امره شيئاً اكتبهُ الى السيّد فلهذا احضرتهُ امامكم وخصوصاً امامكَ ايّها الملك اغريبا حتّى انّهُ بعد الفحص عن قضيّتهِ يكون لي ما اكتبُ . لأني ارى من الجهل ان ابعث اسيراً ولا أُبيّن الدعاوي التي عليهِ

ومن قول المشتكي والمدافع ورئيس المجلس ما جاء بهِ الحريري في المقامة الثالثة والعشرين الشعريّة

فركضتُ إثر النظارة حتى وافينا باب الامارة . وهناك صاحب المعونة متربّعاً في دستهِ . ومُروّعاً بسمتهِ . فقال لهُ الشيخ :

أعزّ الله الوالي . وجعل كعبهُ العالي . اني كفلتُ هذا الغلام فطيماً . وربّيتهُ يتيماً . ثمّ لم آلهُ تعليماً . فلمّا مهر وجهر . جرّد سيف العدوان وشهر . ولم إخلهُ يلتوي عليّ ويتّقح . حين يرتوي مني ويلتقح .

فقال لهُ الفتى :

علامَ عثرتَ مني . حتى تنشر هذا الخزيَ عني . فوالله ما سترتُ وجه برّك . ولا هتكتُ حجاب سِرّك . ولا شققتُ عصا أمرك . ولا ألغيتُ تلاوة شكرك .

فقال لهُ الشيخ :

ويلكَ وأيّ ريبٍ أخزى من ريبك . وهل عيبٌ أفحش من عيبك . وقد ادّعيتَ سحري واستلحقتهُ . وانتحلت شعري واسترقتهُ . واسترقاق الشعر عند الشعراء . افظعُ من سرقة البيضاء والصفراء

فقال الوالي للشيخ :

وهل حين سَرقَ سلخَ . ام مسخَ ام نسخَ

فقال :

والذي جعلَ الشعر ديوان العرب . وترجمان الأدب . ما احدثَ سوى ان بترَ شمل شرحهِ . واغارَ على ثُلثَي سرحهِ . . . .

فالتفت الوالي الى الغلام وقال :

تبًّا لكَ من خِرّيجٍ مارِق . وتلميذٍ سارِق

فقال الفتى :

برِئتُ من الأدب وبنيه . ولحقتُ بمن يناويه ويقوّض مبانيه . ان كانت ابياتهُ نمت الى علي . قبلَ ان ألفتُ نظمي . وانما اتفق توارد الخواطر . كما قد يقع الحافر على الحافر . . . . . .

واليك مثالاً آخر في قول كلٍ من المشتكي والمدافع ورئيس المجلس

فبينما انا عند حاكم الاسكندرية . في عشيةٍ عريّة . وقد أحضر مال الصدقات . ليفضّهُ على ذوي الفاقات . اذ دخل شيخ عفريّة . تعتلهُ امرأة مُبصية . فقالت :

ايّد الله القاضي . وادام بهِ التراضي . اني امرأة من اكرم جرثومةٍ . واطهر ارومةٍ . واشرف خؤولةٍ وعمومة . ميسمي الصونُ . وشيمتي الهونُ . وخُلُقي نعم العونُ . وبيني وبين جاراتي بونٌ . وكان ابي اذا خطبني بُناةُ المجد . وارباب الجدّ . سكّتهم وبكّتهم . وعاف وُصلتهم وصِلتهم . واحتجّ بانهُ عاهد الله تعالى بحلفةٍ . ان لا يصاهر غير ذي حرفةٍ . فقيّض القدرُ لنصبي ووصبي ان حضر هذا الخُدعةُ ناديَ ابي . فأقسم بين رهطهِ . انهُ وفقُ شرطهِ . وادّعى انهُ طالما نظمَ درّةً الى درّةٍ . فباعها ببدرةٍ . فاغترّ ابي بزخرفة محالهِ . وزوّجنيهِ قبل اختبار حالهِ . فلما استخرجني من كناسي . ورحّلني عن أُناسي . ونقلني الى كسرهِ . وحصّلني تحت أسرهِ . وجدتهُ قُعدةً جُثَمةً . وألفيتهُ ضجعةً نومةً . وكنتُ صحبتهُ برياشٍ وزيٍّ . واثاثٍ وريٍّ . فما برح يبيعهُ في سوق الهضم . ويُتلِف ثمنهُ في الخضم والقضم . الى ان مزّق مالي بأسرهِ . وأنفق مالي في عُسرهِ . فلما أنساني طعم الراحة . وغادر بيتي أنقى من الراحة . قلتُ لهُ ياهذا انهُ لا مخبأ بعد بوسٍ . ولا عطرَ بعد عروسٍ . فانهض للاكتساب بصناعتك . واجنِني ثمرة براعتك . فزعم انَّ صناعتهُ قد رُميت بالكساد . لِمَا ظهر في الأرض من الفساد . ولي منهُ سلالةٌ . كأنهُ خلالةٌ . وكلانا ما ينالُ معهُ شُبعةً . ولا ترقأ لهُ من الطَّوى دمعةً . وقد قُدتُهُ اليكَ . واحضرتهُ لديكَ . لتعجمَ عُودَ دعواهُ . وتحكم بيننا بما اراك الله

فاقبل القاضي عليهِ وقال لهُ :

قد وعيتُ قَصَصَ عرسِكَ . فبرهن الان عن نفسِكَ . والّا كشفتُ عن لبسكَ . وامرتُ بحبسِكَ

فاطرق اطراق الافعوان . ثم شمَّر للحرب العوان . وقال :

إسمَعْ حديثي فانَّهُ عجبُ ... يُضحِكُ من شرحهِ ويُنتحَبُ
أنا امرؤٌ ليس في خصائصهِ ... عيبٌ ولا في فخارهِ رِيَبُ
سروج داري التي ولدتُ بها ... والأصلُ غسَّانُ حين انتسبُ
وشغلي الدرسُ والتبحُّرُ في الـ ... ـعلم طِلابي وحبَّذا الطَّلَبُ
ورأسُ مالي سحر الكلام الذي ... منهُ يُصاغُ القريضُ والخُطَبُ
أغوصُ في لجَّة البيان فاختارُ اللآلي منهـا وانتخبُ
واجتني اليانع الجنيَّ من الـ ... ـقول وغيري للعُود يحتطبُ
وآخذُ اللفظ فضَّةً فاذا ... ما صُغتـهُ قيل انهُ ذهبُ
وكنتُ من قبلُ أمتري نشبًا ... بالأدب المقتـنى وأجتلبُ
ويمتطي أخمصي لحرمتـهِ ... مراتبًا ليس فوقها رُتَبُ
وطالما زُفَّت الصِلاتُ الى ... ربعي فلم أرضَ كلَّ مَن يهبُ
فاليومَ مَن يعلقُ الرجاءُ بهِ ... أكسدُ شيءٍ في سوقهِ الأدبُ
لا عِرضُ ابنائهِ يُصانُ ولا ... يُرقَبُ فيهم إلٌّ ولا نسبُ
كأنَّهم في عِراصهم جيَفٌ ... يُبعَدُ من نتنها ويُجتنَبُ
فحارَ لبِّي لِمَا مُنيتُ بهِ ... مِنَ الليالي وصرفُهـا عجبُ
وضاقَ ذرعي لضيق ذات يدي ... وساورتني الهمومُ والكُرَبُ
وقادني دهريَ المليمُ إلى ... سلوك ما يستشينهُ الحسَبُ
فبعتُ حتى لم يبقَ لي سَبَدٌ ... ولا بتاتٌ اليـهِ أنقلبُ
وادَّنتُ حتى اثقلتُ ساقتي ... بحمـل دَينٍ من دونهِ العطبُ
ثمَّ طويتُ الحشا على سَغَبٍ ... خمسًا فلمَّا أمضَّني السَّغَبُ
لم ارَ إلّا جهازها عَرَضًا ... اجولُ في بيعهِ واضطربُ
فجلتُ فيهِ والنفس كارهةٌ ... والعينُ عبرى والقلبُ مكتئبُ
وما تجاوزتُ اذ عبثتُ بهِ ... حدَّ التراضي فيحدث الغضبُ

فإن يكنْ غاظها توهُّمها ... انَّ بناني بالنظم تكتسبُ
او انّي اذ عزمتُ خطبتها ... زخرفتُ قولي لينجح الأربُ
فوالذي سارت الرفاق الى ... كعبتهِ تستحثها النُجُبُ
ما المكرُ بالمحصنات من خُلُقي ... ولاشماري التمويهُ والكذِبُ
ولا يدي مذ نشأتُ نيط بها ... إلَّا مواضي اليراع والكتبُ
بل فكرتي تنظم القلائد لا ... كفي وشعري المنظوم لا السُحُبُ
فهذه الحرفة المشار الى ... ما كنتُ احوي بها واجتلبُ
فأذَنْ لشرحي كما اذنتَ لها ... ولا تراقِبْ واحكمْ بما يجبُ

قال فلما أحكم ما شادهُ . واكمل انشادهُ . عطف القاضي الى الفتاة . بعد ان شُعف بالابيات . وقال :

اما انهُ قد ثبت عند جميع الحكام . وولاة الأحكام . انقراض جيل الكرام . وميلُ الأيام الى اللئام . وإني لإخال بعلكِ صدوقاً في الكلام . بريّاً من الملام . وها هو قد اعترف لك بالقرض . وصرّح عن المحض . وبيّن مصداق النظم . وتبيَّن انهُ معروق العظم . وإعنات المُعذِر ملامة . وحبس المعسر مأثمة . وكتمان الفقر زهادة . وانتظار الفرج بالصبر عبادة . فارجعي الى خدركِ . واعذري ابا عذركِ . ونحّي عن غربكِ . وسلّمي لقضاء ربكِ .

٢ً في الدعاوي المدنية

س اي طريقة يتّبعها كلّ من المشتكي والمُدافع

ج على كلّ من المشتكي والمُدافع ان ينطق بما هو مطابق للحقّ والشرع والعدل موضحاً كلّ ذلك باللفظ الصريح والادلة البيِّنة

اذا ادّعى مشتكٍ بصدور حكم لهُ على غريمهِ وطلب تنفيذهُ امكنهُ ان يقول مثلاً :

اعرض على مسامع اهل المجلس انهُ قد صدر لي حكم من اللجنة الفلانيَّة بتاريخ كذا سنة كذا بالزام فلان بدفع مبلغ كذا ومن حيث انَّهُ لم يدفع الى الان فالتمس ان توضَع املاكهُ الثابتة بالمزايدة وتُضبط المنقولة وتُباع عن يد مأمور مخصوص وفقاً للقانون —...

اما الغريم فيمكن ان يردّ عليهِ هكذا :

١ً ان الحكم الذي يدّعي الخصم انَّهُ صادر عليَّ بتاريخ كذا سنة كذا لا علم لي بهِ

٢ً ان هذا الحكم على فرض صحَّة صدورهِ فانَّهُ لم يكن من محكمة قانونيَّة وقد صرَّحت المادة الفلانيَّة من قانون المحاكمات الموقَّت ان الدوائر المشكلة بغير ارادة سنيَّة لا تُعتبر احكامها مطلقاً

٣ً اني لم أُبلَّغ هذا الحكم المزعوم صدورهُ وعليهِ فهو غير مرعيّ الاجراء والتنفيذ كما هو منطوق المادة الفلانيَّة من قانون الاجراء . ومن ثمَّ فاني التمس ايقاف كل معاملةٍ اجرائية يطلبها خصمي المحرر مع تضمينهِ كل ما يلحق بي من المصاريف والاضرار.

وهذه صورة أُخرى في الشكوى

ان لي في ذمة فلان كذا دراهم بموجب سند للامر مؤرَّخ في كذا سنة كذا مؤجل الى خمسة اشهر من تاريخهِ وقد طالبتهُ مرارًا بهذا المبلغ ولم يدفعهُ لي فبناء عليهِ اطلب تحصيلهُ مع فائضهِ القانوني

جواب المدَّعى عليهِ

ان دعوى الخصم بهذا السند للامر غير مسموعة لمضيّ خمس سنوات على حلول اجلها بدون مطالبة وانَّهُ على افتراض عدم مرور الزمن فان ذمّتي بريئة من هذا الدين والخط والختم اللذان فيهِ ليسا خطي وختمي

ومن الدعاوي المدنيَّة ما تجتمع فيهِ الشكاية والمُدافعة معاً كما يحصل ذلك في اوقات الاستئناف والاعتراضات على الاحكام

وهذه صورة استدعاء الاستئناف (بعد الترجمة)

ان فلاناً العثماني التاجر من البلد الفلاني اقام عليَّ الدعوى في محكمة بداية القضاء الفلاني بمبلغ خمسة آلاف قرش بموجب كمبيالة مؤرخة في كذا طالباً مني هذا المبلغ مع فائضهِ واجبت ان دعواهُ غير مسموعة لمرور خمس سنين على تركها وانهُ مع افتراض عدم مرور الزمن عليها فالكمبيالة مفتعلة لاعلم لي بها والخط والختم اللذان فيها ليسا بخطي ولا ختمي وبعد التحقيق غير الاصولي الذي جرى حكمت عليَّ المحكمة بعدم مرور الزمان وبأن الخط والختم هما خطي وختمي وبثبوت هذا المبلغ في ذمتي مع فائضهِ وبمبلغ كذا بدل تعطيل واضرار ومصاريف خصمي مستندةً في ذلك الى اسباب غير اصولية واصدرتْ في ذلك اعلاماً مؤرَّخاً بكذا بُلِّغ اليَّ في كذا وحيث ان هذا الحكم مغاير الأصول وموقع بحقي المغدورية من جهة عدم مراعاة المحكمة اعتراضي بمرور الزمان حال كون المحكمة ممنوعة قانوناً من سماع الدعوى التي مرَّ عليها الزمان جئت ملتمساً استئنافهُ ضمن المدة القانونية باستدعائي هذا المصحوب بسند الكفالة القانونية الذي يضمن لخصمي المرقوم مصاريف المحاكمة والمصاريف السفرية والعطل والاضرار والخسائر التي تتعين قانوناً اذا ظهرت غير مُحقٍّ باستئنافي هذا ملتمساً تبليغ خصمي المرقوم صورة مصدقة عن هذا الاستدعاء وعن اللائحة وعن سند الكفالة المذكورة وجلبهِ للمحكمة الاستئنافية بموجب بوصلة دعوة يتعين فيها يوم المحاكمة لاجل الحكم عليهِ اولاً بقبول استئنافي وانهُ مقدم في مدتهِ موافق لشرائطهِ . ثانياً بفسخ حكم المحكمة المذكور. ثالثاً بالحكم على غريمي المرقوم بمنع دعواه وتضمينهِ ما لحق بي من العطل والاضرار والخسائر والمصاريف والرسومات . .

صورة اللائحة الاعتراضية

(مقدمة من فلان ردًّا واعتراضاً على حكم الاعلام الصادر عليهِ من المحكمة الفلانية المؤرخ في كذا عدد كذا)

انهُ لا يخفى على كل من نظر في هذه الدعوى ان جوهرها محصور في أمرين اولها مرور الزمن القانونيّ عليها والثاني كون المحكمة اخطأت بقرارها في تحويل

السند الى تدقيق الخط والختم لانهُ اذا كان الادعاء بمرور الزمان صادقاً فلا حاجة الى التدقيق بالخط والختم كما يأتي بيان ذلك

ففي الامر الاول اقول

من الغنيّ عن البيان ان دعوى مرور الزمن انما تدفع بالاحتجاج (البروتستو) والمعارضة الاستحفاظية القانونيين المنصوص عليهما في مادة كذا من القانون الفلاني وكلاهما يجب ان يكون على الصورة المختصة بهِ الموضوعة لهُ لا مجرد شكوى والحال ان الورقتين اللتين اظهرهما فلان المدعي وتشبّث بهما لا يقومان مقام الاحتجاج (البروتستو) او المعارضة الاستحفاظية لانَّهُ مقرَّر ان الاحتجاج لا يكون معتبراً ما لم يشتمل على كذا . والمعارضة الاستحفاظية ينبغي ان تشتمل على كذا وهاتان الورقتان لا تشتملان الَّا على بعض ما ذُكر لذلك هما باطلتان لا يُعتدُّ بهما وبالتبعية الحكم الذي بُني عليهما

وفي الامر الثاني اقول : انهُ صريح في مادة كذا من القانون الفلاني ان تدقيق الخط والختم ينبغي ان يكون على الصورة الآتية وهي كذا . وان الاوراق التي تُطبَّق عليها الورقة الواقع عليها النزاع ينبغي ان تكون إما آوراقاً مصدقاً عليها من الخصم وإما اوراقاً مصدَّقاً على صحتها من محلّ رسميّ لذلك يكون هذا التطبيق باطلاً فاقد الاعتبار وكذا الحكم المبنيُّ عليهِ

فالتمس والحالة هذه من محكمة الاستئناف الحكم بابطال الاعلام الابتدائي ومنع دعوى زيد عليَّ وتضمينهُ كل ما لحقني بسبب هذه الدعوى من ضرر وخسارة وتعطيل

الفن الثاني

في الخطابة الدينية

يدور هذا الفنّ على كُلّ ما يتعلّق بالدين او يرجع اليهِ من الخطب ولهُ مزّية على جميع اجناس الخطابة المدنيّة

١ً من حيث الخطيب اذ هو نائب الله يتكلم من قِبَل الله

و٢ً من حيث الموضوع اذ تختصّ هذه الخطابة باهمّ الامور واعظمها وهي الامور الروحيّة

و٣ً من حيث الغاية وهي تمجيد الله وخير النفوس

و٤ً من حيث الفائدة وهي الفوز بالسعادة السرمدية

وفي كلامنا على هذا الفنّ نبحث اولاً عن مصادر الخطابة الدينيّة وثانيًا عن انواع هذه الخطابة

البحث الاول

في مصادر الخطابة الدينية

س ما هي مصادر هذه الخطابة

ج لهذه الخطابة مصادر ثلاثة

الاول الكتاب المقدس وهو المصدر الاعظم في هذا الفنّ. فان كان الخطيب نائب الله كما سبق فلا بدَّ لهُ في قولهِ ان يُعوّل على كلام الله

وكلمة الله تخوّل الخطيب قوةً وسلطةً وتنهض بهِ الى استمالة القلوب وتلقي النور في عقول السامعين

الثاني الآباء القديسون وهم الذين منذ اوائل الكنيسة نشروا معرفة الحقّ وحاموا عن حقائق الدين . فترصَّعوا في سماء البيعة شموس آدابٍ واقمار فضيلةٍ

وعلى الواعظ ان يتبحّر في مؤلفاتهم . فيها يجد العلم الصحيح القويم ومنها يتَّصل الى البلاغة في القول والى القوَّة على الاقناع

الثالث الرسوم الكنائسيَّة وعلم اللاهوت والتاريخ الكنائسيّ .

س ألا يجوز للخطيب ان يستعين بادلَّةٍ يأخذها عن العقل .

ج يجوز لهُ ذلك ولا سيَّما في تفسير الحقائق التي يهتدي اليها العقل من نفسهِ كوجود الله وشرف الفضيلة وضرورة الديانة ولكن لا ينبغي ان يكثّر من استعمال هذه الادلَّة

خشيةَ ان يرفع درجة العلم على مرتبة الوحي

ولهُ ايضاً ان يستخدم التاريخ الدنيويَّ فيستعيرُ منهُ شيئاً اما لمجرَّد طلاوة الكلام او لغرض آخر

هكذا ذكر سنيَري من خطبةٍ لهُ في اثبات قيام الجسد مع النفس ما يأتي :

ورد في التاريخ ان برّوس احد القادة الابطال سمع جُندَهُ يوماً يلقّبونهُ بالنَّسر لسرعة فوزهِ بالاعداء وغلبتهِ على كُلِّ مُناوئٍ لهُ . فكان جوابهُ : انا النَّسر وامَّا انتم فاجنحتي التي اطير بها . —

وعلى ذلك اعتبر الواعظ ان اعضاء الجسد بمنزلة اجنحة للنفس لأنها في الحقيقة لا تستطيع ان تأتي عملًا صغيرًا او كبيرًا من دون مساعدة الجسد ومن ثمَّ اثبتَ في باقي كلامهِ انَّ الجسد يقوم مع النفس في الملكوت

ولا بأس اذا دعت الحاجة ان يتخذ ما يُوافق غرضهُ من العلوم الرياضيَّة

وأمَّا التشابيه والمقابلات المأخوذة من الامور الطبيعيَّة كالحراثة والملاحة والحروب وغيرها من الاشياء المألوفة المعتادة للسامعين فلهُ ان يذكر منها ما شاء جريًا على عادة الآباء القديسين خصوصاً يوحنا فم الذهب . اذ ان تشبيه الحقائق بالامور الماديَّة مما يقرّب تناولها ويمهد سبيل وصولها الى الافهام

قال يوحنا فم الذهب : من خطبة لهُ في الموت

كُلّ من شاء تجديد بيتٍ قديمٍ اَخرَجَ ساكنيهِ لِيَبنيَ البيت بناء جديدًا حسنًا . هكذا الله انَّما يُميت الجسد الحيوانيّ لِيُعيدهُ بعد الموت كرَّةً أخرى ويجعلهُ في حال الكمال هيكلًا بالنفس لا نفقًا

وفي بيان القضية نفسها اخذ مقابلة اخرى وهي :

كما انَّ حبَّة الحنطة اذا لم تَمُت في الارض لا يُرجى منها ان تنبت وتنمي كذلك حالة الجسم . لا بُدَّ ان يعتريه الموت فيبلى حتَّى يقوم مجدَّدًا . فلا تجزع ايُّها الانسان لموت جسدك لانَّ في موتهِ وقتًا حياتهُ دهرًا

البحث الثاني

في انواع هذه الخطابة

س كم هي انواع الخطابة

ج انواع الخطابة الدينية اربعة : خطبة الوعظ والخطبة المدحيَّة وخطبة التأويل والخطبة الجدليَّة

١ً في خطبة الوعظ

س ما خطبة الوعظ

ج هي خطبةٌ في حقيقة من حقائق الايمان

والغايةُ منها إمَّا تفسير هذه الحقيقة وإمَّا نداء الناس الى عمل الخير وتجنُّب الشرّ . فان قُصد الاوَّل كانت الخطبة نظرية

واحتاجت خصوصاً الى ادلّة تُقنع السامعين . وان قُصِدَ الثاني كانت أدبيّة واكثرها في الترغيب في عمل الفضيلة والصرف عن الرذيلة

وكثيرًا ما تكون الخطبة أدبيّة ونظريّة معاً

س اورد مثالاً على الوعظ

ج هذا مُلخَّص عظةٍ لمسيليون الشهير (في ميتة الصالح والشرير)

اذا نظرتَ الى الاهواء البشريّة قضيتَ منها العجب وتحقّقتَ فيها تنافرًا شديدًا . ألا ترى ان الانسان يميل كُلّ الميل الى الحياة ويحسب الموت شرّ الشرور . اهواؤُهُ هي التي تُحبّب اليهِ الحياة ولكنّها هي التي تجلب عليهِ وبال الموت فكأنّي بالانسان لا يحيى الّا ليستعجل الموت .

كُلّ انسان يتمنّى بل يودّ ان يموت ميتة رجلٍ صالحٍ وان كان لا يأمل انّهُ ينعتق قبل دقيقة مماتهِ من الاهواء التي تدنّس بياض نفسهِ ايّام حياتهِ . كُلّ انسانٍ يحسب ان ميتة الشرير شرّ البليات وهو مع ذلك يُمهّدها لنفسهِ آمِنًا مُطمئنًا . يرتجف رُعبًا وَفَرَقًا لمجرَّد التفكُّر في ميتة الشرير وتراهُ مع ذلك يقدّم رجليهِ بل يمشي مرحاً في نفس الطريقة التي تؤدّي اليها . قُل لهولاء انَّ مماتكم مثل حياتكم وكما عشتم تقضون آجالكم

ولاجل ان يهوّل على السامعين صوَّرَ ميتة الشرير باشنع صورة قال :

ان الماضي والحاضر والمُستقبل كُلٌّ منها يُلقي الرُّعب في قلب المحتضَر الشرير اما الماضي فلانَّ الشرير يرى فيهِ بُطلان سعيهِ وراء لذائذهِ ورداءة سلوكهِ وكثرة ما ارتكب من الذنوب والقبائح . . . فيتحسَّر على ما فرّط ولات ساعة تحسُّر.

اما الحاضر فلانَّهُ يُحدث فيهِ حيرةً غريبةً . . . يرى يد الله مرفوعةً فوقهُ . . يرى الدنيا غرّارةً خدّاعةً . . . . يرى الفراق محيطًا بهِ فراق الأهل والاحباء . .

فراق اللذائذ والشهوات . . . فراق نفسهِ من نفسهِ .

وامّا المُستقبل وما ادراك ما المُستقبل : الله من اعلى السماء قاضٍ عادل مريع مهيب . . . وتحت اقدام الشرير نار غضبٍ لا تنطفي على توالي الازمان . . .

وعندها تصرّف الخطيب وقال :

فالخاطي المحتضر اذ لا يرى وتتشذ في ما مضى عليهِ الّا ما يوجب الأسف ولا ينظر في ما بين يديهِ الّا صُوَرًا تملأهُ حزنًا ولا يلاقي في المستقبل الّا مخاوف تُشدّد عليهِ الرُّعب ولا يعلم بمَن يستعين أبالخلائق التي تُفارقهُ أم بالاهل وهم عاجزون عن نجاتهِ أم بالاله الذي يعتقدهُ عدوًّا لهُ . . . يتقلّب على فراش المرض فريسةً لاعظم القلاقل وأشدّها . . . . فتراهُ يجهد في الفرار من الموت ولا فرارَ . . . يبدو عليهِ ما يدلّ على اضطراب نفسهِ . . تسمعهُ يُصعد من اعماق حزنهِ كلمات مُتقطعـة بالشهيق والزفير وما يُدريك ان كانت عن ندامة او عن يأسٍ من رحمة الله . . . يلقي على المصلوب نظراتٍ هائلةً لا تعلم ان كانت عن خوفٍ او رجاء . عن محبةٍ او بغض — . . . . تتولّد منهُ تشنّجات واضطرابات ولا يُعرف ان كانت من انحلال الجسم او عن شعور النفس بوشك قدوم ديّانها . . . . هذا وتشخص عيناهُ وتتبدّل هيئتهُ ويتشنّع وجههُ وينفتح من نفسهِ ذلك الفم الذي علّتهُ غبرة الموت . . . . ويرتجف بدنهُ . . . وتغادر تلك النفس التعيسة جسمَهُ الترابيَّ لتقفَ امام وجه ربّها وتُحاسَب حسابها . . هذه ميتة الشرير فتَجنّبها أيّها الخاطي ان شئتَ ميتة الصالح

وهنا انتقل الى تصوير ميتة الصالح من ثلاثة ابواب ايضاً . قال :

انّ الماضي والحاضر والمُستقبل كُلٌّ منها يملأ الصالح فرحاً وسلوانًا .

يرى في الماضي انّهُ استراح من اتعابهِ . . . .

امّا في الحاضر فلا من شيءٍ الّا ويفرح بهِ . . . يفرح بقرب الفراق لأنّهُ كان يتوقّعهُ . . . وبالاسرار المقدّسة لانها تفتح لهُ ابواب الفردوس . . . .

وما احلى ذكر المستقبل عندهُ لانّهُ يرجو ان يجتمع بالهِ يُحبّهُ فيجازيه على حسناتهِ . . . .

اما مواعظ الآباء الشرقيين فكثيرة جداً وهي فاتحة

بعبير الفصاحة والبلاغة على ما هو مألوف نَزْعتهم في كتاباتهم وخُطَبهم . راجع تآليف النزينزي ويوحنا فم الذهب ويوحنا الدمشقي والقديس افرام وباسيليُس الكبير وغيرهم

٢ً في الخطبة المدحيَّة

وهي ثلاثة انواع : الخطبة في اسرار حياة المخلّص ووالدتهِ العذراء . الخطبة في مدح القديسين والخطبة التأبينيَّة .

١ الخطبة في اسرار حياة المخلّص ووالدتهِ العذراء

س ما الغاية من هذه الخطبة

ج غايتها ١ً ان يقف المؤمنون حقّ الوقوف على اعمال السيّد المسيح

٢ً ان يُنزلوها منزلتها اللائقة بها من الاكرام

٣ً ان يجتنوا ثمرةً منها .

فان علمت ذلك أَلَّفتَ الخطبة بحيث تصل الى المقصود .

س اذكر لنا مثالاً على هذه الخطبة .

ج عليك بخطبةٍ للاب سِنْيَري الواعظ المشهور . موضوعها آلام سيّدنا يسوع المسيح . والقصد منها تحريك النفوس على الاعتبار بما تحمّلهُ الرب من اجل محبّتنا

قال اولاً في المقدَّمة يخاطب الخطاة

غلبتم ايها الخطأة فافرحوا . بلغتم آربكم من ربكم فافتخروا. أبشركم ان يسوع قد مات مرفوعاً على الصليب معانياً أشدّ العذاب عُرياناً متروكاً مُزدرى على مرأى جمهورٍ من الخلائق . . . بعيشكم يا قساة أمرتكم هذه البشارة . . أ تُحبّون ان تحققوا الخبر بالعيان . هلمّوا الى الجبل تشبعوا من منظرٍ يروقكم . . تُبصروا باعينكم الجراحات التي جرحتم بها جسدهُ بخطاياكم . تُعاينوا جسدهُ معلّقاً مُشمّاً مُقطّعاً من جراء شهواتكم وراسهُ موجعاً بنخسات كبريائكم وشفتيهِ متمرمرتين بسموم ألسنتكم . . . . . قوموا فاسركم . تعالوا نصعد الى جبل الربّ .

وبعد هذا الاستهلال الذي يستغني عن الوصف بما فيهِ من البلاغة الظاهرة عدل الى القسم الاول من خطابهِ مُبيناً فيهِ ثلاثة امور .

أولها ان السيد المسيح قاسى الآلام في النفس والجسد معاً . قال :

كثير من الناس تصيبهم الآلام الموجعة غير انها ان آصابت الجسد لم تُصِب النفس وان حلّتْ بالنفس لم تحلّ بالجسد . وامّا يسوع المخلّص فقاسى الآلام بنفسهِ وجسدهِ معاً حتى سمّاهُ النبيّ رجل الاوجاع .

ثانيها ان المخلص كان اكثر شعوراً بالعذاب من جميع البشر لانّ جسمهُ خُلق اكمل والطف من اجسام جميعهم قال :

اعلم ان كثيرين غير المخلص اصابتهم اوجاع كثيرة وآلام فادحة الّا ان اجسادهم لم تكن لتشعر بالألم الموجع شعورَ يسوع بهِ . . . لانّ الجسد الاقدس الذي تركّب بفعلٍ يسمو على قوَّة الطبيعة كان اكثر كمالًا من جميع الاجساد التي تكون بفعلٍ طبيعيّ اذ كلّ شيء جرى بمعجزةٍ كان أتمّ من غيرهِ

ثالثها ان المخلص لم يُقاسِ الاوجاع حين الآلام فقط بل مثّلها نصب عينيهِ من اوائل حياتهِ فكأنّهُ تألم منذ وُجِدَ الى حين مات وفقاً للنص النبويّ : وجعي مقابلي في كل حينٍ . — قال :

عَانى المخلص كُلَّ صنفٍ كان مزمعاً ان يُصيبهُ من اصناف الآلام . عَاينَ خيانة يوداس وتَرْكَ تلاميذهِ لهُ . أبصرَ جلدَهُ على العمود واكليل الشوك على رأسهِ والمسامير في يديهِ ورجليهِ ورفعَـهُ على الصلب عرياناً وتراعهُ ثلاث ساعات . . . وانما كان تمثيلهُ لاصناف هذه الآلام من بُعْدٍ كحالة مشاهدتنا لها وقد ادركتنا .

وبعد ان فرغ من القسم الاوّل انتقل الى القسم الثـاني واتى باخبار الآلام مُفصلًا باساليب غاية في التأثير . واماَّ في القسم الثالث فقال :

قرأتُ على صفحات وجوهكم سطور التأسّف والاشفاق مماَّ اوردتُ لكم من اخبار سيّدنا يسوع المسيح لهُ المجد . غير اني لا اَودّ ان تكون الفائدة من كُلّ ذلك سجم دموعٍ خارجة فقط . لانّ هذا ما يمكن صدورهُ من الشفقة الطبيعيَّة على كُلّ رزيَّة تنزل برجلٍ بريّ غير مذنب . فينبغي من ثمّ ان نستخلص من ذكر الآلام دواعي قويَّة تحرّكنا على الندامة والخجل من آثامنا . فنقابل قباحة كفرنا بنعم مَن تحمَّل تلك الآلام من اجلنا ونتوب اليهِ توبةً نصوحاً

ثم التفت الى المصلوب وخاطبـهُ خطاباً مؤثرًا للغاية مماَّ يدعو المؤمنين على حسن التوبة وهكذا ختم خطبتهُ .

٢ الخطبة في مدح القديسين

س وما الغاية من هذه الخطبة .

ج هي نفس الغاية التي قصدتها الكنيسة اذ اذنت في اكرام القديسين :

١ً ان تؤدّي الشكر لله وتُشيد باسمهِ . قال الكتاب : عجيبٌ الربّ في قدّيسيهِ . سبّحوا الربّ في قدّيسيهِ .

٢ً ان تحرّك المؤمنين على تمجيد اولياء الله الابرار والالتجاء اليهم .

٣ً ان تحثّهم على الاقتداء بفضائلهم .

هذا وامّا الطريقة لتأليف هذه الخطبة فهي على ما شرحناهُ في الخطبة المدحيّة المدنيّة .

٣ الخطبة التأبينيّة

س واي فرق بين هذه الخطبة والخطبة التأبينيّة المدنيّة .

ج لا فرقَ بين الاثنتَين الاَّ في كون هذه اسمى وارفع غرضاً . فلذلك تعيَّن على الخطيب ان لا يمدح فيها الاَّ ما كان في غاية الموافقة للتعاليم الدينيَّة

امَّا التسلية فلا يخفى انَّها تُؤْخذ هنا على وجه الخصوص من مصادر الدين . وامَّا الحثّ فينبغى ان يكون على الفضيلة والتمسّك بالبرّ والسيرة الحسنة .

٣ً في خطبة التأويل

س ماذا تفهم بخطبة التأويل

ج كلّ خطبةٍ يُفسَّر فيها امَّا كلام الانجيل او الرسائل او شيء آخر من آيات الكتاب

وطريقة التصرّف فيها ان تُوضح المعنى جملةً جملةً فتشرح غامضَهُ شرحاً مُطوّلاً او مُوجزاً على حسب صعوبة الموضوع او سهولتهِ وعلى حسب ما تقتضيهِ الحال

ولا بأس في خلال الشرح ان تُثني على الله او تتكلَّم على شرف الفضيلة وقبح الرذيلة او تُذكّر بالابديَّة

وفي الخاتمة لا بُدَّ لك من بعض الحثّ على الغرض كما تستلزم الاحوال او تتطلَّب حاجات السامعين

وللآباء القديسين في التأويل شيءٌ كثير . وقد تفرّد فيهم القديس يوحنا فم الذهب وهذا مثالٌ من موعظةٍ لهُ اوّل فيها آيةٌ من رسالة بولس الرسول الى الرومانيين :

« اسألكم ايها الاخوة بمراحم الله ان تقرّبوا اجسادكم ذبيحةً حيَّةً مُقدَّسةً مرضيَّةً عند الله عبادةً منكم عقليَّة » . قال فم الذهب :

بعد ان ذكّرنا الرسول فيما تقدّم من الآيات بنعم الله التي هي نتيجة مراحم الله عاد الان يسألنا بنفس تلك المراحم ان نُواجه غرض النعمة . وكيف ذلك . قال : اسألكم ان تقرّبوا اجسادكم ذبيحة . ولئلّا يتبادر الذهن الى لزوم الذبيحة الدمويَّة بقتل الاجساد اضاف اليها قولهُ : حيَّة – واحترازاً من ان تكون كذبائح الاقدمين قال ايضاً : مُقدَّسة مرضيَّة عبادة عقليَّة – لان ذبائحهم كانت جسديَّة ولم تكن في الاكثر مقبولة . . . .

وربَّ قائلٍ : كيف أُقدّم الجسد ذبيحة – قُلتُ : ان لا تُحوّل عينك الى قبيح . هذا هو الذبيحة . ان لا يتحرّك لسانك بالدنس هذا هو الذبيحة . . . غير أن هذا كُلّهُ غير كافٍ . اذ لا بُدَّ ايضاً ان نعمل الاعمال الصالحة .

فالذبيحة الفُضلى اذًا ان تبسط يدك بالصدقات وان يُبارك لسانُك مُبغضَكَ وان تُعوّد اذنك سماع كلام الله . . . . هكذا يمكننا ان نقرّب اجسادنا ذبيحة حيَّةً مُقدَّسةً مرضيَّةً لله عبادة عقليَّة

ولهُ ايضاً تأويل في هذه الآية : لتختبروا ما مشيئة الله الصالحة المرضيّة الكاملة . قال :

وما مشيئة الله — هي ان نعيش في الفقر والتواضع والزُّهد في الدنيا لا في اللذّات . . . . . . في الاتعاب لا في الراحة . . . . . . في النوح والبكاء لا في المرح والسرور . . . . في الصوم وقهر الجسد . . . في ضبط الاميال المخرفة والتمسّك بابواب البرّ . . . . . . مشيئتهُ اذًا ان نعمل كُلّ ما امرنا بهِ . . . . . . —

وهذا القدر الوجيز كافٍ لبيان المقصود من التأويل

٤ً في الخطبة الجدليَّة

الخطبة الجدليّة ضربان . أوّلها خطاب على طريقة المجادلة بين واعظَين احدهما يُلقي المسائل والآخر يردّ عليهِ

والضرب الثاني خطاب يُقصد فيهِ شرح اسرار الدين والمُدافعة عنها في وجه الخوارج المُبدعين . وذلك ليرجع السامعون للايمان او ليزدادوا فيهِ ثباتاً .

تنبيهات ١ً لا تُلقى هذه الخطبة بحضرة جمهور ايًّا كان . انّما يقتضي ان يكون السامعون من اهل العلوم والآداب . والأّ سقطتْ دون الغرض بل جاءت سبب عثرةٍ .

٢ً تؤْخذ الحجج والبراهين امَّا من العقل او من مصادر لا يصحّ للخصم ان يعترض عليها

٣ً واذا خطر للخطيب اعتراض على ما اثبتهُ فلهُ ان يبادر الى تفنيدهِ كما لو كان اوردهُ الخصم ويتّبع في ذلك ما سبق بيانهُ في الصفحة ١١٣ من هذا الكتاب

س اي مسلك من الانشاء يُتَّبع في الخطابة الدينيَّة

ج لا مراء ان الموعظة ثقيلة على السمع شديدة على النفس بعيدة من القبول لاعتراضها الشهوة ومعارضتها الهوى الذي هو ربيع القلب ومربع اللهو ومسرح الامانيّ . فكان من ثمَّ واجبًا على كلّ خطيب في امور الدين ان يُزيّن خطبته لنفوس السامعين بالالفاظ الحسنة والعبارات الرائقة والاساليب المُنمَّقة ويُجمّلها بانواع من التشابيه والمقابلات التي تنهج لها سبيل الوصول الى الافهام متصرفًا في طرق بيانها على وجوه شتَّى تجعل القلوب ميَّالة اليها شديدة الاستئناس بها

هذا كلُّهُ الَّا ان عليهِ فوق ذلك ان يتحاشى التكلُّف ولا يقصرُ الخطبة على مُجرَّد التحسينات اللفظيَّة التي لا يليق الاجتزاء بها في منابر الوعاظة الدينيَّة . والحاصل انه لمَّا كان جمهور السامعين للخطب الدينيَّة جامعًا لطبقات الناس من عالمٍ

مُتفقّهٍ وجاهلٍ لا دربةَ لهُ وجب ان تكون الخطبة انيقة غير مكدودة لا يستنكرها العالم ولا تستبهم على الجاهل

ولا بُدَّ على كلّ الاحوال من الاخذ بالرصانة والوقار بحسب ما يجب على الناطق باقوال الله من قِبَل الله

قد نبَّهنا فيما سبق ان القول الخطبي ثلاثة : تثبيتيّ ومشوريّ ومُشاجريّ. والحال ان هذا التقسيم ينطبق ايضاً على الخطابة الدينيَّة . الا ترى ان خطبة الوعظ النظريَّة والخطبة المدحيَّة وخطبة التأويل مرجعها الى القول التثبيتيّ . وخطبة الوعظ الادبيَّة تختصّ بالقول المشوريّ . واماَّ الخطبة الجدليَّة فهي من القول المشاجريّ

فصلٌ

في

الخطابة الدينيَّة الاسلاميَّة

لما فرغنا من الكلام في اجناس الخطابة المدنيَّة والدينيَّة استحسنَّا ان نفرد فصلًا للخطابة الدينيَّة عند المسلمين لا سيَّما ونحن بين ظهراني أُمتهم الشريفة . فمن ثمَّ تفقَّدنا كتُب الأئمة ومجاميع الادب واقتطفنا منها ما رأينا مسطورًا من قواعد هذه الخُطَب عندهم ونقلناهُ بحروفهِ من غير ان تصرَّف الَّا بتبويبهِ وجعلهِ على طريقة السؤال والجواب كسائر اجزاء الكتاب

ومدار كلامنا اولاً على الوعظ وغايتهِ وفائدتهِ . وثانيًا على عيوب بعض الخُطباء. وثالثًا على صفات الخَطيب الحسنة. ورابعًا على مصادر الوعظ . وخامسًا على اجزاء هذه الخطابة

الخطابة الدينيَّة الاسلاميَّة

البحث الاول

في الوعظ

س ما الوعظ

ج الوعظ هو التذكير بكلام الله

قال بعض القُدماء : الوعظ هو حبل الله الممدود وعهدهُ المعهود وظلّهُ العميم وسراطهُ المُستقيم وحُجَّتهُ الكبرى ومَحجّتهُ الوُسطَى

س وما الغاية من الوعظ

ج قال الشيخ الحسين المرصفي : لمَّا كان الانسان موضعاً للسهو والنسيان ومحلاً للذهول والغفلة تعيَّن ان يصحبهُ مُذكّرٌ دائم وواعظ مستمرّ يهديهِ الى قصد السبيل وجادّة المحجَّة كلّما جارت بهِ الخيالات الفاسدة والوساوس الرديئة . ولتحصيل ذلك ورد الامر في قولهِ : ولتكن منكم أُمَّة يدعون الى الخير .

قال بعض الحكماء : فالموعظة موقظة للقلوب من سِنة الغفلة ومُنقذة للبصائر من سكرة الحيرة ومُحيية لها من موت الجهالة ومُستخرجة لها من ضيقة الضلالة . . .

س وما الفائدة من الوعظ

ج قال النبيّ : حُفّت الجنّة بالمكاره وحُفّت النار بالشهوات. يُريد ان الطريق الى الجنّة احتمال المكروه في الدنيا. والطريق الى النار ركوب الشهوات . والوعظ هو المانع لك ممَّا تشتهي والحامل لك على ما تكره (من كتاب العقد الفريد)

س وكيف العمل حتى يتوصّل الواعظ الى غاية الوعظ وفائدتهِ

ج عليهِ ان يعدل عمَّا ذكرهُ الشيخ الحسين المرصفي من عيوب بعض الخُطباء . وان يكون مُتَّصفاً بمزايا الخطيب الحسنة .

البحث الثاني

في عيوب بعض الخطباء

س وما هي عيوب الخطباء على ما ذكرها الشيخ الحسين

ج هاكَ مُلخَّص ما قالهُ :

« من خطباء المنابر كثيرون تراهم وتسمعهم وهم انَّما تميّزوا عن آخر طبقة من طبقات العامّة لتمكّنهم من قراءة نوعٍ من انواع الخطّ . فغاية امر الواحد منهم ان يقرأ ديوان خُطَب صنّفه بعض اسلافهِ كما تخيَّل مناسباً للشهور والمواسم فيتحفَّظ ما تعطيهِ تلك النقوش من موادّ الالفاظ . او ينسخ صورة خطبةٍ ليخفَّ حملها عليهِ اذا قام بها خطيباً . يسرد الفاظاً حفظها او نظر حروفها لا يعقل معناها ولا يفهم المراد منها كما اذا لم يكن الديوان مشكولاً ولم يقرإ الخطبة على ذي درايةٍ سمعتَ منه المُعجب والمُطرب من اللحن الفاحش والتصحيف القبيح

« ومن خُطَباء الاسلاف ... تجد ان جميع خُطَبهم يدور امرها على معانٍ واحدةٍ والفاظٍ مُعيَّنةٍ لا تُجاوزها وهي التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة وتبشير المُطيع وانذار العاصي . يكرّرون ذلك كُلَّ جمعة وكُلَّ موسم حتى لم يبقَ له تأثيرٌ والتحق بالامور المعتادة . انَّما يسمع الناس اصواتاً ذات كيفيَّات مختلفة إقامةً لذلك الرسم حسبما يصل اليهِ فهم العامَّة من ان تلك الصورة هي إقامة الدين . وفي صفة خطَباء العصر الثاني بعد عصر النبيّ واصحابهِ يقول شاعرهُ :

وذمُّوا لنا الدنيا وهم يرضعونها أفاويقَ حتَّى ما يَدُرُّ لنا ثُعل

« ولا تظنّ اني انتقص بذلك خطباء العصور الأُولى فانهم كانوا يرون كفاية ذلك لكثرة أهل المعرفة حين ذاك . وبالجملة فكيفما كان الحال في الخطابة فهي غير كافيةٍ في تحقُّق الدُّعاء الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المُنكر

« وامَّا الوُعَّاظ . . . فانَّ الوعاظة كانت حرفةً شائعةً وصناعةً فاشيةً كان اهلها يتنافسونها وكثير منهم اخذ عليها الرواتب من الاموال واكثرهم كان يلمُّ بها القِطَع من العامَّة الذين يحضرون مجالسهم . فكان الواعظ اذا فرغ من كلامهِ الذي أعدَّهُ لذلك المجلس بَسَط منديلهُ وطرح فيهِ كلَّ ما سمحت بهِ نفسهُ »

هذه كلها عيوب فان عدل عنها الخطيب سهل عليهِ الوصول الى المقصود من الوعظ اللهمَّ اذا كان مُتَّصفًا بالمزايا الحسنة

البحث الثالث

في صفات الخطيب الحسنة

س وما هي صفات الخطيب الحسنة .

ج قال الشيخ الحسين المرصفي :

ان مَن نصب نفسه لوظيفة الهُدى ودُعاء الناس الى الخير يجب ان يكون ابعدهم من التصنُّع وأحرصهم على الكمال. فان ادنى هفوةٍ منه تُسقط اعتباره وتسهّل التهاون به فلا يكون لكلامه تأثير في القلوب ويصير مجلسه مسلاةً يُتلهّى بحضوره. فكثيرًا ما كانت تلك المجالس مواعد لاهل الخلاعات والمجون.

وقالوا: ما احسن التاج وهو على رأس الملك احسن. — وما احسن الدُرَّة وهي على نحر الفتاة احسن. — وما احسن الموعظة وهي من الفاضل التقيّ احسن.

ثمّ ومن صفات الواعظ ان يكون من الفطنة والذكاء وبراعة المنطق وبلاغة العبارة بمكانٍ رفيع

البحث الرابع

في مصادر الوعظ

س اذكرْ مصادر الوعاظة

ج قال ابن عبد ربّه: واحكمُ المواعظُ مواعظ الله. ثمّ مواعظ الانبياء. ثم مواعظ الآباء للابناء. ثم مواعظ الحُكماء والأُدباء. ثمّ مقامات العُبَّاد بين ايدي الخُلفاء. ثم قولهم في الزهد ورجالهِ المعروفين بهِ

مواعظ الله :

يابُنيَّ أَقِمِ الصلوة وَأْمُرْ بالمعروف وَانْهَ عن المُنكَر واصبرْ على ما اصابك. إنَّ ذلك من عزم الامور . ولا تُصَعِّرْ خدّك للناس . ولا تمشِ في الارض مرحاً ان الله لا يُحِبّ كُلَّ مختالٍ فخور . —(سورة لقمان)

قُلْ إنَّ الموت الذي تفرّون منهُ فانَّهُ مُلاقيكم ثُمَّ تُردّون الى عالِم الغيب والشهادة فيُنبّئكم بما كنتم تعملون ٠٠ (سورة الجمعة)

مواعظ الانبيا :

وقال شعيا لبني اسرائيل :

ان الدابّة تزداد على كثرة الرياضة ليناً . وقلوبكم لا تزداد على كثرة الموعظة الّا قسوة . ان الجسد اذا صلح كفاهُ القليل من الطعام وان القلب اذا صحّ كفاهُ القليل من الحكمة . كم من سراج قد اطفأتهُ الريح وكم من عابد قد افسده العجب . يابني اسرائيل اسمعوا قولي فان قائل الحكمة وسامعها شريكان وأَولاهما بها من حقّقها بعملهِ

مواعظ الآباء للابناء :

قال لقمان لابنهِ

اذا اتيتَ مجلس قوم فارمِهم بسهم السلام ثم اجلس فان افاضوا في ذكر الله فأَجِلْ سهمك مع سهامهم وان افاضوا في غير ذلك فخلِّ عنهم وانفضْ ثوبك.

وقال :

يا بنيَّ استعذْ بالله من شرار الناس وكن من خيارهم على حذر

وقال ايضاً :

لا تركن الى الدنيا ولا تشغل قلبك بها فانك لم تُخلق لها وما خلق الله خلقاً اهون عليهِ منها . فانَّهُ لم يجعل نعيمها ثواباً للمطيعين ولا بلاءها عقوبة للعاصين . يا بُنيَّ لا تضحك من غير عجب ولا تمشِ في غير أرب ولا تسأل عما لا يعنيك .

يا بُنيَّ لا تضيّع مالك وتصلح مال غيرك فان مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت . يا بُنيَّ انَّهُ من يرحم يُرحم ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغنم ومن يقل الباطل يأثم ومن لا يملك لسانهُ يندم . يا بُنيَّ زاحم العلماء بركبتيك وأنصت اليهم بأذنيك فان القلب يحيا بنور العلماء كما تحيا الارض الميّتة بمطر السماء

مواعظ الحُكماء والأُدباء

قال ابن شبرمة :

اذا كان البدن سقيماً لم ينجع فيهِ الطعام ولا الشراب واذا كان القلب مُغرماً بحبّ الدنيا لم تنجع فيهِ موعظة .

وقال بعضهم :

من عمل لآخرتهِ كفاهُ الله أمر دنياه ومن أصلح ما بينهُ وبين الله أصلح الله ما بينهُ وبين الناس ومن أخلص سريرتهُ أخلص الله علانيتهُ .

من مقامات العُبّاد بين ايدي الخلفاء

دخل اعرابي على سليمان بن عبد الملك فقال :

يا امير المؤمنين اني مُكلّمك بكلام فاحتملهُ ان كرهتهُ فانَّ وراءهُ ما تُحبّ ان قبلتهُ . . اني سأطلق لساني بما خرستْ عنهُ الالسن من عظتك تأديةً لحقّ الله تعالى وحقّ إمامتك . انَّهُ قد اكتنفك رجالٌ أساؤا الاختيار لانفسهم فابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربّهم . خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك . فهم حرب الآخرة . سلْمٌ للدنيا فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليهِ . فانهم لا يألونك خبالاً والامانة تضييعاً والأمّة عسفاً وخسفاً . وانت مسؤول عمّا اجترحوا وليسوا مسؤلين عمّا اجترحتَ . فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك . فان اخسر الناس صفقةً يوم القيامة واعظمهم غبناً مَن باع آخرتهُ بدنيا غيرهِ

قولهم في الزهد

قيل للزهيري ما الزهد : قال

اما انَّهُ ليس تشعيث اللمَّة ولا قشف الهيئة ولكنَّهُ صرف النفس عن الشهوة ·

دخل قوم على عمر بن عبد العزيز يعودونهُ في مرضهِ وفيهم شابٌ ذابل ناحل فقال لهُ عمر يافتى ما بلغ بك ما أرى . قال :

يا امير المؤمنين امراض واسقام . . . ذقتُ يوماً حلاوة الدنيا فوجدتُها مرَّة عواقبها فاستوى عندي حَجَرُها وذهبُها . وكأني انظر الى عرش ربّنا والى الناس يُساقون الى الجنة والنار . فأظمأت نهاري واسهرت ليلي وقليل كلّ ما انا فيهِ من جنب ثواب الله وخوف عقابهِ

البحث الخامس

في اجزاء الخطابة

س كم هي اجزاء الخطابة

ج اجزاؤها ثلاثة

١ الفاتحة وهي الحمد لله والصلاة على النبيّ وآلهِ

٢ بيان المقصد

٣ الحثّ على الامر المخطوب بهِ

وقد يرتجل الخطيب بذكر المقصد من غير ان يفتتح الكلام بالحمدلة والصلاة على النبيّ

وهذه ثلاثة خُطب لاشهر خُطباء المُسلمين مُنطبقة على ما مرّ بك من قواعد هذا الفنّ .

الخطبة الاولى لعلي بن ابي طالب

يا ايها الانسان ما جرّأك على ذنبك وما غرّك بربك وما آنسك بهلكة نفسك . آما من دائك بلول . أليس من نومك يقظة . أما ترحم من نفسك ما ترحم من غيرك . فربما ترى الضاحي من حرّ الشمس فتظلّهُ او ترى المبتلى بألم يمضّ جسدهُ فتبكي رحمةً لهُ. فاصبَّرك على دائك وجلّدك بمصابك وعزّاك عن البكاء على نفسك وهي أعزّ الانفس عليك . وكيف لا يوقظك خوف بيات نقمة وقد تورطتَ بمعاصيهِ مدارج سطواتهِ

فتداوَ من داء الفترة في قلبك بعزيمة ومن كرى الغفلة في ناظرك بيقظة وكن لله مطيعاً . وبذكرهِ آنساً . وتمثّل في حال تولّيك عنهُ اقبالهُ عليك يدعوك الى عفوهِ ويتغمدك بفضلهِ وانت متولٍّ عنهُ الى غيرهِ

فتعالى من قويّ ما اكرمهُ . وتواضعتَ من ضعيف ما اجرأك على معصيتهِ وانت في كنف سترهِ مقيم وفي سعة فضلهِ متقلّب . فلم يمنعك فضلَهُ ولم يهتك عنك سترهُ. بل لم تخلُ من لطفهِ مطرفَ عينٍ في نعمة يحدثها لك او سيئة يسترها عليك او بلية يصرفها عنك . فما ظنك بهِ لو اطعتهُ

وايمُ الله لو ان هذه الصفة كانت في متّفقَين في القوة متوازنين في القدرة لكنت اول حاكم على نفسك بذميم الاخلاق ومساوئ الاعمال . وحقاً اقول ما الدنيا غرتك ولكن بها اغتررت ولقد كاشفتك العظات وآذنتك على سواء . ولهي بما تعدك من نزول البلاء بجسمك والنقص في قوتك أصدق وأوفى من آن تكذبك او تغرك . ولربّ ناصحٍ عندك متهم وصادق من خبرها مكذَّب . ولئن تعرفتها في الديار الخاوية والربوع الخالية لتجدنَّها من حسن تذكيرك وبلاغ موعظتك بمحلة الشفيق عليك والشحيح بك ولنعم دار مَن لم يرضَ بها داراً ومحلّ من لم يوطنها محلًّا وان السعداء بالدنيا غدًا هم الهاربون منها اليوم

اذا رجفت الراجفة وحقّت بجلائلها القيامة ولحقَ بكل منسك اهلهُ وبكل معبود عبدتهُ وبكل مطاع اهل طاعتهِ فلم يجزَ في عدلهِ يومئذٍ خرق بصرٍ في

الهواء ولا همس قدم في الارض الّا بحقّهِ . فكم حجة يوم ذاك داحضة . وعلائق عذر منقطعة . فتحرَّ من امرك ما يقوم بهِ عذرك . وتثبَّت بهِ حجتك . وخذ ما يبقى لك مما لا تبقى لهُ وتيسَّر لسفرك وشم برق النجاة . وارحل مطايا التشمير

الخطبة الثانية للمهدي (من كتاب العقد الفريد)

الحمد لله الذي ارتضى الحمد لنفسهِ . ورضي بهِ من خلقهِ . احمدهُ على آلائهِ . وأمجّدهُ لبلائهِ . وأستعينهُ وأومن بهِ وأتوكل عليهِ توكل راضٍ بقضائهِ . وصابر لبلائهِ . وأشهد أن لا اله الّا الله وحدهُ لا شريك لهُ وأن محمدًا عبدهُ المصطفى . ونبيهُ المجتبى . ورسولهُ الى خلقهِ . وأمينهُ على وحيهِ . أرسلهُ بعد انقطاع الرجاء وطموس العلم واقتراب من الساعة الى امة جاهلية مختلفة أمية أهل عداوة وتضاغن وفرقة وتباين . قد استهوتهم شياطينهم وغلب عليهم قرناؤهم فاستشعروا الردى . وسلكوا العمى . يبشّر من اطاعهُ بالجنة وكريم ثوابها . وينذر من عصاهُ بالنار واليم عقابها . ليهلك من هلك عن بيّنة . ويحيا من حي عن بينة . وان الله لسميع عليم

اوصيكم عباد الله بتقوى الله فان الاقتصار عليها سلامة . والترك لها ندامة . وأحثكم على اجلال عظمته . وتوقير كبريائه وقدرته . والانتهاء الى ما يقرب من رحمتهِ . وينجي من سخطهِ . ويُنال بهِ ما لديهِ من كريم الثواب . وجزيل المآب . فاجتنبوا ما خوفكم الله من شديد العقاب . واليم العذاب ووعيد الحساب . يوم تُوقفون بين يدي الجبار . وتعرضون فيهِ على النار . يوم لا تكلّم نفس الّا باذنهِ . فمنهم شقي وسعيد . يوم يفرّ المرء من اخيهِ . وامه وابيهِ . وصاحبته وبنيهِ . لكل امرئ منهم يومئذٍ شأن يغنيه . يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئًا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولاهم ينصرون . يوم لا يجزي والد عن ولدهِ . ولا مولود هو جازٍ عن والدهِ شيئًا

ان وعد الله حق فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . فان الدنيا دار غرور . وبلاء وشرور . واضمحلال وزوال . وتقلّب وانتقال . قد أفنت من كان قبلكم وهي عائدة عليكم وعلى من بعدكم . من ركن اليها صرعتهُ . ومن وثق بها خانتهُ . ومن املها كذبتهُ . ومن رجاها خذلتهُ . عزُّها ذلّ وغناها فقر والسعيد من تركها والشقي فيها من آثرها والمغبون فيها من باع حظّهُ من دار آخرتهِ بها . فالله الله عباد الله والتوبة مقبولة . والرحمة مبسوطة . وبادروا

بالاعمال الزكية في هذه الايام الخالية قبل ان يؤخذ بالكظم وتندموا فلا تنالون الندم في يوم حسرة وتأسف وكآبة وتلهف يوم ليس كالايام . وموقف ضنك المقام .

الخطبة الثالثة نقلناها من كتاب الموعظة الحسنة للشيخ ابي الطيب صديق بن حسن بن علي القنوجي

الحمد لله الذي جعل البيت الحرام من اعظم فرائض الاسلام . والحمد لله الذي جعل الحجّ كفّارةً للخطايا والآثام . نحمده على ما منح من سوابغ الانعام . وأشهدُ أن لا اله الّا الله وحدهُ لا شريك لهُ شهادةً تقودُ الى دار السلام . ونشهد انّ سيّدنا محمّدًا عبدهُ ورسولهُ اوّل الانبياء ومسك الختام . اللّهمّ فصلِّ وسلّم على سيّدنا محمّدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ صلاةً وسلامًا دائمين الى يوم القيام

امّا بعدُ ايها الناس فانّ الله دعاكم الى بيتٍ حرامٍ في بلدٍ حرامٍ . ووعدكم بهِ أسنى الضيافة وأهنى الإكرام . من قبول الاعمال ومحو الخطايا والآثام . وخلف الانفاق وتوفير الأجر التام . فعلامَ التسويف من عامٍ الى عامٍ . وإلامَ التعلّل بعلائق اشتغال بهذه الحطام . وحتّامَ لا تغتنمون فسحة الليالي والايّام . أعلى يقين من طول الاعمار وصحة الاجسام

فالغنيمةَ الغنيمةَ لبلوغ المرام . والعزيمة العزيمة الى حطّ أثقال الاثام . والرحيل الرحيل الى بيت الله الحرام . بيتٌ حجّهُ ابونا آدم عليهِ السلام . وحجّتهُ ملائكةُ الرحمن قبلهُ بألفي عام . وحجّتهُ انبياء الله ورسلهُ الكرام . وأذّن ابرهيم الخليل بحجّهِ فاجابوهُ من الاصلاب والارحام . آلا وانّ مؤذّن الحجّ يُنادي بينكم بالرحيل . ويستحثّ منكم من استطاع السبيل . فهذا اوان انضمام الرفيق الى الرفيق . وهذا وقت شدّ الرحال الى بيت الله العتيق . وهذا ايّام تراحم وفد الله في كل طريق رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتينَ من كل فجٍّ عميق . فهل من متعرّض لنفحات الاحسان . وهل من خائفٍ فيلوذ بحرم الرحمن . وهل من مشمّرٍ لأداء فرضٍ أنزل الله فيهِ قولاً ثقيلًا : ولله على الناس حج البيت من استطاع اليهِ سبيلًا

وعنهُ صلّى الله عليهِ وسلّم حُجّوا فان الحج يغسل الذنوب كما يغسل الماء

الدرن . وعن عليّ رضي الله عنهُ قال: قال رسول الله صلّى الله عليهِ وسلّم مَن ملكَ زادًا وراحلةً تبلّغهُ الى بيت الله الحرام ولم يحجَّ فلا عليهِ ان يموت يهوديًا او نصرانيًا . وعن ابن عُمَر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلّى الله عليهِ وسلّم الحُجّاجُ والعُمّارُ وَفدُ الله ان سألوهُ اعطاهم وان دعوهُ اجابهم وان أنفقوا أخلف لهم . والذي نفس ابي القاسم بيده ما كبَّر مكبّر ولا أهلَّ مهلٌّ على شرَفٍ من الاشراف الّا اَهلَّ ما بين يديهِ وكبَّر حتّى ينقطع به منقطع التراب .

جعلني الله واياكم ممّن تزوّد لحجّ بيت الله الحرام . ووفّقني واياكم لزيارة خير الانام . انَّ احسن الكلام كلام الملك العلّام . والله يقول وقولهُ الحقّ المبين : فاذا قرأتَ القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم . واذّن في الناس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتينَ من كل فجٍّ عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في ايّامٍ معلوماتٍ على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلُوا منها واطعموا البائس الفقير

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم . ونفعني واياكم منهُ بالاية والذكر الحكيم . واجارني واياكم من العذاب الأليم . وثبّتني واياكم على الصراط المستقيم . أقولُ قولي هذا وأستغفرُ الله العظيم . لي ولكم ولجميع المسلمين . انهُ هو الغفور الرحيم . فاستغفروهُ

فهرس